أبحاث العدد الرابع من مجلة المؤرخ العربي لسنة ١٩٩٦م

تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

حروب الطلب ورقة بحثية في التاريخ

https://www.facebook.com/groups/١٠٣١٢٤٤٦١٦٩٢٢٣٨٦

رُفع من قبل محمد عبدالشفيع عاشور

نسألكم الدعاء

الفهرس

الكاتب	المقالة	الصفحة
سعيد عبد الفتاح عاشور	أمانة الأجيال	7
يوسف أحمد حوالة	وصية معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد	11
عبد العزيز عبد الله السالم	أضواء على العلاقات بين الإمارة الصفارية والدولة العباسية في القرن الثالث الهجري	51
سعد عبد الله البشري	النظافة وسلامة البيئة في المجتمع الأندلسي	75
يمنى رضوان	آل الجنابي بين الفاطميين والعباسيين في القرنين الثالث والرابع الهجرة	105
نورة محمد عبد العزيز التويجري	المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر في الميزان	147
حسن خضيرى أحمد	الدعوة الزيدية في مصر	181
سليمان الرحيلي	الفكر التاريخي عند تاج الدين السبكي	219
عادل عبد الحافظ حمزة	رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (569هـ =1174م)	249
حياة محمد البسام	فتح الرياض وموقف القوى الكبرى منه	269
عبد الله كامل موسى عبده	أضواء جديدة على بعض منشآت أمراء المماليك في القرنين السابع والثامن الهجرة	293

بســم اللــه الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح :

أمانـــة الأجيـــــال

العمل الصالح أمانة ... وبناء الأجيال أمانة ... والأخذ بأيدى الناشئين أمانة ... والتواضع فى العلم والمعرفة أمانة ...

ان رسالة الأجيال متتابعة ، متكاملة ... وعلى كل جيل ان يحاول الارتفاع بالبناء الحضارى بحيث يسلمه للجيل التالى أكثر علوا وشموخا واسمى مكانة وارتفاعا ، وبذلك تخطو الحضـــارة البشرية نحو الامام جيلا بعد جيل ، مما يعود على الانسان والمجتمع بالخير والبركة .

ان أخطار ما يهدد الانسان فى مسيرته الحضارية أن تتوقف بعض الأجيال عن الافادة ، وأن يقتصر دورها على الأخذ دون العطاء ، فعندئذ تتعرض الحضارة للجمود ، وربما أصيبت بنكسة تعود على البشرية بالعجز والافــلاس .

ولا يمكن للحضارة البشرية أن تزدهر الا اذ اخذ كل جيل متقــدم بأيدى الأجيال الصاعدة ، بحيث يستفيد الناشئون من خبـــرة وتجارب الكبار المحنكين ، ويتخذوا من هذه الخبرة ركيزة تمكنهم من مراجعة النفس ، وتصحيح الخطا ، وتقويم البنيان ، تمهيدا للارتفاع به لتحقيق مالم يحققه السابقون .

★ ★ ★

اقول هذا وامامى رسالة من زميل عضو بالاتحاد ، بعث برسالته من دولة عربية شقيقة ، يطالبنى فيها بأن تقتصر مجلة اتحاد المؤرخين العرب على نشر البحوث التى يتقدم بها الأساتذة المشاركون فما فوق ، وتتوقف عن نشر بحوث من هم دون ذلك من أصحاب الدرجات العلمية .

ولا شك فى ان الزميل الكريم حسن النوايا ، سليم المقصد ، يستهدف الوصول بالمجلة الى أرفع مستوى ننشده جميعا لها . ولكن مهلا ، أيها الأستاذ الزميل . عليك أن تذكر أن هذا الاتحاد اتحاد مؤرخين وليس اتحاد أساتذة...عليك ان تذكر أن من أهداف هذا الاتحاد الكبرى اعداد أجيال المستقبل ، الذين سيناط بهم فى يوم من الأيام حمـــل الأمانة ، والوفاء بالعهد والرسالة ، والحكم للتاريخ وعلى التاريخ ... علينا أن نذكر أن الجيل الذى لا يعبأ باعداد من يخلفه من النابهين ، سينتهى دوره،ان عاجلا أو آجلا،تاركا وراءه فراغا يدينه بالتقصير والقصور ...

ان معيد اليوم هو عميد الغد . فلنأخذ بيده ، ونحســـن توجيهه لكى يكون خير خلف لخير سلف . وعلى أساتذة اليوم أن يذكروا أنهم لم يولدوا أساتذة ، وأنهم مروا بمرحلة النشأة فى الأيام الخالية . وكان أن أحسن الله اليهم ، فيسر لهم من أضاء الطريق أمامهم وأرشدهم الى سواء السبيل . فلا أقل من أن يحسنوا كما أحسن الله اليهم .

★ ★ ★

ان مجلة المؤرخ العربى ستمضى قدما فى طريقها : طـــريق الحق والاعتدال . تفتح صدرها لبحوث الكبار الراسخين ، ولا تغلق أبوابها فى أوجه الناشئين من المتخصصين المستوفين لشروط الزمالة والبحث ؛ بحيث تعرض البحوث جميعا على الأساتذة المحكمين ، لرفض ماليس أهلا للنشر وما هو دون المستوى المنشود ، وتقويم ما يتطلب التقويم ، وتعديل ما هو فى حاجة الى تعديل ، واقرار ما هو صالح النشر . وبذلك يكون الرأى الأول والأخير لأهل التخصص من المحكمين . والتحكيم هنا لا يعنى التعالى والعسف والتسلط ؛ وانما هو الحـــكم العادل المتزن . والله عز وجل « أحكم الحاكمين » .

هكذا يمضى اتحاد المؤرخين العرب قدما ، ليجمع بين دفتيه بين الوالد والابن ، بين المعلم والمتعلم ، بين الكبير المتقدم والناشىء المتطلع ... الكل أعضاء فى أسرة واحدة ... كل جيل يؤدى دوره بأمانة الحفاظ على سلامة المسيرة .

لا عيب فى أن تتفاوت البحوث المنشورة فى مســــتواها ، ولكن العيب فى أن يتعرض بعض أعضاء الأسرة للحرمان ارضاء لرأى لا يخلو من قسوة « وفوق كل ذى علم عليم » .

رئيس التحـــرير

وصية معاوية بن أبى سـفيان لابنه يزيد

(دراسة نقدية تحليلية)

دكتور يوسف بن احمد حوالة(*)

ترك الخليفة الأموى معـاوية بن أبى سـفيان ، الذى اتصلت خلافته من سنة احدى وأربعين للهجرة حتى سنة سـتين منها ، وصية مهمة لابنه وولى عهده يزيد ، الذى كان قد جعل اليه أمر الخـلافة من بعده . والوصية من الاهمية بمحل كبير فى مجال الدراسات التاريخية ، وبخاصة فى حقل التاريخ الاسلامى ، مما يجعلها جديرة بالدراسة وعناية الباحثين .

وقد قسمنا دراستناهذه الوثيقةالى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل.

النقـــد

لعل اول ما يسترعى نظرنا هو أن الوصـية التى وجهها الخليفة معاوية بن ابى سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، وصية سياسية محضة ، ليس فيها ما يشير الى الجوانب الأخـرى الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية(١) . ثم ان هذه الوثيقة تتمتع بأهمية خاصة بوصفها فاتحة هذا النوع من الوصايا السياسية التى يتركها الملوك لأبنائهم فى التاريخ الاسلامى ، والتى يرسمون فيها النهج الذى يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه(٢) . حقيقة ان هناك وصـايا سياسية عرفتها الدولة الاسلامية فى عهود الخلفاء الراشدين . بيد أن الأمر مختلف هنا ، لاننا عندما نقول ان وصية معاوية رضى الله عنه ، هى فاتحة هذا النوع من الوصايا ، انما نعنى وصايا الملكية الوراثية ، اذ تأخذ الوصايا عند الحكام والملوك لأبنائهم طابعا أسريا ، بجانب السمة السياسية لهـذه الوصايا . والا فالحق أن عصر الراشدين عرف شيئا من هذه الوصـايا التى تركها

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ـ كلية التربية بالمـدينة ـ جامعة الملك عبد العزيز .

الخلفاء الراشدون لمن يخلفهم ، سواء نص على هـــذا الشخص أو لم ينص(٣) . ثم علينــــا الا ننسى أن معـــاوية اعتـــبر أول الملوك فى الاسلام ، وان الطابع السياسى كان غالبا على حكومته . هذا وان كانت بعض مظاهر هـــذا الطابع قد ظهـــرت معالمها فى عصر الخلفـــاء الراشدين(٥) .

والواقع اننا نجد انفســنا مدفوعين دفعا الى التوقف عنـــد هذه الوصية بعينها ـ علاوة على ما سلف ـ لأنها فى ذاتها تعد ذات قيمـــة ومضامين سياسية مهمة ، اذ توضح كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها مرجعا للساسة والقادة يستمدون منه أبجديات السياسة وفنونها ، كما سيوضحه التحليل لاحقا ان شاء الله . ذلك أنها تدل دلالة واضحة على شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى اشادت كثير من المصادر والمراجع قديمها وحديثها ببراعته السياسية(٦) . والحق ان هـــذه الوصية هى الدليل أو الأنموذج الأوضح لمقدار ما تمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة سياسية ، اذ جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى ، والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والخصوم . وفوق هـــذا وذاك ، فانها تدل على الخبرة النفسية الواســـعة بطباع الناس الذين خبرهم معاوية ، وعجم بهم ومعهم عود الحيـــاة طـــوال فترة اضطلاعه بالمسؤولية منذ بدء نجمه السياسى يبزغ : حاكما أو واليا على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان(٧) ، ثم واليا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه(٨) ، ثم خليفة من بعده لمـــدة اكثر من تسعة عشر عاما(٩) .

ومن دواعى الدراسة النقدية ، لهذه الوصية أيضا أنها جاءت فى نصين لاثنين من الاخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدى ، وعوانة بن الحكم الكلبى . أقول ان الوصية ، وهى بذلك تمثل لنا صورة لظاهرة الوضع والاختلاق التى ظهرت فى بعض حلقات التاريخ ، مما فطن اليه مؤرخو الأمة الثقات وعلماؤها . وسنتوسع فى هـــذا التحليل ان شاء اللـــه .

وفى مجال نقد هذه الوصية ، لابد من التطرق الى التحديد الزمنى

لها ، ثم المصادر التى اشارت الى الوصية بنصيها معا ، او اشارت الى أحد النصين فقط . ثم نورد النصين معا ، مع التعرض الظروف المحيطة التى استدعت اصدار الوصية . على أن نعقد مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون . ويلى ذلك مقتضيات رد أحد النصين سندا ومتنا ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف باطراف رواية الوصية واقوال العلماء فى هذا الشان .

التحديد الزمنى للوصية :

يبدو أن توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالبا عندما يستشعر الشخص الموصى دنو اجله(١٠) . وثمة حالات تاريخية تؤكد هذا القول، فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور مثلا وجه لابنه وولى عهده محمد الذى لقب بالمهدى فيما بعد وصية سياسية جامعة مانعة فى السنة التى شعر فيها بدنو أجله (١١) . وكذا الشأن فيما يتعلق بتلك الوصية السياسية المهمة - ايضا - التى تركها المنصور بن أبى عامر العامرى الأندلسى - الذى أسس له ولأسرته دولة عامرية داخل الدولة الأموية فى الأندلس - لابنه عبد الملك ، فقد استودعها اياه وهو على فراش الموت(١٢) .

ومع هذا ، فان ما جاء من تاكيد على أن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنين من اخلص رجاله ، هما الضحاك بن قيس الفهرى الذى كان صاحب شرطته (١٣) ، ومسلم بن عقبة المرى(١٤) - أحد رجالات العرب اليمنية المشهورين فى الشام - على ان يبلغاها ابنه يزيدا الذى كان غائبا وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد أن الخليفة فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلا، عندئذ بعث فى الرجلين فاتياه ، فابلغهما فحوى وصيته لابنه يزيد(١٥) . وما ان علم يزيد بنبأ وفاة أبيه حتى عاد سراعا الى دمشق، فتولى الخلافة على الفور بعد ان أدى اليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده اليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخر من هذه المعالجة ، أى التحليل ان ثمة قولا آخر مفاده أن الخليفة

معاوية بن أبى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهـــذا مبحث آخر يحتاج الى توثيق ، ولعله بالتحليل الصق واقرب ٠

المصادر التى أشارت الى الوصية :

الحق اننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى ـ رحمه الله ـ الذى دلنا على هذه الوصية بنصيها ٠ ولقد جهدنا أن نجد لها أثرا عند المؤرخين الذين ســبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى تاريخه ، ثم صاحب الكتاب المنسوب للمحدث اللغوى : ابن قتيبة ، أعنى كتاب : الامامة والسياسة(١٦) ، وهم ابرز الذين سبقوا الطبرى الى التدوين التاريخى فى صــورته الشــمولية ، اى التى تؤرخ الأحــداث والوقائع منذ بدء الخليقة ، فتتناول التاريخ الانسانى منذ آدم عليــه السلام حتى عصر كل واحد منهم على نسق الحوليات أو تتناول التاريخ الاسلامى منذ بدايته ٠ أقول جهدنا أن نجـــد للوصية أثرا عند هؤلاء المؤرخين المتقدمين عن الطبرى فلم نوفق(١٧) ٠ وهكذا نحن مدينون الى هذا المؤرخ العظيم ـ أى ابن جرير الطبرى(١٨) ـ ومن هنا سيكون اعتمادنا عليه فى نقله للوصية بنصيها(١٩) معا ٠ اما من جاء بعد ابن جرير ممن أشار الى الوصية ، فهو لاحق له ، وقد يكون أخذ عنه ، ولذا فلن نشير الى روايته ، اللهم الا عند توقفه ـ عند بعض نصوص الوصية مبديا رأيا ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه : البداية والنهاية ٠

الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية :

يبدو فى ضوء ما سبق أن هذه الوصية تعد افرازا طبيعيا لقضية أو مسالة ولاية العهد ليزيد ، وهى قضية مشهورة من القضايا التاريخية التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء العديد من الباحثين(٢٠) ٠

نص الوصية عند أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى :

قال الطبرى(٢١) : (وفيها ـ أى سنة ستين ـ التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه عهد الى ابنه يزيد حين مرض فيها ماعهد اليه فى النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم الى البيعــة ، وكان عهده الذى عهده ماذكره هشام بن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى

عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطات لك الأشياء ، وذللت لك الأعــداء ، واخضعت لك اعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فاما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق غيره بايعك ، واما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما ، واما ابن أبى بكر فرجل ان راى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ليس له همة الا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) .

نص الوصية عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، أى تاريخ الأمم والملوك(٢٢) بعد أن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قل نقلا عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : (قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى ســنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائبا ، فدعــا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطاته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فاوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى : انظر أهــل الحجاز ، فانهم اصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . وانظر أهــل العراق ، فان سالوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عــزل عامل أحب الى من ان تشهر عليك مائة الف سيف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم ان أقاموا بغــير بلادهم اخذوا بغير أخلاقهم . وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فاما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك ، وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف وارجو أن يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل أخاه . وان له رحما

ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليـــه فاصفح عنه ، فانى لو انى صاحبه عفوت عنه . وأما ابن الزبير فانه خب وضب فاذا شخص لك فالبد له الا أن يلتمس منك صـــلحا ، فان فعل فاقبل واحقـــن دماء قومـك ما استطعت) .

المقارنة بين النصين من حيث الشكل :

وهكذا نجد أنفسنا امام روايتين الوصية لراويين اثنين أشارا الى الوصية كل على حدة . ونلاحظ بادىء ذى بدء على الوصية بنصيها أنها قصيرة موجزة ، وان كان نص أبى مخنف : لوط بن يحيى اقصر من نص عوانة . ويبدو لنا من خلال ما تميزت به الوصايا كلون من الوان النثر الأدبى(٢٣) أن طبيعة الوصية أن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك أدعى وأبلغ فى التأثير المطلوب . وبالطبع فلا نستطيع أن نبنى حكما على ذلك فنقول أن معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته أن تكون هكذا ، الا أن ما نريد قوله ان معاوية اتبع هـــذا المنهج سليقة وفطرة كما يفعل بعض الشعراء الذين لم يدرسوا العروض أى الشـــعر الموزون المقفى : سليقة وفطرة . وكان الايجاز هو الطابع الغالب على هذا النوع من الوصايا سواء قبل عهد معاوية أو بعده (٢٤ ـ ٢٧) .

المقارنة بين النصين من حيث المضمون :

على أننا نلحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية أن ثمة اختلافا غـــير يسير ، لا ينحصر فى مجرد الألفاظ والكلمات وانما هو اختلاف جوهرى فى المضمون بين النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص ـ معا ـ عن نص عوانة بن الحكم . أما الزيادة فى نص أبى مخنف والتى خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الذى يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محمد الذى أســند اليه الطبرى رواية الوصية بنصيها ، حسبما هو واضح مما مر من ايراد النصين ، والتى قال فيها نقلا عن أبى مخنف (حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله ابن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطات لك

الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، واخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد) .

وأما النقص فى نص أبى مخنف ، مقـارنة بنص عوانة ، فهو المتمثل فى ذلك الوصف الذى خص به معاوية رضى الله عنه أهل الحجاز والشام والعراق بما خصهم به ، اذ جاء النص الذى أسنده الطبرى الى هشام بن محمد راوى نص عوانة حسبما مر من قبل على النحو التالى :

(قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر ان معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائبا ، فدعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبـة المرى ، فاوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى « أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر اهل العراق ، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا ، فافعل فان عزل عامل أحب الى من ان تشهر عليك مائة الف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شىء من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم ، فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير اخلاقهم) .

يبقى بعد هذا أن نشير الى موطن الاتفاق بين الرجلين ، والحق أن الشبه جد واضح فى الجزء المتصل بالتحـــذير أو التخويف الذى بثه معاوية روع ابنه يزيد من النفر الذين خالفوه من قريش فى التابى عن بيعة يزيد . هذا الجزء الذى يحذر فيه معاوية ابنه من هؤلاء النفر الذين حددهم وذكرهم له صراحة ، هو الذى التقى عنده الرجلان ، وهو الذى كان عرضة الدخل والاختلاق عند واحد من هذين الرجلين . تعمدنا ارجاء ذكر اسمه حتى نأتى على تمام الملاحظات الأولية على النصين ، ثم نشرع فى التحليل بعد . ولا تظل لنا وقفة بعد هذا فى هذا الاطار الا عند جزءيتين لا نخال القارىء الكريم الا قد فطن اليهما ، أولاهما تلك التى يمكن أن نعبر عنها بالقول : انه مع الاتفاق بين الراويين على أن الوصية موجهة ليزيد وهو المعنى بها الا أن الاختـــلاف وقع فى هل وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت اليه نقلا ؟ والجزئية الثانية اننا نلحظ أن راويا واحدا أورد نص الوصيتين هو : هشام بن محمد الذى سنعرض له

فيما بعد ، وبوسعنا أن نلحظ أن ثمة اختلافا يسيرا آخر فى أن هناك شخصا آخر أسند اليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث الوصية ، هو عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، وسنقف عنده بعد ان شاء الله ، فيما خلت رواية عوانة من ذلك . (٢٨ ـ ٢٩) .

● التعريف باطراف رواية الوصية :

قبل أن نعرض الى أقوال العلماء فى أطراف رواية الوصية ، علينا أن نعرف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيها الواردين عند الطبرى . اما ابو مخنف : فهو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة(٣٠) . يعد ابو مخنف فى أوائل الاخباريين الذين اعتنوا بالرواية التاريخية تصنيفا وتاليفا . ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى الفها عن العراق بخاصة ـ وغيرها من الاقطار ـ بعامة كما تتبع جميع ماقيل عن ابى مخنف من حيث نشأته ومذهبه الى غير ذلك(٣١) . ولعلنا هنا نكتفى بالاشارة الى أنه شيعى المذهب باجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل .

اما عوانة بن الحكم ، فهو عوانة بن الحكم بن عياض بن وزر الكلبى العلامة الاخبارى ، أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء . له كتاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع واربعين ومائة(٣٢) .

واما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلك فى كتابه آنف الذكر أى : سير اعلام النبلاء(٣٣) ، فقال عنه : العلامة الاخبارى النسابة الأوحد أبو المنذر : هشام بن الاخبارى الباهر محمد بن السائب ابن بشر الكوفى ، تصانيفه جمة . توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح . واما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة العامرى ، عامر قريش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل(٣٤-٦٦) .

● **مقتضيات رد احد النصين متنا :**

الحقيقة أن المتن الذى سنفصل الحديث عنه ، وهو الذى يهدم - مع السند - رواية أبى مخنف، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لاكها نفر من الاخباريين الضعاف.ففى البدء يسترعى نظارنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : ان معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يابنى ... الخ . وهذا خطأ لأن يزيدا فى الوقت، الذى اشتد فيه المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين(٦٦) البعيدة عن دمشق ، لقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من امثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم(٦٧)

ثم اذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة ، وهو المتمثل فى التحذير والتخويف من أولئك النفر من ابناء الصحابة رضى الله عنهم،لرأينا أن ثمة خطأ تاريخيا ثانيا تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : ان معاوية رضى الله عنه حذر ابنه من اربعة نفر من قريش هم : عبد الله بن عمر ، الحسين ابن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيرا عبد الله بن الزبير . ويكمن الخطأ فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء . فالحقيقة ان الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا اربعة . ذلك لأن عبد الرحمن بن ابى بكر رضى الله عنهما - وهو ثالث الأربعة فى رواية ابى مخنف - كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، اى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى الله عنهم(٦٨) ، وهذا مالاحظه ابن كثير(٦٩) الذى تدخل معلقا بعد أن اورد نص ابى مخنف فبلغ فى الحديث هذه النقطة ، فقال العبارة التالية : كذا قال ، يعنى كذا قال ابو مخنف ، ثم أردف قائلا : والصحيح ان عبد الرحمن كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ماكان قد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة ٥٨هـ ومنهم عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من ابى مخنف . هل يعود الى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطا التاريخى ، مع انه شىء مثير الاستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شـديد الاهتمام بتحديد وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصدا متعمدا لاظهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس ، بالاشارة الى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من الممتنعين على معاوية ؛ مثل غيره من ابناء الصحابة رضى الله عنهم(٧٠) .

وثمة خطا تاريخى ثالث لايقل فداحة عن هذا الخطا بل يزيد عليه ، اذ نرى فيه صورة واضحة للاساءة للصحابة رضى اللـه عنهم ، ذلك انه جاء فى نص ابى مخنف الذى يقول فيه على لسان معاوية : وأما ابن ابى بكر ، فهو رجل ان راى اصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليست له همة الا فى النساء واللهو(٧١ ـ ٧٤) .

وننتقل الى وصف معاوية الذى ذكره ابو مخنف انه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى اللـه عنهما ، مما تتبدى فيه كما يتراءى لنا اساءة للرجلين معـا : معـاوية وابن الزبير (٧٣ ـ ٧٨) . ونعنى بذلك تلك العبارة التى يقول فيها معاوية ليزيد ـ حسب رواية أبى مخنف ... فان فعلها بك ـ أى خرج عليك ، فقطعه اربا اربا .

الارب فى اللغة : العضو ، واربا : قطعا ، واربا اربا : العضو قطعه كاملا كما فى الذبيحة التى تقطع اربا اربا : عضوا عضوا(٧٠) . هذا من حيث اللغة . ومن حيث المعنى السياسى لا يمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب . وهو الذى ماجـرب عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلا ؛ فيما عـدا حجر بن عدى(٨٠) وحادثته(٨١) لانملك دليلا على قيام معاوية بالفتك باحد الصحابة .

ثم ان معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، الرافض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد(٨٢) ، ومع

افصاحه عما يتميز به عبد الله بن الزبير من صفات سياسية(٨٣) لا نظن أنه يحرض ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى ان يطلب منه تركه وشـــانه ـ مادامت بيعته قد انعقدت شرعا ـ كما فعل هو نفسه ـ أى معاوية ـ عنـــدما ترك النفـــر الأربعة وشانهم ، وان كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا(٨٤) . لقد كان فى وسع معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم ـ ومنهم عبد الله بن الزبير بموقفهم الرافض .

ونخلص من هذا كله الى القول باننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها سندا ومتنا للواقع التاريخى (٨٥-٨٦) .

التحليـــــل

لنمض الآن فى تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحررين من تاثير أبى مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، وان كنا سنعود اليها بين الفينة والفينة للمقارنة بينها وبين نص عوانة ، ولكى يتأتى لنـــا ذلك يحسن بنا أن نجزىء نص عوانة الى فقرات عدة هى :

١ ـ قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠هـ ، وكان يزيد غائبا .

٢ ـ فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فاوصى اليهما .

٣ ـ فقال : بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ ـ وانظر أهل العراق فان سالوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل احب الى من ان تشهر عليك مائة الف سيف

٥ ـ وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شيىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم اخذوا بغير اخلاقهم .

٦ - وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

٧ - فاما ابن عمر ،فرجل قد وقذه الدين،فليس ملتمسا شيئا قبلك.

٨ - واما الحسين بن على . فانه رجل خفيف ، وارجو أن يكفيكه الله بمن قتل اباه ، واخاه . وان له رحما ماسة ، وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ .ولا اظن اهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان قدرت عليه ، فاصفح عنه ، فانى لو انى صاحبه عفوت عنه .

٩ - واما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فان شخص لك ، فالبد له، الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

★ ★ ★

من الواضح انه ليس هناك مايقال بصدد الفقرة الأولى التى قال فيها الطبرى ، قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا ... الخ ، ولقد سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبى فى القسم الاول من الدراسة النقدية ، كذا الشان فيما يتصل بعوانة مما لا داعى لاعادته . غير أن مايلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية ... الخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الاطلاع على نص أبى مخنف سابق الذكر ، فقال ماقال اعتمادا على مصدره الذى وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ماتوحى به هذه العبارة . على اننا نستغرب الا يشير عوانة الى الشخص الذى نقل عنه خبر الوصية مثلما فعل أبو مخنف الذى أسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن مساحق . وبعيد جدا أن يكون عوانة معاصرا للاحداث وهو الذى توفى سنة ١٤٧هـ . فهذا انقطاع يصل الى اكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا ؟ هل يعنى التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ؟ ربما يكون الأمر كذلك ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية روايته التى لها شاهد ، هو نص ابى مخنف نفسه .

وبعد هذا لايبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوى التذكير بان سنة ٦٠ هـ ، هى السنة التى توفى فيها معاوية باجماع مؤرخى ترجمته فى

كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك . وهذا القول يشمل كذلك عبارة : (وكان يزيد غائبا) التى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية . وتبين لنا أن هناك اجماعا على أن يزيدا كان غائبا عن دمشق عند وفاة أبيه . وهذا هو نفسه ما عاد أبو مخنف فأشار اليه فى موضوع آخر من روايته للأحداث التاريخية ، حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير(٨٧) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورا عابرا وهى التى ذكـــر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فاوصى اليهما . وذلك بالطبع لانه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شىء والشىء الآخر اننا انتهينا بالادلة والشواهد التاريخية الى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة، بخلاف ماجاء فى نص أبى مخنف من أن معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . واذا استقام هذا فلننتقل الى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين ـ الضحاك ومسلم ـ بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فانهم أصلك ، فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

ان هذه الفقرة ـ وما تبعها من فقرات تؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية !! . انه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف ان الحجاز مركز ثقل سياسى لا يستهان به البتة ، بوصـــفه موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة وعش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم الذين ينظر اليهم أهل الأمصار الاسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام . ثم أن معاوية يعرف ويدرك انه ما وصل الى ما وصل اليه من السلطان والنفوذ الا بعراقته الحجازية ، فهو القرشى المكى العبدمنافى ، أى انه فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة أن يدل معاوية ابنه يزيد على هذه البدهية(٨٨ـ٩١) .

ودليل آخر أنه عندما عزم على الاعلان عن بيعته لابنـــه يزيد ، حرص أن يستمزج راى اهل الحجاز ، وهم هنا ـ أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، اذ انه بعث الى عامله مروان بن الحكم بذلك، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة.ولما تبين

له أن ثمة ممانعة ، حرص على المجيء بنفسه الى المدينة ، وهذا ماحدث فعلا سنة ٥٦ هـ عندما جاء معتمرا ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلا (٩٢) .

اما الفقرة الرابعة ، فيقول فيها معاوية : ... وانظر أهل العراق ، فان سالوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة الف سيف .

رؤية او فلسفة من فلسفات التـاريخ السياسـية عميقة : أن تدع العاصفة تمر ، او كما عـبر عنها معاوية نفسـه : طاطىء لها تمر فتجاوزك (٩٣) . أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسايرة الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقـد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، أليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية (٩٤) ؟ أوليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد علمت بم غلب معاوية الناس ؟ كان اذا طاروا وقع واذا وقعوا طار (٩٥) .

فمعاوية هنا يريد من ابنه ان يسمح للعاصفة ان تمر مادام هنـاك داعيا لها . وملاحظة معاوية هذه لم تأت من فراغ ، فمعاوية الخبـير باحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرا الأحداث بعين يقظة مفتوحة (٩٦ ـ ١٠٠) .

هذه هى النصيحة التى أراد معاوية أن يوجهها لابنه ولولى عهده يزيد . أراد منه أن يكون سياسيا ماهرا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال ان يعزل عن اهل العراق كل يوم عاملا ـ وذلك بعيد ـ فليفعل مادام الزمام بيديه . ثم تعال فانظر هـذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : .. فان عزل عامل احب الى من ان تشهر عليك مائة الف سيف . حكمة بالغة . أن تعزل عاملا هو بلاشك امر قد يوجد حالة من الاستقواء عند اهل ذلك القطر . فاربما رأوا فيه دليل ضعف النظام واربما استمرؤا ذلك ، ولكن لأن الهدف اكبر والمضمن اعمق فلا ضير ان يلبى الحاكم الدعوة بعزل عامل (١٠١) أو عاملين او ثلاثة ، بل حتى

كل يوم - وهو بعيد ،وانما هو للمبالغة والتهويل ، اذا استدعى الأمر ذلك لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترتفع سيوف وتعلو رماح . فالعزل قضية فردية ، اما الشغب ، واما الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من فعل ذلك تهدئة الأحوال وسدا للذرائع .

وأخيرا يبدو أن عبارة : ... (مائة الف) هذه ، التى حملت صيغة مبالغة . يبدو انها كانت شائعة آنذاك فى الشارع العام .. نطالع سيرة الأحنف بن قيس التميمى ، وقد اشتهر بالحلم هو الآخر ، فنجد فى وصفه انه اذا غضب غضب له مائة الف لا يسالونه فيم غضب . ولعل المفارقة هنا أن قائل هذه العبارة هو معاوية بن ابى سفيان ، وقد قالها لخاصته من كبار رجال الدولة لما سالوه عن هذا الرجل الذى يواجهه مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية الا أن يدع العاصفة تمر(١٠٢) ، اوليس هو الذى يقول : انى لا أحول بين الناس والسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١٠٣) .

ويقودنا تحليل الى الفقرة الخامسة ، التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : (... وانظار أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شىء من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم أن اقاموا بغير بلادهم اخذوا بغير أخلاقهم) . هنا رؤية سياسية ثانية يهديها الأب الى ابنه . على اننا قبل أن نتطرق اليهما ، نود الوقوف عند المعنى اللغوى لكلمتى : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفياء الرجل يكشف لهم أسراره(١٠٤) اما العيبة : فهى من الرجل موضع سره ، يقال فلان عيبة فلان : موضع سره(١٠٥) . اذن فالأب يطلب من ابنه أن يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم اثبتوا له طاعة عمياء ، وانقيادا تاما . ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم عاملا على بعض الشام ، حتى غدا خليفة ، امضى معهم نحوا من اربعين سنة القوا اليه بعصا الطاعة وخبرهم وخبر نفسياتهم وعرف مدى اخلاصهم له ولأسرته(١٠٦) . من هذا يؤكد على ابنه أن يجعل أهل الشام محل سره واهتمامه وأن يثق فى وقوفهم الى جانبه متى واجهه موقف ما . وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجههم الى خصومه ، ثم عليه أن يعيدهم

شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندرى هل هناك حالات فردية أو جماعية دلت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخى حدث فيه هذا الذى يخوف معاوية ابنه منه . ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه الى هذا .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نقف وقفة عند أبى مخنف لنتساءل : لم اهمل أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ؟ اهى رغبته فى بث صورة منفرة لمعاوية تهيج النفوس ضده فعمد الى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ولذا اغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج الى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتزيد والتنقيص هناك ؟ لاندرى ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - أى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ربما التدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الاشياء ، وذللت لك الأعداء، واخضعت لك اعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

ومع اننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شىء كبير من الصحة ، الا أن اعتراضنا على اهمال ذلك النص واثبات هذه الأسطر وحدها.وننهى الحديث عن هذه الفقرة بالتذكير بان هذه الأسطر السالفة هى التى خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما المحنا الى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة،وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد اللهبن عمر ، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة ان هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلا ، فلقد سبق لنا القول بان هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات . لكن مالم نذكره آنذاك هو ان الفقرات الأربع هذه ، وان

تشابهت فى النصين الا أن التشابه ليس متطابقا فيها جميعا ، اذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فانه فيما يتصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافا بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف.فأبو مخنف يقول : .. وانى لاأتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين ابن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . ففى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : انى لست أخاف من قريش الا ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الاشارة بالقول الى أنه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الاشارة الى أنهم أربعة نفر . وقد أكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا أربعة كما زعم أبو مخنف .

ثم نتابع المسيرة نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد ،بعد ان ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم :(..فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك) . فى البدء لابد من الاشارة الى أن ثمة اختلافا يسيرا كذلك بين نص عوانة هذا ونص أبى مخنف . فأبو خنف يقول : (... فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، واذا لم يبق غيره بايعك) .

واذا تركنا هذا الاختلاف اليسير فلنمض فى تحليل فقرة عوانة : المعروف فعلا أن عبد الله بن عمر والحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر قد امتنعا عن البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية. ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبى بكر قبل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد ،فانه مازال يستشعر الخطر على ابنه من مواقف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنه يطمئن ابنه يزيد من ابن عمر الصحابى ابن الصحابى ، وهو الرجل الذى وقذه الدين ،أى غلبه.وهذا هوالمعنى اللغوى لعبارة وقذه(١٠٧) الدين ، فلقد انصرف ابن عمر رضى الله عنهما الى الدين والعبادة بكليته ، وكثيرة هى المواقف التى وضح فيها زهده رضى الله عنه فى المناصب والسلطان(١٠٨) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال ، أدرك أن ابن عمر الذى غلبه الدين والعبادة لن يكون

له خطر على يزيد ، وربما يريد الأب من ابنه أن يحرص على عـــدم استعداء هذا الرجل كبير الشان عند المسلمين(١٠٩) ٠

وننتقل بعد هذا الى الفقرة الثامنة من نص عوانة التى يقول فيها: (واما الحسين بن على فانه رجل خفيف ، فارجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه ، وان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ ولا اظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فانى لو انى صاحبه عفوت عنه) ٠

لابد لنا من التذكير بأنه مع تشـــابه هـــذه الفقرة مع الفقـرة المماثلة من نص أبى مخنف الا أن ثمة اختلافا كذلك بينهما ، ففقرة أبى مخنف تقول : (٠٠ اما الحسين بن على فان اهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه) ٠ يلاحظ هنا أنه مع التطابق فى ذكر حدس معاوية من تأثير اهل العراق فى الحســين فى موضوع الخـــروج ، فان هذا الحدس جاء فى صدر فقرة أبى مخنف ، فى حين جاء عند عوانة فى آخر الفقرة٠ هذا شيء،والشيءالآخر هوأن هناك تطابقا فيموضوعالرحم والحق العظيم الحسين ، وكذلك موضوع الصفح ٠ وتبقى بعد ذلك الاشارة الى الزيادة فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين (فانه رجل خفيف وأرجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه وخـــذل أخاه) ، ثم زيادة جملتين وهما : ٠٠٠(وقرابة من محمد ﷺ)،وكذلك (فانى لو انى صاحبه عفوت عنه)٠هذا من ناحية الشكل ، فاذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، وما من شك ان الحسين رضى الله عنه لم يكن راضيا عن بيعة يزيد يبدو ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد الله بن عمر وعبد اللـه بن الزبير وعبد الرحمـــن بن أبى بكر من هـــذا الموضـــوع وجاهروا به معاوية(١١٠) ٠

ومعاوية هنا يمضى فيبين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيدا وخرج عليه٠ومع توقعه من أن شيئا من ذلك قد يحدث الا انه يطمئن ابنه أن اهل العراق سوف لن يمضوا طويلا فى تاييدهم الحسين٠ ولقد ساق اليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد

الحسين ، والحسن بن على أخـاه ، وكلاهما يوضح مواقف أهـل العراق منهما(١١) . فمعاوية هنا يطمئن ابنه بانه حتى لو حـدث شيء من ذلك فلايجزع . لكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، ثم يشدد عليه بان يصفح لانه لو حدث هذا فى أيامه هو ، فانه سـيبادر الى الصفح رعاية لحق الحسين ورحمه .

ونختم بالقول أن هذا ليس بمستغرب من معاوية ،فالرجل يعرف من هو الحسين بن على . ثم انه يرى ـ وهو السياسى المحنك ـ أن الحكمة كل الحكمة والحنكة كل الحنكة تكمن فى تجاوز الأمر . وياليت يزيد فعل هذا فى تلك الأحداث المعروفة المعلومة .

ونخلص الى الفقرة التاسعة والأخيرة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... واما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فاذا شخص لك فالبد له الا أن يلتمس منك صلحا فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت) .

قبل أن نمضى فى تحليل الفقرة لابد اقتضاء لما سرنا عليه ـ من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف .. ففقـرة أبى مخنف تقول فى موضوع عبد الله بن الزبير : (.. واما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) . نلاحظ هنا فرقا واضحا من حيث الشكل ومن حيث المضمون . واذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضمونا فى النقد فان مما لافائدة منه أن نبحث عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح . على كل حال فلندع هذا ولنمض فى تحليل فقرة عوانة : فى البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب . أما الخب فى اللغة فهو : خب خبا : خدع وغش ، فهو خب(١١٢) . واما الضب فان من معانيه : الحقـد والغيظ الكامن فى الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع(١١٣). واذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب الى التحليل ، لقلنا أنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهـذا الوصف(١١٤) ، وكأنه كان يتحسس أن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود

من يزيد ، لذا طلب منه انه اذا شخص اليه ، أى خرج عليه كما يفهم من معنى الكلمة اللغوى(١١٥) فاليلبد له أى : فاليلصق به الصاقا شديدا ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لبد(١١٦) .

ان معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيرا واضحا،فيدعوه الى عدم التهاون فى الأمر،اللهم الا أن يجنح الى الصلح . فان فعل فليقبل منه ذلك وكانه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه عبارة : واحقن دماء قومك ما استطعت . نعم هذا هو معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة الى الاغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى يريد من ابنه أن يعيه ويحتذيه مذكرا إياه بضرورة الحرص على الدماء من ان تسفك بكل ما أوتى من سـعة صدر ورحابة فؤاد . وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبـة .

★ ★ ★

وبعد،فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد.وقد أخضعناها الدراسة النقدية والتحليلية ، ولعل القارىء يلحظ أننا سرنا بحذر شديد - وهذا ما نحسبه ان شاء الله - فى كل ما يتعلق بآراء الصحابة(١١٧).

الهـــوامش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا ـ جمع وصية ـ محورا أو غرضا مهما من فنون الأدب • وحسب القارىء أن يلقى نظرة فاحصة على المؤلفات التى عالجت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكانا رفيعا فى تلك المؤلفات وهى ـ أى الوصـــايا ـ بشـــتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور ، أو اللـــون الأدبى • ولعل تعريفها الاصطلاحى الأدبى يوحى بذلك ، فهى : قول يراد به الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وتكون لقوم معينين فى زمن معين كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو المـــوت •

أنظر ابن منظور (ت٧١١هـ) : لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، د١٩٥٥م ، ١٥ مجلدا ، المجلد ١٥ ، ص ٣٩٤ •

(٢) يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد للفهارس ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص ١٦ ـ ١٧ ، ١٣٥ يقول : والسنة أن يقال لمعاوية رضى الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة •

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، أنظر مثلا : رفيق العظـــم : كتاب أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (سيرة الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، مجلدان، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص ١٣٥ •

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت فى ص : ٢٨ •

(٥) ليس ذلك باطلاق ـ كما لاخفاء ـ فقد يحدث بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث فى الاسلام حدث يوجب خلعه أو عزله •

عن الخلافة وشروطها المعتبرة ، والصفات المعتبرة واجبة التوفر فى الخليفة ، أنظر الماوردى (ت ٤٥٠هـ) : الاحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمـــد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، ص : ٦ ـ ٨ ، ١٧ ، ٢١ ،

(٦) يكفى أن نقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبى وباحث محدث هو : محمـــد منير الغضبان الذى كتب كتابا بعنوان : معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ، سعى فيه الى أن يسير على منهج المحدثين فى نقد الرواية سندا ومتنا •

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، ج٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط •

(٨) ابن كثير : نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ . حيث التاكيد على انه تولى الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص : ٢١ حيث الاشارة الى أن توليه الخلافة سنة ٤١هـ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الاشارة الى وفاته سنة ٦٠هـ ٠

(١٠) لا تنفرد الوصية السياسية بهذه الخصيصة ، بل تشترك معها الوصية الشرعية فى ذلك ٠ ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة اكثر فاكثر عند الموت ٠ وهناك نصوص قرآنية ونبوية مليئة بهذا الندب الشرعى ٠

عن الوصية الشرعية ومشروعيتها وحكمتها وشروطها ، أنظر سيد سابق : فقه السنة ، المجلد الثالث ، ص : ٤١٤ ـ ٤٢٢

(١١) توفى المنصور سنة ١٥٨هـ ، وهى السنة التى كان قد حج فيها ، وقد استودع ابنه محمدا وصيته قبيل مغادرته العراق الى مكة ٠

عن هذه الوصية وظروف توجيهها ، أنظر الطبرى (ت : ٣١٠) : تاريخ الامم والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، منشورات دار التراث العربى ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص : ١٠٢ ـ ١٠٤ ٠

(١٢) عن هذه الوصية التى وجهها المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك ، أنظر ابن بسام الشنتريني (ت : ٥٤٢هـ) : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » تحقيق احسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الأول، ص ٧٦ ـ ٧٨ ٠

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى ٠ قال البخارى : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى له ولاية بعض المدن بالاضافة الشرطة ، قتل فى موقعة مرج راهط التى حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار مروان بن الحكم ٠

راجع ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩ ، كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها ؛

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المرى (وعند ابن كثير : المزنى) أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك فى عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل فى معركة صفين ، عهد اليه يزيد بقيادة الجيش الأموى الذى وجهه لأهل المدينة الذين خرجوا عليه ٠

انظر الزركلى : الاعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م ، ٨ مجلدات ، المجلد السابع ، ص : ٢٢٢ ·

(١٥)انظر نص الوصية عند الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ، حيث الاشارة الصريحة الى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته لابنه يزيد . الذى كان غائبا عن دمشق وقتها ·

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، عالم لغوى محدث فوق كونه مؤرخا · له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبـــار ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القران ، وكتاب مختلف الحديث · ولقد ساور الشك مجموعة من القدامى والمؤرخين المحدثين : عربا وأجانب فى نسبة كتاب الامامة والسياسة اليه نظرا لأنه لا يعقل أن يكتب هذا العالم المدافع عن السنة كتابا فيه تهجم وقدح فى الصحابة رضى الله عنهم ، علاوة على وجود أخطاء تاريخية بينة فيه ، وانتهوا الى أن الكتاب مدحول عليه ·

أنظر تفاصيل هذا الموضوع عند : عبد الحميد سندى الجندى : ابن قتيبة - العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى التاليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب (رقم ٢٢) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ - ١٧٣ · وهذا الكتاب فى الأصل رسالته الدكتوراه · ثم انظـــر كذلك : عبد اللـــه عبد الرحيم عسيلان : كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ · وانظر بعناية كذلك ص : ٢١ وما بعدها حيث الاشارة الى قرائن تفيد بأن المؤلف لهذا الكتاب ربما يكون رجـــلا اندلســـيا أو مغربيا ·

(١٧) نستدرك هذا فنقول : نعم وجدت عند أبى حنيفة الدينورى ، صاحب الأخبار الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ الا أنه أوردها - أعنى الوصية - متداخلة فى نصيها ، أى نص أبى مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع اسقاط السند ·

أنظر الدينورى (ت ٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى - الادارة العامة للثقافة القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ ·

(١٨) انظر شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون - دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣م جزءان ، الجزء الاول ، ص ٧٤ وما بعدها حيث الاشارة الى بدء التدوين

التاريخي ، ثم ص : ٢٠٢ وما بعدها حيث الاشارة الى الطبرى الذى عده المؤلف قمة من قمم التاريخ الحقيقى •

(١٩) يورد الذهبى فى سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه ، نصا من ٢ أسطر ، عن وصية أخرى لمعاوية تختلف اختلافا كبيرا عن الوصية التى نعنيها بنصيها معا ، وذلك نقلا عن الواقدى • ولكن هذه الوصية لم يشر اليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها الدراسة النقدية والتحليلية التى أشار اليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بينا فى المتن • أخيرا يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية ، ص : ١٦٠ نصا يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى • وهذا خلاف المشهور •

(٢٠) الواقع اننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة ، وهى القضية التى أفرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الاسلامى ، كما اننا لسنا معنيين بمناقشة الاقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى الله عنه ، والموقف منه • والوقوف على هـذه الاقوال يكفى أن نحيل القارىء الى كتاب : تحـذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو افادة الأخيار ببراءة الأبرار لمحمد العربى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية ببيروت ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ ـ ٢٠٠ •

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ •

(٢٢) نفسه ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ •

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الأدب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) •

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص : ١٧١ •

(٢٥) رفيق العظم : أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة ، ج١ ، ص : ٨٢٥ ج٤ ، ص : ٤٧٩ •

(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص ٦٧ •

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ •

ـ (٢٨) عن الوضع والوضاعين ، وعن هذه المنهجية العلمية الاصيلة التى أهداها المسلمون الى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وما اقتضاه ذلك من نشأة علمى : مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلا :

مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، منشورات المكتب الاسلامى ، بيروت ـ دمشق • ط٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ص : ٧٥ ـ ١٣٢ ـ صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم

الملايين ، بيروت ، ط١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٣ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٦٩م ، ص ، ٢٠٨ ـ ٢١٩ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٤ ·

(٢٩) الدعوة الى اعادة صياغة التاريخ الاسلامى وفق قواعد المحدثين ـ ما أمكن ذلك ـ انطلقت من فترة ليست طويلة من اناس عديدين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالمية اسلامية ·

(٣٠) ساق ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبة لأبى مخنف ، اكتفينا منها فقط بما تم ايراده فى المتن ·

(٣١) هذا الباحث هو : يحيى بن ابراهيم بن على اليحيى الذى أعد رسالته للماجستير بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى ـ عصر الخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ·

(٣٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج٧ · بتحقيق على أبى زيد ، ص : ٣٠١ ·

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ·

(٣٤) ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) : تقريب التهذيب. تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سنة الطبع ، الجزء الأول ، ص ٥٢٤ ·

(٣٥) ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، الهند ـ ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص : ١٨٢ ·

(٣٦) ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) : الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ ·

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه

(٣٨) حققه على محمد البجاوى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م فى ٤ أجزاء ، والعبارة المشار اليها فى المتن وردت فى الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ ·

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ ـ ٣٠٢ بتحقيق على أبى زيد ·

(٤٠) البابة : الوجه ، وقد علق محقق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبى زيد فى الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبى هذا أن أبا مخنف

مسار الثلاثة الذين ذكرهم فى ترجمته لأبى مخنف فى الضعف والمنزلة • وقد عاد المحقق فى تحقيق معنى البابة اللغوى لابن السكيت فى كتابه : اصلاح المنطق •

(٤١) سيف بن عمر الضبى الاسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى ، مصنف الفتوح والردة (أى أخبار الردة) وغير ذلك •

للمزيد من الترجمة له واقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، أنظر الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ، ص : ٢٥٥ •

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمدانى ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، اخبارى صدوق كما قال الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه •

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١ هـ ، جزءان وبهامشه المسمى بيان موافقة صريح المعقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية • والنص المنقول فى المتن ورد فى الجزء الاول ص : ١٣ •

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص : ١٧ وما بعدها •

(٤٥) اسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ • توفى سنة ٢٠٦هـ ، كما يقول الذهبى فى ميزان الاعتدال ، ج١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة ـ الى حد ما ـ حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذبوه ، وكذلك ضعيف•••الخ

(٤٦) منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء ، الجزء الرابع ص : ٣٨٦ •

(٤٧) ص ١٣٤ •

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٩ •

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ •

(٥٠) حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسـيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية • بيروت ، دون سنة الطبع ـ ٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص : ١٧٦ •

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ •

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ •

(٥٣) الجزء الرابع ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ·

(٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ ـ ١٠٣ ·

(٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ ·

(٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، ج١ ، ص : ٣ ـ ٧ حيث الاشارة الى منهجه ·

(٥٧) ص ٨٨ ، ·

(٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ ·

(٥٩) راجع الحاشية ، ص ٤٩ ·

(٦٠) المصدر السابق ، ص : ١٣٤ ·

(٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ ·

(٦٢) عن الاخباريين وميولهم والتدوين التاريخى وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية ، راجع احمد امين : ضحى الاسلام ، منشورات دار الكتاب العــربى ، بيروت ، ط ١٠ ، دون سنة الطبع ، ٣ اجزاء ، ج٢ ص : ٢٣٨ـ٢٤٢ · شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٢،٣،٤،٥ ولا سيما الفصــل الخامس ، ص : ١٦٩ ـ ٢٠٠ ·

(٦٣) المرجع السابق ، والجزء اعلاه ، ص : ١٨٠ ·

(٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الامويين وقبيلة كلب اليمنية منذ ان بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموى المؤسس معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من ميسون بنت بحدل الكلبية وهى أم ابنه يزيد ، وتكرست هذه العلاقة اكثر عندما وقفت اليمنية مع الأمويين فى معركة مرج راهط سنة ٦٥هـ ضد أنصار عبد الله بن الزبير القيسية ، وتتابعت مظاهر هذا الموقف المؤيد وبالتالى الاستفادة منه طوال العهد الأموى ، ولم تتغير مواقف الخلفاء الأمويين من اليمنية الا فى عهود بعض الخلفاء المتأخرين الذين ناصبوهم العداء وتحيزوا للقيسية ضد خصومهم · ومن المعروف أن العصبية القبلية تعد أحد أسباب سقوط الدولة الأموية ·

للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلا ، محمد الطيب النجار : الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ،ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص : ١٣٨ ـ ١٥٠ ، يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص : ١٨٤ ـ ١٩٢ ·

(٦٥) اى أنصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، الذين روجوا لدعوته ، ثم ايدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسى او بالتأييد المعنوى عن طريق كتابة الروايات عن احقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيب النجار : المرجع السابق أعــلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر ــ الدار المصرية التأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الاشارة الى التيار المؤيد لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه من الأدباء وغيرهم ٠

(٦٦) حوارين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحوارين: حصن من ناحية حمص ٠

ياقوت الحموى/معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣١٥ ــ ٣١٦ ٠ ويبدو أن حوارين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القرية من نواحى حلب البعيدة عن دمشق كثيرا ٠ وهى التى مات بها يزيد ٠

(٦٧) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج٣ ، ص : ١٦١ ــ ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيــد على أن يزيدا كان خارج دمشــق فى حوارين ، عاد فذكر الامر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد بن معاوية ٠ وقد أكد على ذلك أيضا ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العــربى بيروت ط٢ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح ، ثم أكد ابن كثير كذلك عليه ــ حسبما أكدنا فى المتن ــ فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص : ١٤٣ ، وقال هو رأى الجمهور ٠

(٦٨) انظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبــة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ ــ ٤٦٩ ٠

ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ ــ ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة الطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص :٣٩٤٠

(٦٩) نفسه ، ص : ١١٥ ٠

(٧٠) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩ ٠

(٧١) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثاني ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ مع الحواشي ، ابن حجر : الاصابة ، القسم الرابع ، ص : ٢٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ ٠

(٧٢) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ ـ ٤٧٣ ٠

(٧٣) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٢٢٨ ٠

(٧٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ ـ ٨٠ ٠ وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن اعطاء البيعة ليزيد في حياة أبيه معاوية خمسة ، هم اولئك الذين ذكرناهم في المتن ، اضافة الى عبد الله بن عباس ٠ وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة ٠

(٧٥) انظر ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، اشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار احياء التراث العربي ، المكتبة العلمية ، طهران، دون سنة الطبع،جزءان ، الجزء الأول ، ص ١٠٧٠

(٧٦) أنظر النويري : نهاية الأرب ، ج٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الاشارة الى عادات وصفات الأســود ٠

(٧٧) ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، ج١ ، ص : ٣٨٤ ٠

(٧٨) أنظر النويري : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الاشارة الى صفات الثعالب ٠

(٧٩) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ ٠

(٨٠) حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة الكندي ، يعرف بحجر بن الأدبر ، وحجر الخير ، اختلف في صحبته ، والأشهر أنه صحابي ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبي طالب ، قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣هـ ، بأمر من معاوية ٠ ابن حجر ، نفسه ٠ القسم الثاني ، ص : ١٦٨ ٠

(٨١) مقتل حجر رضي الله عنه بأمر معاوية رضي الله عنه من القضايا التي يحسن بنا أن نمسك عنها ٠ ولقد لامت السيدة عائشة رضي الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضح لها أنه رأى في ذلك اصلاحا للأمة ٠ أنظر ابن كثير : نفسه ، ص :٥٥٠

(٨٢) راجع خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق . ط ٢ ، ١٣٩٧هـ/ ص : ٢١٥ وما بعدها واسنادها صحيح ٠

(٨٣) أنظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ ٠

(٨٤) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ ٠

(٨٥) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضـــل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وعن الموقف الذى يجب أن نقفه مما شجر بينهم من خلاف ، كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطىء متأول ، وقد ألفت فى ذلك بعض الكتب ٠

للوقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى ، ج١ ، ص : ٣٦ ـ ٤٣ ، ١٧٨ ـ ٢١٨ ، ج٢ ، ص : ٢٦ ـ ٢٨، ٥٦ ـ ٨٧ ، حيث فيه جمع اقوال علماء السلف فى ذلك ٠ وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الاسلامى ص : ١٨٩ ـ ٢٦٩ ٠

(٨٦) ابن العربى (ت : ٥٤٣هـ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرج أحاديث وعلق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حققه وكتب حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث استلت هذه العبارة من تعليقه ـ أى محب الدين الخطيب ٠

(٨٧) نفسه ص : ١٤٣ ٠

(٨٨) من اشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لابنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ ٠

(٨٩) أنظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠ وقد الف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد ابراهيم الشريف مؤلفا بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين ٠

(٩٠) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

(٩١) كان ذلك فى سنة ٤٤هـ على الارجح ٠ راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(٩٢) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢١٣ ـ ٢١٥ ٠

(٩٣) أنظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ ٠

(٩٤) قال معاوية : ٠٠ لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها ٠

راجع اليعقوبى ، (ت : ٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٨ ٠

(٩٥) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص : ١٥٤ ٠

(٩٦) انظر امثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيد فى توضيح أسباب ذلك لدى

محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، ج١ ، ص : ٢٠٤ ـ ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

(٩٧) أنظر محمد العربى التبانى : نفس المرجع السابق ، ج٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع فى هذا الجانب الذى عاد فيه الى عدد كبير من المصادر والمراجع ذات الصلة ٠

(٩٨) أنظر الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه، ص : ١٢٩ ٠

(٩٩) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٣٥ ـ ١٣٧ ٠

(١٠٠) أنظر أمثلة هذا عند الذهبى : نفسه ، ج٣ ص : ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ابن كثير نفسه ص : ١٢٦ ، ١٣٥ ـ١٣٧ ٠

(١٠١) انظر الذهبى ، نفسه ، ج٤ ، ص : ٩٥ حيث الاشارة الى عزل معاوية عامله على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلب من أهل العراق ثم اعادته بعد ذلك ٠

(١٠٢) انظر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ، ج٢ ، ص : ٥٠٠ ٠

(١٠٣) ابن كثير : نفسه ص : ١٢٩ ٠

(١٠٤) ابراهيم مصطفى وآخرون ، ج١ ، ص : ٦١ ٠

(١٠٥) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ، ص : ٦٤٥ ٠

(١٠٦) أنظر الذهبى : نفسه ، ج٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٣٣ ـ ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه ، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠ وانظر فى هذا الصدد يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ص : ١٥٦ ـ ١٦٢ حيث تحليل سياسى واسع لواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية ٠

(١٠٧) انظر ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ص : ١٦٠١ ٠

(١٠٨) نحيل القارىء الى ترجمة ابن عمر لدى الذهبى : نفسه ، ج٣ ، ص: ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ٠

(١٠٩) يقول الذهبى : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلا عن الامام مالك بن أنس ان عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما ظل اماما للناس يفتيهم مدة ستين سنة ٠

(١١٠) أنظر قبل ، ص : ٢٢ ـ ٢٤ مع الحواشى ٠

(١١١) الحقيقة أن الموقف الذى ذكره معاوية رضى الله عنه عن خذلان أهل

العراق الحسن بن على رضى الله عنهما انما هو حقيقة فعلا ، وقد ذكرها المؤرخون .
ومعاوية يقصد هذا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له فى الجيش الذى جيشه
القاء معاوية بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ، ولقد ذهب معسكره كذلك ، وهى الحادثة
التى أصابت الحسن رضى الله عنه بالمرارة من أهل العراق .

أنظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ ـ ١٥ ، ١٧ .

لكن الواقع أن الموقف الأول الذى عبر عنه معاوية رضى الله عنه بالقول ان أهل
العراق قتلوا عليا بن أبى طالب ، يحتاج الى توقف . فالمعلوم أن عليا رضى الله عنه
قتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم فى على ومعاوية رضى الله عنهما
معا سيئا .

(١١٢) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج١ ص : ٢١٢ .

(١١٣) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج١ ، ص : ٥٢٤ ـ ٥٢٥ .

(١١٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ .

(١١٥) ابراهيم مصطفى : نفسه ، ج١ ، ص : ٤٧٨ .

(١١٦) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ، ص : ٨١٨ .

(١١٧) راجع محمد بن صامل السلمى : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ ـ ٢٣٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصـــادر :

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمـد ابراهيم البنا ومحمد احمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ - الكامل فى التاريخ ، على بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الـكتاب العـــربى ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) :

٣ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احســـان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)

٤ - الرد على البكرى ،، منشـــورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ .

٥ - منهاج السنة ، منشـورات المطبعة الـكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزءان وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) :

٦ - كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

٧ - الأصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط اعلامه ، ووضع

فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطابع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ٨ أقسام ٠

٨ - تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة الطبع ، جزءان ٠

٩ - لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات، بيروت ، ط٢ ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء ٠

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

١٠ - وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ٠

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) :

١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧م ٠

أبو داود السجستانى (ت٢٧٥هـ) :

١٢ - سنن أبى داود ، راجعه على عدة نسخ وضبط أحاديثه وعلق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، منشورات دار احياء السنة النبوية ، القاهرة ، دون سنة الطبع ، ٤ أجزاء ٠

الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :

١٣ - الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، الادارة العامة للثقافة، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ٠

الذهبى (ت ٧٤٨هـ) :

١٤ - سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ٢٥ جزءا ٠

١٥ ـ العبر فى أخبار من غبر . حققه وضبطه على مخطوطتين
ابو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار
الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨ذ/١٤٠٩هـ ،
٤ مجلدات .

١٦ ـ ميزان الاعتدال ، حققه على محمد البجاوى ، نشرته دار المعرفة،
بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ، ٤ أجزاء .
الطبرى (ت ٣١٠هـ) :

١٧ ـ تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،
منشورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء.

ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

١٨ ـ الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى،
بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) :

١٩ ـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح
حقى ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٤
مجلدات ، ٨ أجزاء .

ابن عدوى (ت ٣٦٥ هـ) :

٢٠ ـ الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر الطباعة والنشر
والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .

ابن العربى (ت ٥٤٣هـ) :

٢١ ـ العواصم من القواصم ، خرج احاديثه وعلق عليه محمد مهدى
الاستانبولى ، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب ،
منشورات مكتبة السنة ، القاهرة ، ط٥ ، ١٤٠٨هـ .

ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) :

٢٢ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر الطباعة
والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) :

٢٣ - البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد الفهارس .

الماوردى (ت ٤٥٠هـ) :

٢٤ - الأحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

ابن منظور (ت ٧١١هـ) :

٢٥ - لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدا .

ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) .

٢٦ - الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

النويرى (ت ٧٢٣هـ)

٢٧ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة التاليف والترجمة والطباعة والنشر ، سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءا .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) :

٢٨ - معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا .

٢٩ - معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) :

٣٠ - تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت ، دون سنة الطبع ، مجلدان .

ثانيا : المراجـــع :

ابراهيم مصطفى واحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد على النجار :

١ - المعجم الوسيط ، منشورات دار احياء التراث العـربى ، مجمع اللغة العربية ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون ســـنة للطبع ، جزءان .

أحمـــد أمين :

٢ - ضحى الاسلام : منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط ١٠ ، دون سنة الطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العـربى ، بيروت ط ١٠ ، ١٩٦٩م .

احمد حســن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، ط ٢٥ .

اكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين فى نقـــد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لاحياء التراث الاســـلامى بالجامعـــة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

رفيق العظم :

٦ - اشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (ســـيرة الخلفـــاء الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى، ط٦ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلى :

٧ - الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنســـاء من العـــرب

والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت
ط٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات .

سـيد سابق :
٨ ـ فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطبـاعة والنشر والتوزيع ،
بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م ٣ مجلدات .

شاكر مصطفى :
٩ ـ التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة
رجاله فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣،
١٩٨٣ ، جزءآن

صبحى الصالح :
١٠ ـ علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين بيروت،
ط ١٥ ، ١٩٨٤م .

عبد الله عبد الرحيم عسيلان :
١١ ـ كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات
مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ .

عبد الحميد سندى الجندى :
١٢ ـ ابن قتيبة العالم الناقد الاديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد
القومى التاليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام
العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣ م .

عبد الوهاب النجار :
١٣ ـ الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت
١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .

على حسنى الخربوطلى :
١٤ ـ عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتاليـف

والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م ٠

محمد الزحيلي :

١٥ ـ الامام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقدم الفقهاء والمحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقم (٣٣) ، ط ١ ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م ٠

محمد بن صامل العلياني السلمى :

١٦ ـ منهج كتابة التاريخ الاسلامى ،منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ٠

محمد الطيب النجار :

١٧ ـ الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٣ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ٠

محمد العربى التبانى :

١٨ ـ تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى او افادة الأخيار ببراءة الأبرار ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ٠ جزآن ٠

محمد منير الغضبان :

١٩ ـ معاوية بن أبى سفيان : صحابى كبير وملك مجاهد ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١) ، ط ١ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م٠

مصطفى السباعى :

٢٠ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، منشورات المكتب الاسلامى ، بيروت ، دمشق ، ط ١٥ ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م ٠

يحيى بن ابراهيم بن على اليحيى :

٢١ ـ مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى ـ عصر الخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الرياض ، ط ١٠ ، ١٤١٠ هـ ٠

يوسف العش :

٢٢ ـ الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ط٢ ، ١٩٨٥ ٠

★ ★ ★

أضواء على العلاقات بين الامارة الصفارية
والدولة العباســية
فى القرن الثالث الهجرى

د٠ عبد العزيز عبد الله السالم(*)

المقـــدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العـــلاقات التى ربطت الامارة الصفارية بالدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى ٠

اما عن امارة الصفارية فقد قامت فى اقليم أو ناحية سجستان التى وصفها ياقوت بأنها « ناحية كبيرة وولاية واسعة » من نواحى المشرق جنوبى هراة « كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبدا » ٠

وكانت مقاطعة « سجستان » تعيش فى ظـــروف صـــعبة بسبب الاضطرابات السياسية والأمنية لأن بها « كثير من الخوارج ، يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه » ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين تضعف امام حركاتهم ضد السلطات المحلية ٠ وفى تلك الظروف قامت الأمارة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ/٨٦٧ ـ ٩٠٣م) على انقاض الدولة الطاهرية٠ ذلك أنه ظهرت حركة متطوعة برئاسة صـــالح بن النضر الكنانى لاعادة الاستقرار السياسى والأمنى فى سجستان فانضم يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو الى تلك الحركة وأخذ يعقوب رئاسة تلك الحركة بعد موت بن النضر الكنانى فاســـتقل بولاية سجستان وبذلك ظهـــر على مسرح الاحداث ، لا سيما بعد أن استطاع أن يغزو خراسان ٠

وكان أن أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصـــفاريون لولاية سجستان الى تدعيم مكانة الامارة الصفارية ، لأنها جاءت فى وقت كانت

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد ـ جامعة الملك عبد العزيز ٠

الخلافة العباسية تعانى من سيطرة الأتراك عليها، اضافة الى عجزها عن السيطرة على الثورات التى قام بها الخوارج فى سجستان ٠

ولم يلبث يعقوب بن الليث الصفار أن قام بمحاربة الأتراك الدرارى، وافشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم ، كما تمكن من نشر الاسلام فى تلك البقاع ، الأمر الذى جعل عددا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف ٠ اما الخلافة العباسية فلم تعترض على هذه التطورات ، بل لقد رأت فى تلك الأعمال التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار حماية للدولة العباسية٠ ذلك ان قيام ولاية أو امارة فى المشرق الاسلامى فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة العباسية شكل درعا يقى الجناح الشرقى للخلافة من خطر الأتراك الذين اشتدت هجماتهم على بلاد الاسلام ٠

والواقع ان الامارة الصفارية كانت امارة عسكرية ، اذ أن الصفاريين فرضوا انفسهم فى الحكم بقوة السلاح بل لقد انكروا عدة مرات سلطة الخليفة ٠ ولكنهم مع ذلك أحسوا بأنه من الضرورى لهم الحصول على تاييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية ٠ وقد اضطر الخليفة المعتز بالله (٢٥١ - ٢٥٥هـ) ثم المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) ثم المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) ثم المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) الى اقرارهم فى حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم ، وذلك دفعا لشرهم وحسما لمخالفتهم وحرصا على اتحاد وترابط دولة الاسلام واجتماع كلمة المسلمين ليكونوا يدا واحدة ٠

على ان علاقة الامارة الصفارية بالخلافة العباسية اتسمت بالشك وعدم الاطمئنان وانعدام ثقة كل طرف بالآخر ٠ ويبدو أن شخصية يعقوب واهدافه وخططه لم تتضح تماما للخلافة ٠ ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما ابعاده عن فارس ، وانها لا تطمئن اليه ، وانها تشك فى نواياه ، اعتبر آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وفارس مسئولين عن ذلك ، فقضى على نفوذهم فى سنة ٢٥٩هـ ٠ لكن الخلافة اذاعت بين أهالى خراسان وجرجان والرى وطبرستان أن يعقوب خارج على سلطة الخلافة،

وعندئذ قرر يعقوب تحدى الخلافة العباسية عسكريا مما أجج الصدام بين الجانبين .

على ان يعقوب لم يلبث ان اتجه الى المجتمع فى « سجستان »، فاخذ يصلح احواله حتى اشاع جوا من الاستقرار وأخذ يدعو الناس الى التمسك بالاسلام ، كما اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم الاســـلام .

ويبدو أن نشأة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض افكارهم السياسية ، ولـــكن المصـــادر التاريخية لم تبين مدى تأثر يعقوب بعقيدتهم .

والواقع ان معظم المصادر التاريخية المعاصرة التى سجلت احداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الاتراك ابرزت جانبا كبيرا من النشاط السياسى والحربى للصفاريين ، فى حين أهملت الجوانب الحضارية التى قدمتها الامارة الصفارية .

★ ★ ★

وفى دراستنا لطبيعة العلاقات بين الامارة الصـــفارية والدولة العباسية فى القرن الثالث الهجـــرى لا نستطيع أن نطلق على « الامارة الصفارية » لقب دولة مثلما ذكر بعض المؤرخين ، لأن الدولة عبارة عن مجموعة كبيرة من الناس تعيش على قطعة ثابتة من الارض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وادارة شئونها فى الداخل والخارج فى السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين(١) .

ومن هذا التعريف يبدو انه لكى توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاثة : شعب ، وأرض ، وسلطة سياسية حاكمة ، فاذا توفر لأى مجتمع هذه العناصر الثلاثة فان هذا المجتمع يكون دولة . وبعبـــارة أخرى فان الدولة عبارة عن مجموعة من الناس تعيش حياة مستقرة دائمة على ارض ذات معالم وحدود واضحة معـــلومة ، فى حين أن السلطة السياسية الحاكمة تمثل القيادة العليا المســـتقلة فى تصريفها وادارتها

وعلاقاتها . واذا لم تتوفر للمجتمع هذه العناصر فانه لا يصح فى عـرف القانون الدولى أن نطلق عليه « دولة » .

وبالنسبة للامارة الصفارية فانها لم تضم شعبا مستقرا داخل حدود ثابتة ، وانما هى جموع قلقة فى عـــالم مضطرب ، فى حين اعتمـــد الصفاريون على القوة العسكرية فى حكم ما وقع تحت أيديهم من بلدان الخلافة العباسية . وبعبارة أخرى فان الصفارين لم يحكموا أرضا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء - سجستان - وانما حـــكموا عدة اقاليم متداخلة ، حتى تقلص نفوذهم وانزوى فى جزء من سجستان .

وقد قامت الامارة الصفارية فى ولاية سجســـتان فى الوقت الذى ساءت الأوضاع الأمنية فى سامراء وبغداد بسبب الحـــــرب الأهلية بين المستعين والمعتز . ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع الامنية فى ولاية سجستان مضطربة منذ سنة ٢٤٣هـ بسبب فســـــاد الخوارج فيها . أما مقاطعة «سجستان» فكانت تابعة لال طاهر فى خراسان ، ولكن حكمهم كان مضطربا غير مستقر ، مما جعـــــل سجستان فى ذلك الدور ماوى اللصوص وقطاع الطرق(٢) وكثيرا ما انضـــم هؤلاء الى الخوارج فى ثوراتهم ضد الحكم المحلى ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف أمام نفوذ الخوارج .

على ان اهل سجستان اتصفوا بعدة صفات كشدة الشكيمة وعـــزة النفس ومواساة الضعيف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٣) . فلما راوا ان الطاهريين عاجزون عن اقرار الأمن والنظام فى ولايتهم ، قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى اقـــرار الأمن فى ولايتهم . وقد تزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى(٤) . وكان ان انضم الى حـــركة المتطـــوعة كثير من المغامرين الذين نظروا اليها على انها خير وسيلة للوصول الى مراكـــز اجتماعية وسياسية مرموقة ، فضلا عن تحقيق مكاسب مادية . ومن أبرز هؤلاء المغامرين يعقوب من الليث الصفار واخوه عمرو . وكان يعقوب يمارس احدى الصناعات المحلية فى بلدته «قرنين» احدى مدن سجستان . ويبدو أنه اشتغل بالنحاس وغيره من المعادن الصفراء ، ومن مهنته هذه اشتق

لقبه . وكان يتقاضى من عمله خمسة عشر درهما فى الشهر ، الأمر الذى جعله شارد الذهن كثير التفكير والتأمل(٥) لأن مهنته هذه كانت لايمكن ان تحقق له مركزا اجتماعيا ذا قيمـــة فى مجتمعه ، كما أنها لا تحقق طموحه وآماله العريضة . لذلك هجر مهنته(٦) وانضم هو وأخوته الى خاله كثير بن رفاق الذى تجمع حوله عدد من وجوه الخوارج ، فقاد ثورة ضد السلطة المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر ؛ ولكن هؤلاء قضوا على الثورة فى مهدها وتمكن آل الليث بزعامة أخوهم الأكبر يعقوب من الفرار الى بست احدى مدن سجستان الهامة(٧) .

وفى «بست» رأى يعقوب ان افضل وسيلة الحصول على السلاح والخيل والمال هى قطع الطرق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة اتاحت لمن يمتلك تلك الأدوات أن يكون لنفســـه مركزا اجتماعيا وسياسيا مرموقا . لذلك جمع حوله عددا من المغامرين وكون منهم عصابة لقطع الطريق ونشط هو وأصحابه فى ذلك ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان ، وفارس بسجستان ، غير مأمونة . ولما وصل اليهم خبر قـــدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها الى اصفهان ، خرج اليها يعقوب ورجاله وترصـدوا لهـــا وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح . وبهذه الطريقة حصـــل يعقوب على ما يحتاج اليه من المال والســـلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى(٨) . ولم يلبث أن رجع يعقوب وأصحابه الى سجستان ، ومعهم اعداد كثيرة من الخيل والسلاح ، فاستقبلهم صـــالح بن النضر الكنانى(٩) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن والاستقرار فى ولايتهم ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن اظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين، وبذلك استطاعت حركة المتطـــوعة بزعامة الكنانى ومســـاعدة يعقوب الصفار ان توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان . وبعد ذلك كانت الخطوة التالية وهى أن هذه الجماعة أرادت أن تتوج انتصاراتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فاعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان . ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧(١٠) .

وفى سنة ٢٤٣هـ تزعم درهم بن الحسين حـــركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بامن واستقرار سجستان . وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية ، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة . وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان اعلنت الحركة زعامتها للبلاد ، ولكن امير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى ابعاد درهم بن الحسين الى بغداد وتم ذلك حوالى سنة ٢٤٧هـ(١١) . وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، اذ أصبح قائدا عاما للحركة دون منافس . وعندما توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨هـ استطاع يعقـــوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨هـ - ٢٥٩هـ) الذى أسندت اليه ولاية خراسان. هذا فضلا عن ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والادارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣هـ ان يغزو هراة وبوشنج . وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الانبارى عامل محمد بن طاهر استطاع يعقوب ضمهما اليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فعظم أمره ، وهابه امير خراسان وغيره من الحكام(١٢) .

ولم تلبث أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار الذى رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم امارات الضعف والعجز. وكان أن أعلن نفسه حاكما عاما على ولاية سجستان دون أن يستند فى ذلك الى تقليد شرعى من الخليفة العباسى(١٣) صاحب السلطةالشرعية. وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة تمر بظروف لا تمكنها من اقرار الوضع فى سجستان ، فتركت ليعقوب مهمة اقرار الأمن والنظام فيها .

★ ★ ★

وفى الوقت الذى كانت الحكومة العباسية عاجزة عن اقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها ، والذى كانت فيه الادارة الطاهرية فى خراسان تعانى الانحـــلال والضعف ، أخـــذ الخوارج يرفعون راية الثورة والعصـــيان فى ســـجستان ، مما شـــجع رتبيل

سجستان(١٤) ، وغيره من ملوك وامراء الترك الدرارى الذين كانت تربطهم بالدول الاسلامية عقود ومعاهدات ، على أن يعلنوا خروجهم وتمردهم على السيادة العربية الاسلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج(١٥) ، بل انهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجود الاسلامى فى سجستان ، واستعادة نفوذهم عليها ... وفى تلك الظروف وفى ذلك الدور ظهرت قوة الصفاريين على المسرح فى ولاية سجستان ليفسدوا مخططات الترك مما حال دون تحقيق اطماعهم . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار ما كاد ينجح فى تهدئة الأوضاع الداخلية فى سجستان ويقضى على شوكة الخوارج فيها حتى أخذ يستعد لاعداد جيش قوى لملاقاة رتبيل سجستان وغيره من ملوك وامراء الترك الدرارى بعد ان اتضح أن خطر أولئك الترك على أمن واستقرار الولاية صار أشد واقوى من خطر الخوارج عليها . وكان أن قاد يعقوب حملة عسكرية لدفع خطر الترك على أراضى الدولة الاسلامية فى سجستان ، حتى تمكن من قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملوك الترك ، كما استطاع أن يصل الى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الاسلام فى تلك البقاع ، مما جعل عددا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسلطته(١٦) ، ويعقدون معه معاهدة سلام ، ومن هؤلاء ملك « الولتان » وملك « الرخج » وملك زابلستان ، وملك « السند ومكران »(١٧) ، كما ارسل اليه ملك الهند وفدا تفاوض مع يعقوب(١٨) على جسر بسط .

★ ★ ★

أما عن علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية فى ذلك الدور ، فقد تأثرت بعدة مؤشرات اسهمت اسهاما كبيرا فى تكييف تلك العلاقة وتوجيهها ، ومن أهمها :

١ ـ الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .
٢ ـ الاصلاح الدينى والاجتماعى .
٣ ـ الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين .
٤ ـ الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية وأثرها فى نشاط الصفاريين .

يضاف الى هذه المؤثرات عوامل أخرى مساعدة كفقدان الأمن واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق(١٩) ، وعجز الطاهريين عن اقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية، مما كان له أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى كيفت علاقة الامارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية . فعندما تتفق مصالحهما تتوافق العلاقات بينهما ،ولكن دون ان تصل الى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . وحين تتعارض مصالحهما تنفصم عرى الروابط والصلات بينهما ، وتسوء علاقة كل منهما بالآخر وتتصف بالتوتر والاضطراب .

أما بالنسبة للعامل الأول فيما يتعلق بتكييف العلاقات بين الصفاريين والخلافة العباسية فنجد أن يعقوب بن الليث أخذ يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان الى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان، لأن خطرهم على سجستان كان كبيرا (٢٠) . ولكن يعقوب قاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل الى غزنه وكابل ، ثم عاد الى سجستان وقد حمل معه بعض رؤوس الترك ، فزدات هيبته ، بعد أن غنم من بلاد الترك غنائم كثيرة (٢١) .وقد نظرت الخلافة العباسية الى هذه الأعمال بارتياح، ولذلك لم تعترض على أعماله . هذا بينما كان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين بالله ، فلما تولى المعتز بالله الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كتب الى يعقوب بولاية سجستان(٢٢) . على أن علاقة الدولة العباسية لم تتوثق تماما بيعقوب لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح للخلافة . وفى سنة ٢٥٣ هـ رأى يعقوب أن الأوضاع فى ولاية هرات واعمالها قد ساءت واضطرب الأمن فيها،فقرر ضمها اليه وقبض على عدد من الطاهريين . ولكن الخلافة العباسية تحركت عندئذ لأن يعقوب تعرض لأحد حلفائها المخلصين - محمد بن طاهر - فارسل الخليفة المعتز بالله الى يعقوب رسولا يحمل كتابا منه اليه يحذره من التعرض لعمل الطاهريين فى خراسان ويطلب منه فك أسرى الطاهريين . وفى سنة ٢٥٤هـ أرسل يعقوب الى الخليفة المعتز بالله يطلب ولاية كرمان،ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على ادارتها واستيفاء خراجها ، وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فاجابه

الى طلبه ، وقلده ولاية كرمان . وكان المعتز بالله يعلم أن يعقوب يظهر له طاعة لا حقيقة لها(٢٣) ، الا ان الظروف التى كانت تعيشها الخلافة فى العاصمة ، والظروف التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان عندئذ ، دفعت الخليفة الى تقليد يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجا عن ثقة الخليفة فى يعقوب وفى ولائه واخلاصه للخلافة ، فأراد يعقوب أن يتقرب الى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به . لذلك أخذ يدعو للخليفة العباسى عندما استولى على فارس ويتقرب منه . وحينما طلب منه على بن الحسين ابراز كتاب الخليفة اليه بولاية فارس رد عليه يعقوب قائلا : « فان البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه وفى طاعة الله وطاعته »(٢٤) ، ثم أرسل الى الخليفة المعتز بالله هدية ثمينة(٢٥) وكتب اليه يعلن طاعته . ومع كل ذلك لم يكن الخليفة مطمئنا تماما الى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر يعقوب فارس ارسل الخليفة اليها عمالا(٢٦) . وفى سنة ٢٥٧هـ استولى يعقوب على فارس مرة أخرى . وفى هذه المرة أراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة العباسى الموفق بالله اتجه نحو تسوية الموقف بين الصفاريين والخلافة ، فأسند اليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ، ليبعده عن فارس . ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما ابعاده عن فارس ، وانها لا تطمئن اليه ، واستمرت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته ، اعتقد أن السبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغداد وفارس ، فأراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة . وكان أن استولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٨هـ ، ولكن الخلافة ماكانت لتستبدل الطاهريين بالصفاريين ، فازداد شكها فى الصفاريين وأصدرت أمرها الى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبا أيا من تلك الولايات ، وانه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة .

فلما أيقن يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وأن ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكريا(٢٧) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة انعدام ثقة كل طرف فى الآخر .

وعلى الرغم من أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الامارة كان أكثر مرونة وتهاونا وتقربا الى الخلافة، الا أن الخلافة العباسية كانت تسند اليه ولاية الاعمال وترسل اليه التقاليد مداراة له ودفعا لخطره ، لا ثقة فى ولائه وطاعته لبنى العباس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، حتى اتيحت الفرصة للمعتضد بالله سنة ٢٨٧هـ فاستعان بالسامانيين فى تنفيذ سياسته .

وقد اعلن يعقوب عدم ثقته وكرهه للعباسيين حيث قال : « ان العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الحيلة والخديعة . ألم تشاهد ما عملوه مع ابى سلمة وابى مسلم وعائلة البرامكة على الرغم من كل ما قدمه هؤلاء الرجال للدولة العباسية ، فلا تدع احدا يثق فيهم ابدا »(٢٨) .

وقد ادخل الصفاريون تقليدا جديدا على علاقة الامراء المستقلين بالخلافة العباسية، فاحتفظوا لانفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ، ولم يرسلوا منه شيئا الى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على ارسال الهدايا. وكان يعقوب أول من ادخل اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، هذا فى حين كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير . كذلك كان الصفاريون أول من هاجم سلطة العباسيين فى فارس ، وحاولوا انقاص سلطتهم الدنيوية الى ادنى حد(٢٩) .

أما عن العامل الثانى الذين أثر فى تكييف العلاقة بين الصفاريين والعباسيين، فانه من الملاحظ أن يعقوب بن الليث الصفار تاثر فى اصلاحاته الدينية والاجتماعية بفلسفة حركة المتطوعة ، فانضم الى حركة المتطوعة واصبح احد اعضائها النشيطين،حتى استطاع بقوة شخصيته(٣٠) وتأثيره وحسن معاملته لاتباعه واصحابه أن يتزعم الحركة(٣١) . ذلك انه أخذ يتقرب الى افرادها حتى استحوذ على قلوبهم فاطاعوه طاعة مطلقة(٣٢) . فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذين رفضوا التعاون معه ، وأقر الأمن والنظام فى سجستان ، اتجه الى المجتمع فى سجستان فاخذ يصلح احواله ويقضى على المفاسد فيه . وكان يأخذ بعضا من أموال الأغنياء فيوزعها على الفقراء والضعفاء ، واظهر الامر

بالمعروف والنهى عن المنكر ، فازدادت محبة الناس له(٣٣) . وقد أظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة قد ولاه سجستان وامره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر فى نظارهم بمظهر العاصي الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع في سجستان وصلحت أحوال المجتمع فيها اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان فاخذ يدعوهم للاسلام ليظهر امام اتباعه واعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد فى سبيل الله . وبعد أن رجع الى سجستان قصد بعض املاك الطاهريين فى هرات وبوشنج فضمهما اليه مظهرا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار الأهالي . ثم اتجه الى املاك الطاهريين فى كرمان واملاك الدولة العباسية فى فارس متخذا من عجز الطاهريين وفساد الادارة وفقدان الأمن وفساد الأكراد فى كرمان حجة لبسط نفوذه(٣٤) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهتدى بالله (٢٥٦هـ) لا ترى فى حركة يعقوب التي أظهرها بمظهر الاصلاح الاجتماعي والديني خطرا يهدد أمنها واستقرارها ، بل لقد رأت فيها محاولة لتوطيد الأمن فى فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد الخلافة المعتمد على الله ٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ اذ أصدر المعتمد الى محمد بن طاهر منشورا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمدبولاية يعقوب على سجستان(٣٥) .

أما العامل الثالث فى تكييف علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، فهو الفكر السياسى للخوارج واثره فى توجيه حركة الصفاريين ذلك أن يعقوب لم يكن ذا عقيدة خاصة كما صوره بعض المؤرخين ، وانما كان رجلا عاديا أظهر الدفاع عن الاسلام ، ولكنه كان ذا طموح سياسى دفعه الى أن يتعاون مع الخوارج ليستقوي بهم على الخلافة(٣٦) وكانت نشأته فى سجستان بين الخوارج من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، كما جعلته يتقرب الى الخوارج ويستميلهم ، وخاصة الذين اظهروا المرونة وقبلوا التعاون معه . ومن المعروف أن الخوارج كانوا يتمتعون بكفاءة عسكرية ممتازة(٣٧) .

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار تعاون مع الخوارج واستفاد من

حركتهم الا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مـــدى تأثر يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو ان المصـــادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى(٣٨) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . ذلك أن يعقوب عاش حياة فيها نوع من الزهـــد والتقشف ، وكان لا يكشـــف لاصـــحابه عن آرائه وافكاره وأسراره(٣٩) . على أن نشأة يعقوب الصفار فى بيئة سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة مما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء(٤٠) ، كل ذلك جعـــل يعقوب يتأثر بفكرهم السياسى.وكان لهذا التأثر أثره فى علاقته مع دولة الخلافة العباسية ، الأمر الذى يتضح لنا فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤هـ حينما اتجه يعقوب بجيشـــه الى فارس ليستولى عليها ويضمها الى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس - فى عهد الخليفة المعتز بالله - ان كان معه عهد من الخليفة ان يبرزه له ، رد عليه يعقوب بأن معـــــه عهدا من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه الا بعد أن يدخل البلد . فلما قبض يعقـــوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفا وقال : هذا عهدى(٤١)

وكان الموقف الثانى : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩هـ وقبض على محمد بن طاهر ، أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهـــد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يتهامسون به أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة ، فلما اجتمعوا عنده التفت يعقوب الى حاجبه وقال له : « احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقرأه عليهم ، فوضع الحاجب أمامه ســـيفا براقا فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة . ان هذا السيف هو الذى اعطانى خراسان ، وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة(٤٢) .

وأما الموقف الثالث : فكان حينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار امام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢هـ اذ اتجه

الى جند يسابور واقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لدرب الزنج ، فارسل اليه رسولا يحمل تقليدا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة الى جند يسابور سنة ٢٦٥هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا هذا السيف(٤٣) .

وجملة القول انه كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ، ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تأثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج ،مما أدى الى توتر العلاقة بين الامارة الصفارية ودولة الخلافة العباسية ، وجعل تلك الامارة تحتكم فى كثير من المواقف الى السيف والقوة، مثلما كان يفعل الخوارج حينما يصادمون عسكريا بالخلافة العباسية .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية : ذلك أن الامارة الصفارية فى سجستان وصفت بأنها كانت امارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقريين(٤٤) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، كما كان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال(٤٥) .

وكان معظم جند جيش يعقوب من اهالى سجستان وهى منطقة سهلية رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار(٤٦)، مما جعل يعقوب لا يحقق مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدرارى ذات الجبال الوعرة والمناخ البارد الذى لم يألفه رجال جيشه الذين اعتادوا الهواء الحار وخفة الحركة وقلة المؤنة(٤٧) . لذلك نلاحظ ان الامارة الصفارية اتجهت فى توسعها الى المنطقة الجنوبية لسجستان وهى فارس وكرمان والى المنطقة الغربية لها وهى خراسان(٤٨) ، مما جعلها فى صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك اثره القوى فى توتر العلاقة مع العباسيين .

ومن ناحية أخرى فقد كان يعقوب وعمرو يريان دائما ان قوتهما

رجع لسبب عسكرى بحت ، لا لأية اعتبارات أخرى . وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الامارة الصفارية ،مماجعلعلاقتها بالخلافة العباسية علاقة متذبذبة مضطربة لا تستقر على قرار . وعلى كل حال فان شهرة يعقوب واخيه عمرو تعود الى شجاعتهما ومقدرتهما السياسية والعسكرية، لا الى ثقافتهما ودعمهما وتشجيعهما للحـــركة العلميـــة والأدبية فى سجستان . أما الذين كتبوا عن الامارة الصفارية فكانوا غالبـــا من الفرس(٤٩) الذين اندفعوا وراء انعاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بنشا مجد فارس القديم ، فنسبوا اليهما امورا كثيرة تتعلق بالعناية بامجاد فارس وتاريخها وتراثها وأدبها . وهناك طائفة أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم العســكريةدون أن تتعرض لما خلفوه من تراث حضارى فلم تذكر جانبا من نشاطهم العلمى ، أو طرفا من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته . ولعل السبب فى اغفال المصادر التاريخية الجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها الصفاريون ابان امارتهم على سجستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود الى توتر علاقة الصفاريين بالحكومة العباسية ،والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين اعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعان أخوه عمرو الذى أعقبه على الامارة عدة مرات تمرده وعصـــيانه على الخليفتين المعتمد على الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الأتراك تبرز جانبا كبيرا من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين،دون ذكر الجوانب الحضارية التي أسهموا فيها والتي سارت جنبا الي جنب مع نشاطهم السياسى(٥٠) . وهكذا صار من الصـــعب ابراز دور الامارة الصفارية احدى الامارات الاسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى تقدم ولاية المشرق وازدهارها الحضارى فى القرنين الثالث والرابع الهجرة ، بسبب اغفال المصادر التاريخية نشاط الصفاريين الثقافى ومساهمتهم فى حضارة المشرق ، وبسبب حماس واندفاع المؤلفين الفرس الذين نظـــروا الى الامارة الصفارية نظرة قومية عاطفية فقالوا : ان نهضه امارة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصـــة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

وللحقيقة والتاريخ نقول ان الحركة العلميـــة والأدبية فى ولاية سجستان ، وخاصة فى مدينتى «زرنج» و «بست» شهدت ازدهارا ونشاطا ملحوظا فى الفترة التى تعاقب فيها على الامارة الصفارية يعقوب بن الليث واخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيهـا ، والرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهديهما ، فقـــد تخرج من « بست» فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة منهم الخطابى ابو سليمان احمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث(٥١) .

ولكن على الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصرى يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية الا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب لم تسجل لنا صورة أو حدثا تاريخيا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان. اللهم الا ما يذكره المسعودى عن احسان يعقوب ، وبره لاتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضا عن طـريقته ومنهجه فى استقبال الوفــود والرؤساء(٥٢) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرا انتهج سياسة ونظما ادارية فى حكمه لخراسان تعد فريدة فى ذاتها(٥٣) . والامارة الصفارية ـ كما ذكرنا ـ وان كانت السمة العامة لها انها امارة عسكرية فى خططها وثقافتها ، الا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودا وأعمالا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشـرق .

وكانت عناية الصفاريين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنـــه لم يكن لطاهـــــر وبذيه دراية تامة باللغـــة الفارسية(٥٤) ، بينما ولد يعقوب وأخوه عمرو فى ولاية سجستان ، أى مركز انتشار اللغة الفارسية . ويذكر باريزى : ان يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغـــيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت امر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل «بست» و «زرنج» وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية ،

ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من كون خطبة الجمعة بها كانت باللغة العربية ـ وصفوة القول انه يمكن ابراز مجهود الامارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التـالية :

(أ) اقرار الأمن والنظام فى سجستان ، وبذلك توافر للحـــركة العلمية جو علمى بعيد عن الفوضى والاضطراب .

(ب) العناية بالمنشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد واقامة بعض المبانى للادارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور واقامة بعض الأسواق فى زرنج(٥٥) .

(ج) الاهتمام بالصحة العامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزءا من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف على البيمارستانات(٥٦) فيها وبذلك صار للبيمارستانات دخل منتظم ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس .

الهـــوامش

(١) د· محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الاسلام ، ص١٣١·
د· فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الاسلامى ، ص ١٥١ ·

(٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم : قحطان عبد الستار الحديثى ، ص ٢٣٨ ·

(٣) القزوينى : اثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٢ ·

(٤) سى · أى · بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د· عبد الجبار ناجى ، ص ١٩٦ ·

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ص ٤٢٠ ·

(٦) الحموى : معجم البلدان ج٤ ص ٣٣٣ ·

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٦ ص ٤٠٢ ·
والحديثى : وفيات الاعيان ج٦ ، ص ٤٠٢ ·

(٨) ف·بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية ·
ترجمة : د· منذر البكر : مقالة فى مجلة المربد كلية الآداب جامعة البصرة - السنة الثانية ·

(٩) يراجع فى ذلك · سيى·اى·بوزوث : جيش الصفاريين
ترجمة : د· عبد الجبار ناجى ، ص/ط ·

(١٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٩١ ·
وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤١٦ ·

(١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٢ ·

(١٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٣٨ ·

(١٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص٢٩١ ·

(١٤) السمعانى : الانساب ، ج٧ ، ص ١٣ ·

(١٥) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ، ص ٢٥ ·

(١٦) بارتولد : تركستان ، ص ٣١٩ ·

(١٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٤ ·

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٠ ·

(١٩) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧٠ ·

(٢٠) النرشخى : تاريخ بخارى ، ص ١٠٨ ·

(٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٣ ·

(٢٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص ٢٩٤ ٠

(٢٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج١١ ، ص ١٥٩ ٠

(١٤) ابن خلكان : ج٦ ، ص ٤٠٨ ٠

(٢٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٤١ ٠

(٢٦) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٨ ٠

(٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٦٣ ٠

(٢٨) سى٠ى٠بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٩٠ ٠

(٢٩) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ، ص ٢٠٢ ٠

(٢٠) ابن الاثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٢٢٨ ٠

(٣١) نفس المرجع ٠

(٣٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٦ ، ص ٤٠٣ ٠

(٣٣) حمزة الاصفهانى : تاريخ سنى ملوك الارض ، ص ١٧٠ ٠

(٢٤) ابن الاثير : ج٥ ، ص ٢٤٠ ٠

(٣٥) د٠ ابراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٦

(٣٦) د٠ فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٣ ٠

(٣٧) س٠اى٠بوزورث :جيش الصفاريين ، ص ٢٠٢ ٠

(٣٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٢ ٠

(٣٩) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٣ ٠

(٤٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٩٠ ٠

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٧ ٠

(٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٦٢ ٠
ود٠ فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٢ ٠

(٤٣) باريزى : يعقوب بن الليث ، ص ١٦٣ ٠ ذكر ياقوت أن جند نيسابور مدينة بخوزستان

(٤٤) سى٠اى٠بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٨٩ ٠

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

(٤٨) ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ص ١٧ ٠

(٤٩) يمثل هؤلاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د٠ ابراهيم باستانى باريزى : استاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار ٠

ود٠ رضا زاده شفق : أستاذ الادب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الادب الفارسى ٠

(٥٠) يمثل هؤلاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الامم والملوك . والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الاثير فى كتابه : الكامل . وابن خلكان فى كتابه : وفيات الاعيان وقد تميز المسعودى وابن خلكان بالاشارة الى طرف من نظـــم الصفاريين الادارية والمالية والعسكرية ٠

(٥١) الحموى : معجم البلدان ، ج١ . ص ٤١٥ ٠

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٤٠

(٥٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٢١ ٠

(٥٤) حامد عبد القادر : قصة الادب الفارسى . ج١ . ص ١١٧ ٠

(٥٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

(٥٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

المصادر :

— ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد . ت ٦٣٠هـ . الكامل فى التاريخ .

دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

— الحموى : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦هـ
معجم البلدان ، بيروت الطباعة والنشر ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٧م .

— ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على . ت ٣٦٧هـ ، صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

— ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون . ت ٨٠٨هـ
تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦م

— مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

— ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . ت٦٨١هـ
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

— السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور . ت ٥٦٢هـ .

— الاصطخرى : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى . ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .
المسالك والممالك ، تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١هـ .

— الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير. ت٣١٠هـ تاريخ الأمم والملوك.

— ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب . ت ٢٨٠هـ بغداد.
طبع سنة ١٣٨٨هـ/١٣٦٨م .

— القزوينى : زكريا محمد . ت٦٨٢هـ
آثار البلاد وأخبار العباد . دار صادر ، بيروت .

— المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين . ت ٣٤٥هـ
مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥هـ .

— المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت٣٨٨هـ
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل بلندن عام ١٩٠٩م .

— ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت٧١١هـ
لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

— اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صـــادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ .

المراجع :

- د. حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١م .

- د. عبد الحميد الشلقانى : الرؤية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة الكتاب ، القاهرة ١٩٧٥م.

- عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، الطبعة الأولى ، مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥م .

- د. عبد الفتاح السرنجاوى : النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية، الطبعة الرابعة ، نشر دار الكتب الاهلية بمصر ١٣٦٣هـ/١٩٤٥م .

- د. فارق عمر : الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧م .

- د. فؤاد محمد النادى :نظرية الدولة فى الفقه السياسى الاسلامى، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

الكتب المترجمة الى العربية :

- باريزى : د. ابراهيم باستانى :
يعقوب بن الليث الصفار
ترجمة من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الريس ، دار الرائد العربى .

- بارتولد فاسيلى : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة د. صلاح الدين عثمان هاشم
منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، الكويت ١٤٠١هـ .

- بوزورث . سى.اى : جيش الصفاريين ، لندن ، ١٩٧ .

- د. رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى :
ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ .

- النرشخى : أبو بكر محمد بن جعفر . ت ٣٨٤هـ ، تاريخ بخارى ، ترجمة : د. أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف بمصر .

النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى

د. سعد عبد الله البشرى(*)

خطا المجتمع الأندلسى منذ أن استقر المسلمون فى شبه الجزيرة الايبيرية خطوات سريعة فى مدارج التطور الحضارى والازدهار المدنى. وقد احتفظت لنا مصادر التاريخ والحضارة بالكثير من الأمثلة والبراهين على ما حققه الأندلسيون من حضـــارة ومدنية راقيـــة لازالت تدهش الدارسين ، وتثير اعجاب الباحثين فى تاريخ الحضارة البشرية . وقد اخترت أن أدرس جانبا مهما من جوانب الحضـــارة الأندلسية ، وهو ما يتعلق بظاهرة النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الاندلسى ، فتتبعنا بالدراسة النشاط الحضارى المتصل بالنظافة والصحة العامة فى الأسواق وما تضمه من الحرف والصناعات ، وكذلك فى الطرق والدروب والساحات والجوامع ، ومراعاة صحة البيئة ومكافحة التلوث بصورة عامة . هذا فضلا عن نظافة البـــدن واهتمام المجتمع الاندلسى بالاستحمام وظاهرة انتشار الحمامات بوصفها ظاهرة حضـــــارية راقية ، وتأثير ذلك فى المجتمعات الأوربية .

أما عن مراعاة النظافة ومكافحة الأقذار والتـــلوث والنفايات فى الأسواق، وهى الظاهرة التى يترتب على اهمالها أوخم العواقب الصحية مما يؤدى الى تدهور خطير فى رقى الامم وصعودها الحضارى ، فمن المعروف أن ولاة الأمر والقائمين على شئون المجتمع الاسلامى عنوا بهذا الأمر عناية كبيرة ، وخصصوا لذلك وظيفة كبيرة هى وظيفة الحسبة، واحتفظوا لنا من خلال ما كتبوه فى شئون الحسبة بمعلومات قيمة ونادرة عن اختصاصات المحتسب وواجباته فيما يتعلق بمراقبة الأسواق والباعة، التاكد من اتباعهم قواعد الامانة والنظافة وسلامة ما يقدمونه للناس من بضائع ، وخاصة فى كل مايتعلق بالطعام والشراب. ويأتى فى المقدمة اهل

(*) استاذ مشارك بقسم التاريخ ـ كلية الشريعة ـ جامعة أم القرى .

الحرف والصناعات والمهن المختلفة . ولتيسير هذه المهمة وتطبيقها على خير وجه نبه ابن عبدون التجيبى - وهـــو من كبـــار المحتسبين فى الاندلس - الى اهمية ترتيب الصـــناع والحرفيين ، وذلك بتخصيص موضع لكل حرفة او صنعة ، وذكر أنها اجل واتقن(١) .

وقد لفتت هذه الظاهرة - اى العنـــاية بتنظيم اماكن الحـــرف والصناعات المختلفة - نظر المؤرخين الذين أشادوا بما رأوه وشاهدوه وسمعوا به ، فهذا الادريسى يشير على سبيل المثال الى مدينة طلبيرة فيقول عنها : (وهو بلد واسع المساحة شريف المنافع وبه أسواق جميلة الترتيب وديار حسنة التركيب ..)(٢) .

كما يلاحظ انه كان لكل صنعة من الصناعات امين يعود اليه الناس فى حال الاختلاف للاستهداء برأيه ، وهذا تنظيم حضارى كبير لازلنـــا نشاهده ماثلا فى حياتنا المعاصرة .

ولنا أن نتساءل : ما العلاقة بين ترتيب الحرف والصناعات وبين النظافة وصحة البيئة ؟ فنقول : ان لذلك عـــلاقة وثيقة ، اذ ينبغى أن تكون أسواق ومحال الماكولات والأطعمة والاشربة فى أماكن بعيدة عن اماكن الحرف المتعلقة بالدباغة أو بيع الفحم والحطب والجص،وغير ذلك من المهن التى يترتب على مزاولتها والاشتغال بهـــا الوان من التلوث والنفايات المضرة بالانسان وصحة البيئة ، بل لقد أمر باعة الاسماك بان يتخذوا موضعا بمعزل عن الطريق لما يتسببون فيه من روائح ولما يبدو عليهم من رثاثة الحال(٣) .

وهذا ابن عبدون يؤكد على ما أشرنا اليه اذ يقول : (يجب أن يكون لبيع الحطب موقف ولا يترك أحد منهم يمشى فى الأسواق فانهم يؤذون الناس ويمزقون الثياب . وان عثر على من يمشى بالحطب فى الأسواق ادب.وكذلك بائعو الجير وغير ذلك يتخذ لهم مواضع فتقصدهم الناس. وبائعو الفحم يجب أن تكون لهم مجارد لا مجارف،فانها تجرف التراب والغبار ويؤمروا بعزل الغبار منه . ويباع بجهة لمن شاء ان يشتريه)(٤).

وتجدر الاشارة الى أن تعدد ألوان الحرف والمهن والصناعات أدى الى مراقبة ورصد واسعين من قبل المسئولين عن الأسواق وصحة البيئة ، وادى هذا الى وضع معايير وتوجيهات محددة فى سبيل المحافظة على مستوى النظافة الخاصة والعامة فى المجتمع الأندلسى،ومكافحة كل ما يؤدى الى تشويه المظهر الجمالى والصحى فيه ، وبالتالى سوف نتطرق الى الحديث عن تلك المعايير والتوجيهات للحرفوالمهن المتصلة بمحور البحث ،-وبخاصة ما هو متصل بالأطعمة والأشربة .

وهنا تجدر الاشارة الى أن المحتسبين الأندلسيين شددوا على أهمية أن يكون المشتغل بالحرف المتعلقة بالأطعمة والماكولات والمشروبات - لائقا صحيا لممارسة مهنته ، فلا يشتغل بها مجذوم ، أو مبروص(٥) ، أو من به مرض جلدى ، أو مرض معدى . وهذه لفتة حضارية راقية لازلنا نلمس أهمية تطبيقها فى عصرنا الحاضر . وفى حرفة الجزارة نبه المحتسب الى ضرورة ذبح الحيوانات وسلخها فى القصارى ، وعلى المشتغلين بهذه المهنة أن يجمعوا الدم وزبل الكروش وينقلوها خارج الأسواق أو الى الأماكن النائية . وعلى الجزار أن يغسل رؤوس الضأن قبل بيعها وذلك لضمان أن لا يؤذى مشتريها الناس بما قد يكون فيها من دماء فى الطرق الضيقة أو أماكن الزحام . وكان على الجزارين أن لا يضايقوا المارة بما يعرضونه من اللحوم المعلقة خارج حوانيتهم مما يكون سببا فى تلويث ثياب المارة فضلا عن تضييق الطريق(٦) .

كذلك كان على الجزارين تنظيف مواضعهم وازالة ما قد يكون فيها من فضلات اللحوم والعظام وغيرها ، والتنزه عن الأقذار ، ومكافحة الذباب ، وأن يستخدموا لتقطيع اللحم لوحا من الخشب صلبا نظيفا . وعليهم بعد الانتهاء من العمل أن يغسلوا أدواتهم وما يقطعون عليه من الواح وتغطيتها وحفظها بعيدا عن الحشرات ، وكان عليهم رش الملح على الألواح التى يقطعون عليها لتحول دون حدوث العفونة وتراكم الأقذار(٧) .

وكان بيع لحوم الطيور وبعض الحيوانات البرية يخضع لارشادات

معينة ، فكان لا يباع الحجل والطير المذبوح الا بعد نتف ريش مؤخراتها؛ وذلك ليتبين للمشترى فسادها أو جودتها ، كما لا تباع القنليات(٨) الا بعد سلخها ؛ ليتضح ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ، وذلك لأن بقاءها فى جلودها مداعاة لفسادها وتعفنها(٩) .

اما باعة الأسماك والمشتغلون بقليها فكانوا يؤمرون باتخاذ تدابير محددة لضمان النظافة والتنزه عن الأقذار والتلوث.وأول ماكانوا يلزمون به أن يتخذوا لهم مكانا خاصا بحرفتهم ، وقد سبقت الاشارة الى الزام باعة الأسماك باختيار موقعهم بمعزل عن الطريق ، نظرا لما يتسببون فيه من روائح ، ولما هم عليه من هيئة قد لا تكون حسنة ، كذلك كان عليهم تنظيف ساحاتهم ، وينهون عن تمليح الأسماك التى مر عليها يومان أو ثلاثة ، لما قد تولد فيها من العفونة اذ من الأفضل تمليحه طريا(١٠) .

ويتبع هذه التوجيهات الزام باعة الأسماك بعدم حملها فى أيديهم والتجول بها فى الأسواق والطرقات ، بل يحملونها فى أوعية أو أوان نظيفة لئلا تلوث أثواب المارة . ومن يخالف هذا الأمر يؤدب بوضع ما يحمله فى حجره(١١) .

والواقع ان المشتغلين ببيع وعمل الأطعمة كانوا أكثر أهل السوق استهدافا من قبل القائمين على مكافحة الغش ومحاربة التلوث والأقذار ، وكانت التوجيهات والتعليمات التى يلزمون باتباعها صارمة وعليهم التقيد بها ، فمنها : أن لا يطبخوا بالليل أو السحر ولا فى الأماكن النائية والمواضع الخفية ، وعليهم أن يتخذوا لهم حوانيت مجصصة(١٢) ومسطحة يسهل تنظيفها وغسلها فى كل حين ، ويلزمون اثناء الطبخ بتوفير الانارة والضوء بحيث يتم ذلك وفق طريقة سليمة ونظيفة وتحت اشراف العارفين منهم . وفى اثناء الطبخ يتعهد أحدهم بذب الذباب عن الأوانى واللحوم حتى يتم الطبخ على أحسن ما يكون ، وبالتالى يطمئن الناس الى نظافة وأمانة الطباخ وما يطبخ . ويشير السقطى الى أهمية الاشراف الدقيق على عمل الطباخين ومعرفة ما يطبخون ، فيذكر حالات من الغش والتلاعب التى كشفها اثناء ممارسة عمله كمحتسب ، حتى انه

قبض على عدد من الطباخين الذين كانوا يمارسون مهنتهم فى خفاء ، عندما تبين له قيامهم بذبح حيوانات قذرة كالكلاب وطبخ لحمها . ولهذا نبه الى أن يتم الطبخ فى مواضع قريبة وميسور الاطلاع عليها من قبل أهل الحسبة وأعوانهم(١٣) .

وكان المحتسب يتفقد أحوال الطباخين صباحا ومساء ، فى الصباح ينظر هو وأعوانه فى نوع اللحم الذى يطبخه الطباخون ومدى نظافته وصحته ؛ وفى المساء يقوم المحتسب أو أعوانه بجولاتهم الميدانية فيتفقدوا اماكن الطبخ ومدى مراعاة الطباخين لقواعد النظافة والأمانة،بعدم خلط ما بقى من اللحوم مع اللحوم فى اليوم التالى وتقديمها الناس على أنها لحوم طازجة وجديدة ، وفى ذلك تحايل ومجافاة للنزاهة(١٤) .

وكان على القلائين تنظيف السمك قبل قليه واستخراج ما فى جوفه وتنظيفه بصورة تامة ، وأن يراعوا نظافة الزيت ، فلا يقلوا الأسماك فى زيت عكر وردىء ، اضافة الى مراعاة النظافة فى أدوات القلى، فيتعهدوا أوانى القلى بالغسل وازالة ما علق فيها من الزيوت والأطعمة . وكان المتهاون فى ذلك يلقى العقوبات الصارمة(١٥) .

ويشير التجيبى الى قواعد صحية تراعى فى اختيار أدوات الطبخ وما يستلزمه من أوان وقدور ، فينبه الى عدم صلاحية الأوانى المصنوعة من النحاس فى عملية الطبخ ، وفضل عليها ما يصنع من الحديد اذا ما روعى غسلها وتنظيفها باستمرار والحيلولة دون صدئها . وذكر أنه لا بأس بأوانى القصدير قدورا وصحافا ، وكذلك ما يصنع من الزجاج لسهولة تنظيفها . ونبه الى الحرص على تغطية القدور وغيرها عند الطبخ بأغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يكون.ونهى عن الطبخ فى أوانى النحاس اذ كرر ذلك عند حديثه عن القلى ، فذكر أنها خطيرة جدا ، وخاصة اذا ما قلى فيها مواد كثيرة الدسم تختلط ببعض مكونات النحاس(١٦) .

ولم يكن التجيبى وحده هو الذى نصح بعدم الاعتماد على أدوات الطبخ المصنوعة من النحاس ، بل أشار الى ذلك عدد من الأطباء وأهل الحسبة ، منهم : الطبيب (ابن زهر) الذى يقول : (يجب أن تعلم أن

كل شيء فيه الخل اذا القى آنية نحاس حدثت فيه قوة رديئة مذمومة تضر بالابدان ، وبالجملة فان النحاس يجب أن يتجنب طبخ الاشربة فيه الا ان بولغ فى تبييضه بالقصدير(١٧) .

كما أن ابن عبدون والسقطى نبها الى خطورة استخدام قـــدور النحاس عند الهراسين، والقلائين وغيرهم ، وذكر ، أنها لا تكون صالحة للاستخدام الا اذا كانت مرصصة ، اذ يتولد عن امتزاج الزيت بالنحاس اثناء الطبخ مادة سمية خطيرة(١٨) .

فاذا انتقلنا الى غير ذلك من العاملين بالأسواق فى بيع وصناعة الاطعمة والمأكولات كالخبازين ، لمسنا مدى عناية وحرص القائمين على نظافة وسلامة البيئة بفضل ما وضعوه من قواعد صارمة من أجل المحافظة على النظافة والنزاهة وسلامة الناس .

ذلك أنه كان على الخبازين غسل أدوانهم وأوانيهم التى يعجنون فيها كل يوم ، وكذلك ما يرتدونه من ملابس اثناء العمل ، ويمنعون من ممارسة أعمالهم قبل الفجر لحداثة عهدهم بالنوم ، وبالتالى يتهاونون فى مراعاة قواعد النظافة ، ويلزم الخبازون بالاغتسال والنظافة فى اكثر الاوقات وخاصة فى أيام الصيف(١٩) .

وعلى الخبازين الاهتمام بنظافة الماء الذى يعجنون به ، وتجنب اخذه من المواضع القذرة . وكذلك مراعاة ذلك عند جمع الحطب لما يترب عليه من الاضرار بالخبز ، وينبهون أيضـــا الى المحافظة على نظافة رقائق العجين قبل ادخالها الفرن ، وذلك بتغطيتها بقماش نظيف يحول دون سقوط الأقذار عليها ، وعند الانتهاء من العمـــل يقومون بتنظيف أدواتهم ، ومنها ما يفردون به الخـــبز ، وما يوصلونه به الى داخـــل الفرن ؛ فتجرد الادوات وتغسل ، كما كان عليهم أن يكنســـوا الفرن من الرماد والتراب قبل أن يبدأوا العمل فيه من جديد فى اليوم التالى(٢٠) .

ومن القواعد التى يجب الالتزام بها لمن يبيع الأطعمة ومنها الخبز أن يكون البائع نظيفا سليما من الأمراض ، وقد سبقت الاشارة الىذلك،

ولاهمية أن يكون الخبز نظيفا سليما من الاقذار فقد شدد المحتسب فى أن لا يبيعه حوات أو جزار أو من تستقذر مهنته . وكان على باعة الخبز تغطيته وحفظه من وقوع الذباب والأقذار عليه ، وأن يبتعدوا عن مجاورة أصحاب الحرف التى يغلب عليها طابع التلوث والقذارة،كبائعى الأسماك ومحترفى البيطرة والحجامة ، ويلزم باعة الخبز بتنظيف ملاحدتهم وساحاتهم(٢١) .

وامتد هذا الاهتمام بالنظافة الى بقية أصناف الباعة وأصحاب المهن الأخرى ، فقد نبه أهل الحسبة الى ضرورة أن يهتم اللبانون والجبانون بتنظيف أوانيهم ومواضع عملهم ، وأن يكون لهم موضع خاص بهم بعيدا عن المشتغلين بحرف يتولد عنها تلوث أو قذارة . وكان على المحتسب أن يمنعهم - أى اللبانون - من أن يبيعوا مع اللبن أو الجبن ما لا يتوافق معه كالسمك أو اللحم(٢٢) .

وفيما يتعلق بالأدوات التى يغرفون بها اللبن فيلزمون بأن تكون من حنتم(٢٣) أو من خشب ، ويحظر عليهم استخدام ما يصنع منها من النحاس لما فيه من ضرر . وكان على اللبانين مراعاة النظافة بصورة دقيقة وخاصة فيما يتصل ببيع اللبن الرائب لأنه سريع العفن والتخمر ، ولهذا اشترط ابن عبدون أن لا يباع اللبن الرائب الا فى الزقاق ، لسهولة غسلها وتنظيفها . وأما الذى فى المجابين فقد يتعرض للفساد والتلوث(٢٤) .

وقد اتبع المشتغلون بصناعة الهريسة والمجبنات تلك القواعد الصحية ، فكان عليهم الاهتمام بتنظيف أبدانهم وشعورهم ، والحرص على نظافة أوانيهم ومن تحتها أغطية أخرى(٢٥) ، وذلك مبالغة فى نظافة ونزاهة ما يحترفونه من أعمال ، حيث أنه لا يؤمن ان يتسرب اليها بسبب التهاون كثير من ألوان التلوث والأقذار ، وهو أمر خطير لارتباط ذلك بصحة الانسان وحياته .

أما المشتغلون ببيع الخضار والفواكه فكان عليهم ان يعنوا عناية كبيرة بنظافة مايعرضونه من الخضار والفواكه ؛ كما كان من الأهمية بمكان

ضرورة غسلها وازالة ما علق بها من الأتربة . ولا يكون هذا الغسل فى البرك أو الصهاريج ، لما قد يكون فيها من الأقذار بل يجب غسلها على ضفاف الأنهار أو المياه الجارية العذبة(٢٦) .

فى الطرقات والساحات :

حظيت الطرق والدروب فى المدينة الأندلسية بعناية فائقة من قبل القائمين على رعاية المظهر الحضارى والوجه الجمالى لمرافق المدينة . وكان عليهم لبلوغ ذلك الهدف الحضارى الراقى أن يضعوا قواعد وتنظيمات دقيقة تثير الاعجاب ، وخاصة بمقاييس ذلك العصر . فمن هذه القواعد الحضارية : أن يلتزم أفراد المجتمع بنظافة الدروب والطرق، وذلك بعدم طرح النفايات والأقذار فيها ، والعمل على اصلاح مستوى الطريق ، وذلك منعا لتجمع المياه والأوحال فى المواضع المنخفضة منه. وعلى أصحاب البيوت والدور ـ ان كانت لهم قنوات تحمل المياه الى الطريق ـ أن يعملوا لها سربا تنصرف فيه المياه والأقذار بعيدا عن الأعين ، ويمنع من تصريف المياه والأقذار فى الطريق(٢٧) .

ومن السلوكيات المذمومة التى حاربها المجتمع الأندلسى قضاء الحاجة فى الطرقات والساحات ، لما لذلك من تأثير سيء سواء على مظهر المدينة الحضارى أو صحة الانسان . وكان على القائمين بأمر النظافة ردع من يقوم بذلك السلوك المشين ، فان عاد أدب ، وان كان صغيرا فعلى وليه التعهد بعدم تكرار ذلك(٢٨) . وفى هذا اشارة مهمة الى ما أولاه المجتمع الأندلسى لنظافة المجتمع من اهتمام وعناية .

أما النفايات والقمامة المتجمعة من البيوت والأسواق فكانت تنقل خارج المدينة . وكان المحتسب وأعوانه حريصين على مكافحة الأقذار وعدم تكديسها داخل الأحياء وبين المنازل والدور ، اذ على السكان أن يبادروا الى نقل ما تجمع منها بعيدا عن الأحياء والتجمعات السكانية . وعلى صاحب الدار فى حالة تنظيفه ما تجمع من مياه وأقذار المجارى فى منزله أن ينقل ذلك بعيدا عن الدور . وقد تستخدم تلك الفضلات فى المزارع ، أو تجمع فى مواضع معلومة معدة لذلك . ويجب على من فتح

سربا وافرغه من المياه القذرة والفضلات أن ينقلها الى خارج المدينة ، وعليه تبعا لذلك ان يسوى موضع السرب بما يتفق مع مستوى الشارع وبما يحقق السلامة والنظافة للعابرين(٢٩) .

وجدير بالذكر أن الأندلسيين من العاملين فى تنظيف المجـــارى والقنوات توصلوا آنذاك الى صنع او تكوين مواد معينة يستخدمونها فى تفتيت ما تصلب من المواد داخل المجارى أو القنوات ، فيقول أبو مروان ابن زهر عندما أشار الى تحليل الأورام بالأدوية : (فانك متى ألححت مدة فى التحليل أبقيت من الخلط الممرض بقية لا تقبل التحليل كأنها قد تحجرت ، وان العوام يشعرون بمثل هـــذا فانا نراهم متى أردوا أن يخرجوا جوهرا غليظا من القنوات المدفونة لم يقتصروا على تقطيعـــه بالغسل حتى يخلطوا معه ما يميعه فيصبون الماء فى القنوات فتســهل جريته ..)(٣٠) .

وكان على الكنافين أو المشتغلين بتنظيف ما يعـــرف فى عصرنا الحاضر بالمجارى أن يلتزموا قواعد محددة فى أعمالهم : وذلك حرصا على نظافة البيئة ، فالزموا فى عملية نقل المياه والاقذار المفرغة من الحمامات والمواضع التى تتجمع فيها باستخدام أكواب كبيرة ، يحمل كل كوب اثنان ، ليضمنا بذلك عـدم سقوطه أو تناثر ما فيه من الأقذار . والزموا ايضا بان يحمل احدهما أثناء النقل جرسا ينبه المـــارة الى الابتعاد عنهما ، وحظر على أحدهما أن يحمل لوحده كوبين : لما يترتب على ذلك من اضرار وفساد يتنافى مع ما يجب مراعاته من نظافة ونزاهة البيئة والمجتمع(٣٢) .

ومن التنظيمات الحضارية الرافية المحافظة على نظافة الطـــرق وجمالها ومكافحة كل ما يخالف ذلك ، فيحظر انشاء الحوانيت التى يمارس أصحابها حرفا ينتج عنها تلوث البيئة أو ممارسة تلك الحرف فى الطرقات . وقد نبه بعض المحتسبين الى أهميـــة ذلك ، وضرورة العناية بنظافة وسعة الطرقات وذكروا (ان عمرا رضى الله عنه أمر بهدم كير الحداد الذى مر به فى الطريق) كما أمروا بضرورة منع الصباغين ومن شاكلهم من نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق : لما تتسبب فيه من

تنويث المارة . وكان يحظر انشاء الأفران فى الطـــرق لما تسـببه من تلوث(٣١) .

والزم اصحاب الحرف والمهن أن يتخلصوا من النفايات والأزبال التي تتخلف عن صناعاتهم وبيعهم وكل ما يتصل بممارساتهم الحرفية ، كالمشتغلين ببيع الفواكه والخضار والحبــوب ، والعاملين فى التجارة والحدادة والدباغة والحطابة وبيع الفحم وغير ذلك .

الجوامع ـ الأنهار ـ المقابر :

كانت الجوامع والمساجد فى مقدمة المواضع التى حظيت باهتمام المسئولين عن النظافة في المجتمع الأندلسى . وما من شك في أن المسجد نال عناية فائقة فى الاسلام ، وكان الاهتمام به وبنظافته وطهارته من الأمور التى اشار اليها القرآن الكريم وســـنة المصطفى عليه السلام . وبالاضافة الى ما تقدم فقد كان الاندلسيين آدابهم وسلوكياتهم الحضارية التى جاءت لتؤكد عظمة المسجد وحرمته ومنزلته . وفى ضوء التطور الحضارى الذى بلغه الأندلس وضع بعض العلماء والمحتسبين قواعد تحفظ للمسجد نظافته وحرمته وقدسيته . فلـكى يبقى المســـجد على نظافته وطهارة فرشه كان على المصلين أن لا يدخلوه بنعالهم أو بأحذيتهم فى اقدامهم ، وأن ينتبهوا الى ازالة ما قد يكون عالقا بها من الأوساخ والطين وحك بعضها ببعض أو فى الأرض قبل الدخول . وكان من الأمور المرعية مراعاة نظافة المســـاجد ورحابها وما حــولها ، ومنع القـــاء الأزبال والقاذورات فى رحابها وما حولها ، وينهى بحزم من يقدم على ذلك ، فان عاد عوقب بلا تردد(٣٣) .

ومما يتصل بنظافة المسجد العناية بفرشه ، فان بلى الفرش نقل الى حيث يحتاج اليه فى السجون أو للفقـــراء . وكان من السلوكيات الحضارية والانسانية أن تبنى سقائف بجوار الجامع ليقيم فيها الغرباء او من انقطعت بهم السبل(٣٤) .

وقد روعى فى ارضية الجامع او المســـجد أن تكون فى اعتدال واستواء ، واذا كان فيها موضع منخفض يسوى بحيث لا تجتمع فيه مياه

الامطار والأوحال ، وقـــد رتب لتنظيف الحمامات فى الجامع عامل أو عمال يقومون بتنظيفها وتصريف ما يتجمع فيها من الأقذار ، وهؤلاء العمال أجورهم أو مرتباتهم من الأحباس(٣٥) .

كذلك كان للمسجد موظفون يقومون على نظافته والمحافظة عليه من الأوساخ . وقد وضع بعض المحتسبين لهؤلاء الموظفين قاعدة يسيرون عليها ، فكان عليهم كنس المسجد أو الجامع ونفض الحصر والفرش فى كل يوم اثنين ، وكل يوم جمعة ، ويضاف الى ذلك تنظيف قناديلها فى اول يوم من الشهر وفى منتصفه(٣٦) .

ولما كان يوم الجمعة يشهد اجتماع اعداد كبيرة من المصـــلين فى الجوامع ، فان بعض الباعة استغلوا هذه المناسبة ليعرضوا فى رحاب الجوامع سلعهم وحاجاتهم ، لذلك أمر عمال الجـوامع بتنظيف رحاب الجامع فى صباح يوم الجمعة كما أمر الباعة بعدم بسط سلعهم وبضائعهم قبل الصلاة وانما بعدها .

ومن دلائل عنايتهم بطهارة المسجد ونظافته تأكيدهم البالغ على أن لا يتم تأديب الأطفال والصبيان فى رحاب الجامع ، وذلك لعـــدم تحفظهم واحترازهم من النجاسات التى قد تكون فى أقدامهم وملابسهم ، ويتم تأديبهم وتعليمهم فى السقائف(٣٧) .

ويضاف الى ذلك حرص القائمين بأمر نظافة أماكن العبادة على تنزيه الجوامع والمساجد ليس فقط من الوان التلوث والأقذار التى يتسبب فيها الانسان ، وانما أيضا مما تتسبب فيه بعض الحيوانات ، فقد حظر على المصلين ربط دوابهم فى رحاب الجامع لما ينتج عن ذلك من قـــذارات ونجاسات اذا راثت أو تبولت ، وهذا يؤدى الى انتشار النجاسة وبالتالى عدم صلاحية الموضع للصلاة فضلا عما يلحق النـــاس من الأذى . وقد شدد المحتسب على اخــراج الدواب الى مواضع بعيـــدة عن أماكـــن الصلاة(٣٨) .

★ ★ ★

ومن ألوان العناية بالنظافة والنزاهة التى شــملت شتى مرافق الحياة فى المجتمع الأندلسى ، حفاظا على صحة البيئة والانسان ، العناية بمصادر المياه ، مثل . الانهار ، والأودية ، وينابيع المياه ، والعيون . وقد نبه المحتسب ابن عبدون على اهمية المحافظة على ضفة الوادى الذى هو مرسى المدينة ، وذلك بحظار ان يباع منه شىء أو يبنى فيه ،نظرا لاهميته باعتباره منفذا بحريا يحط فيه التجار والمسافرون والغرباء ، وموضعا لاصلاح السفن،فهو ملك للدولة لا يتصرف فيه غيرها(٣٩) . وقد استهدف هذا نوع من التنظيم الرقى بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، وفيه مالا يخفى من النزوع نحو تحقيق صورة جمالية البيئة الأندلسية .

وكان المحتسب حازما فى مكافحة الوان التلوث وخاصة فى الأنهار والأودية والعيون ، كما كانت هناك مواضــع تم تخصيصها الســـقائين يستقون منها . من ذلك انه نبه الى ضرورة منع الغسل والاغتسال بالقرب من مواضع السقاية لما يؤدى اليه ذلك من تلوث وقذرات .وكان على من يريد الغسل وخاصة من النســـاء أن يذهبن الى موضع معين بحيــث لا يتسببن فى تلويث المياه الجارية . كذلك كان من الامور التى يحظرها المحتسب ان يعمد الناس الى رمى الاقذار والنفايات على ضفة الوادى او الأنهار ، ومن يفعل ذلك كان يعاقب بحزم(٤٠) .

وتجدر الاشارة الى أهمية ما أولاه أهل الحسبة من عناية المحافظة على الثروة النباتية والسعى الى انمائها وغراسة ألوان الأشجار والنباتات لزيادة مساحة الرقعة الخضراء ، فكان من واجبات الدولة حماية الغابات وتشجيع الساكنين بقرب ضفاف الأنهار على زراعة الأشجار والمحافظة على الغابات وصيانتها من العبث والتقطيع الجائر(٤١) لما تمثله من ثروة اقتصادية ، وما تعكسه من جمال طبيعى ، فضــلا عن دورها فى تقليل التلوث فى البيئة والهواء .

ومن مهام المحتسبين والمسئولين عن النظافة وصـــحة البيئة فى المجتمع الاندلسى السعى الى محاربة المظاهر الاجتماعية الفاسدة التى تتسبب فى تشويه المظهر الحضارى والوجه الجمالى للمـــدينة ، فكان يحظر التسول وما يسلكه البعض من مسالك قبيحة فى ســـبيل استدرار

عواطف الناس ، فهناك من يتخبط فى الأسـواق ويوهم النـاس أنه مصروع ، وهناك من يتظاهر بالشلل أو يبدى فى جسده بعض القروح والأورام (وذلك كله منهم حيلة لأخذ أموال الناس بالباطل ، فيجب على صاحب الحسبة أن يقف من ذلك كله على صحته ويعاقب من يحتل منهم بتلك الحيلة)(٤٢) .

ولم تقتصر عناية المسئولين عن نظافة البيئة على ما تقدم ، اذ امتد هذا الاهتمام الى ما يتصل بحياة الانسـان بعد موته بمراعاة حرمته وكرامته من خلال العناية بالمقابر والحرص على نظافتها وحرمتها ومنع العبث والفساد بها . وكان من القواعد المتبعة أن يلتزم حفارو القبور بتعميقها بحيث لا تنتشر روائح الموتى ، وفى الوقت نفسه تكون بعيدة عن عبث السباع ، وأن يراعى حرمة الميت فيستر ما يظهر من العظام ولا يتركوه على وجه الأرض(٤٣) . وقد عاب ابن عبدون على أهل بلده - اشبيلية - ضعف اهتمامهم بهذا الجانب اذ عمدت طائفة من الناس الى السكنى فوق المقابر بل وأجروا فوقها أو خلالها السروب والمجارى . وكان لبعض المحتسبين - كما يقول ابن عبـدون - موقف حـازم ازاء تلك الظاهرة ، فهدموا ما بنى فى المقـابر وما أنشىء بها من الدور ، ونصح ابن عبدون بتخصيص بعض المواضع ليكون مقبرة لأهل اشبيلية . وقد نبه ابن عبدون الى المحافظة على نظافة المقـابر وتطهيرها من الأرجاس والأقذار ، وأن لا يستغل موضعها بعض أهل الحرف المستقذرة كالمشتغلين بالدباغة ومن يشاكلهم(٤٤) .

النظافة الشخصية :

فاذا انتقلنا الى الحديث عن النظافة الشخصية فى المجتمع الأندلسى وجدنا ما يؤكد ويقرر هذا المسلك الحضارى الراقى . يذكر المقرى نقلا عن ابن سعيد أن (أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك فيما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها ..)(٤٥) .

والنظافة الشخصية ترتبط بالنواحى التالية : الجسد ، الملبس ، والمنزل . فيما يتعلق بالجسد ونظافته وطهارته نذكر أن الأندلسيين عنوا عناية بالغة بنظافة أجسادهم ، فكانت ظاهرة الاغتسال والاستحمام من السلوكيات الاجتماعية التى اهتموا بها اهتماما بالغا . ولذلك أكثروا من بناء الحمامات العامة حرصا على نظافة أبدانهم وطهارة أجسامهم . ولم يكن ارتياد الحمامات وقفا على الرجال بل وجدت حمامات خاصة بالنساء أيضا .

وكان الأطباء يوصون بارتياد الحمام والمحافظة على الاستحمام ، لما فى ذلك من فوائد صحية واجتماعية ، فهو (ينقى الجلد ، ويزيل الوسخ ، ويطهر البدن ، ويفتح مسامه ، ويحلل الأبخرة ، ويرطب الأبدان وينميها ويزيد فى حرها الغريزى ويفرح النفس ويذهب الحزن)(٤٦) .

يذكر ابن زهر أن الاستحمام فى كل عشرة أيام من غير أن يكون الانسان متخما بالطعام فيه ما يحفظ الصحة . واشار الى أن من القواعد التى يفضل اتباعها استخدام الماء العذب ، وأن يكون معتدلا بين الحرارة والبرودة ، وأن يكون المستحم صائما . وأن فيه ما يعين على دوام الصحة والعافية(٤٧) .

وتجدر الاشارة الى أن الطبقة الثرية فى المجتمع الأندلسى كانت لها حماماتها الخاصة الملحقة بمنازلها ودورها ، وكانوا يمارسون بها عادة الاستحمام بصورة مترفة وباذخة . أما الطبقات الأخرى التى لا تستطيع تأمين ذلك فى منازلها فكان عليها أن تقصد الحمامات العامة التى كانت منتشرة بوفرة كبيرة فى المدن الأندلسية . من ذلك أن مدينة قرطبة وحدها كان بها مايزيد على ٧٠٠ حمام(٤٨) وقد عد ذلك من مفاخر قرطبة ودلائل رقيها وتمدنها . ومن الطريف أن الحمامات لم تكن منتشرة فقط فى المدن بل امتدت هذه الظاهرة الى القرى والأرياف ، ومازالت منطقة البشرات (جنوب غرناطة) والمناطق المحيطة بغرناطة بها آثار واضحة لحمامات كان يرتادها الناس ويستحمون فيها . وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على المدى الذى وصلت اليه عناية الأندلسيين

بالنظافة وبالتالى تميزهم بذلك القدر من السلوكيات والتقاليد الاجتماعية الراقيـة .

وكان الحمام العام يتالف من ممر يؤدى الى غرفة كبيرة بها خزانات خشبية تعلق بها الملابس وتسمى هذه الغرفة «المشلح»(٤٩) ومنها يدخل المستحم الى غرفة المياه الباردة والى جـــوارها سرير خشبى مستطيل يضطجع عليه من يرغب فى التدليك ، ثم ينتقل الى الغـــرفة الساخنة حيث يغسل جسمه بالمياه الساخنة بواسطة مغارف خشبية . وأخيرا هناك موضع للمزينين ينتهى اليه المستحم ليكمل نظافته وزينته . وتصل المياه الحارة الى الحمام عن طريق انابيب تنقله من صهريج تسخن فيه المياه بالحطب ويقع خارج الحمام ، وكان الضوء ينفذ الى الداخل بواسطة نوافذ زجاجية مثبتة فى السقف(٥٠) .

ولما كانت الحمامات من المرافق الصحية والاجتماعية ذات التاثير الكبير على حياة الفرد والمجتمع ، فقد كان من الضرورى متابعة نشاطها وحالها من حيث الالتزام بقواعد النظافة وسلامتها من الأقذار . من ذلك أن العاملين فى الحمامات ألزموا بنظافة ملابسهم وأدوات النظافة التى يستخدمونها فى تنظيف الأبدان وحك الأقدام، فكانوا يضعونها فى الملح والماء كل ليل لئلا يصيبها العفن والتلوث والروائح الكريهة ، كما وجب عليهم أن يغسلوا ملابس العمل كل ليلة بالصابون(٥١) .

اما عن المياه المستخدمة داخل الحمـــام فكان يراعى فى صهاريج الحمامات أن تكون مغطاة باحكام لئلا تتسرب اليها النجاسات وما يلوثها. وكان من الآداب المرعية أن لايمارس المشتغلون فى الحمامات عملهم - كالحكاك والطياب والحجام - الا بعـــد أن يرتدى كـــل منهم التبان والسروال(٥٢) .

وهناك قواعد وآداب استحسن بعض الأطباء الالتزام بها لبلوغ اقصى درجات النفع والفائدة من دخول الحمام ، اذ يشير الطبيب الأندلسى ابن خلصون الى أن دخول الحمام يكون على خلاء من المعدة ، وفور القوة ، ونشاط النفس ، واعتدال الفصل ، واعتدال النهار ، واذا دخل

المستحم فلا يتجرد من ثيابه الا فى البيت الأول حيث يصب على جسمه من الماء الفاتر من غير أن يبل رأسه ، ثم يدخل الى البيت الثانى فيصب على رأسه ثلاث غرفات من الماء الحار ويتجنب الماء البارد ، ثم يغسل رأسه فى البيت الثالث بالماء الحار ، ويصب فيه على بدنه الماء الحار ايضا ، ومنه ينتقل الى البيت الأوسط للاحتكاك وازالة الوسخ عن البدن وتدليكه بعد ذلك ، ثم يعم البدن بالماء الفاتر حتى ينظف جسمه ، ويختتم ذلك بالاغتسال بالماء البارد لأن فى ذلك ما يعدل حرارته ويرطب البدن. ويلتزم مراعاة الحال من حيث قدرة الجسم على احتمال ذلك وعـــدم اصابته بالبرد والرعدة ، وبالتالى الحميات . فاذا فرغ من ذلك يعمد الى تنشيف جسمه بقطعة من الكتان . ويجفف شعره ثم يلبس ثيابه ، ويغطى رأسه ، ويسد أنفه بيده ليحميه من الـــبرد والريح ، ثم يجلس خارج الحمام ساعة حتى تستقر حرارة الجسم ويعود الى طبيعته(٥٣) .

ولما كانت عادة الاستحمام والمحافظة على نظافة الأبدان وطهارتها من المظاهر الحضارية الرفيعة التى اتسم بها المجتمع الاسلامى بوجه عام، والأندلسى بوجه خاص فقد كان ذلك السلوك من الآداب الأصيلة القوية الجذور فى حياة الأندلسيين ، فحافظوا عليه رغم ما حل بهم من ويلات الحروب واستيلاء النصارى على بلادهم ، يشير المؤرخ امريكو كاسترو الى عظم التاثير الحضارى للمسلمين فى حياة الأسبان النصارى وخاصة فى المناطق التى سيطر عليها النصارى فى شمال اسبانيا ، اذ أن قرى صغيرة فى قشتاله لا تعرف حمام الماء الساخن فى عصرنا الحاضر ، كانت تتمتع به سواء فى عصر السيادة الاســلامية أو عصر المدجنين(٥٤) ، ويتضح هذا فى لوائح البلديات . وفى الحمام كانت النســاء تجـــدن مبتغاهن من حيث النظافة والتجمل بعيدا عن تلويث المنابع والأنهار أو حتى فى المنازل(٥٥) ، ومن بين تلك القـــرى ذوريتـا Zorita وبريهويجا Brihuega فى وادى الحجارة ، واوساجرى Usager فى بطليوس . وقد نصت لوائح بلديات المـــدن أنه ينبغى على صاحب الحمام أن يقدم لمرتادى الحمام الماء الساخن والصابون والمناشف(٥٦).

كذلك نجد اشارات تاريخيـــة الى أنه كـــان فى ميووقه ومدريد

حمامات ترددها النساء المدجنات . وقد شهد الحي الاسلامي في مدينة ترسونا في الشمال الشرقي من الأندلس بناء أحد الحمامات، سنة ٧٧٦هـ - ١٣٧٥م ، وكان يقصده الناس جميعهم الا انه حظر على النصارى واليهود دخوله في الأعياد الاسلامية وأيام الجمع(٥٧) .

وفي بعض الحمامات خصصت أيام محددة لكل من الرجال والنساء، حتى لا يقع الاختلاط المؤدي الى الفتنة والفساد . واستمر وجود الحمامات في الأندلس حتى خروج المسلمين منها نهائيا . وتشير الرواية التاريخية الى انه بعد اخماد ثورة الموريسكيين على السلطات الاسبانية سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م تقرر طردهم ومحو كل ما يتعلق بحياتهم الاجتماعية وعاداتهم ، فاغلقت حماماتهم وحرم عليهم ارتيادها . وكان لذلك تأثير مؤلم على الموريسكيين حيث قال احدهم ويدعى فرنسيسكو مولاي Francisco Munez Muley : (ان الحمامات اقيمت لتنظيف الأجسام ، والقول بأنه يجتمع فيها الرجال والنساء افتراء لا يصدقه العقل والحمامات موجودة في كل مكان ومنتشرة في سائر الاقاليم . واذا كان أبناء مملكة غرناطة قد تمسكوا بالحمامات ، فان ذلك بسبب حرصهم على على أن يكونوا أطهار الأبدان ، فاذا حرم عليهم الاستحمام في الحمامات وفي الينابيع والأنهار والبيوت فالى اين يذهبون للغسل والاستحمام ؟)(٥٨) .

وبنهاية القرن السادس عشر تم هدم كل الحمامات في انحاء اسبانيا ، ورفض الأسبان الأوربيون عادة الاستحمام لأنها عادة ارتبطت في نظرهم بالحياة الاسلامية في الأندلس ، واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الحمامات بعد ذلك من جديد في انجلترا(٥٩) .

ومن الطريف أن نجد الاسبان يتأثرون أيضا بظاهرة حضارية اسلامية،وهي : غسل وتنظيف الميت قبل دفنه ، فتشير الرواية التاريخية حول ملحمة فرنان جونثالث التي يعود تاريخها الى سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م الى أن الكونت فرنان جونثالث قام بغسل عدوه كونت دي تولوز قبل أن يلفه في الأكفان ، والى هذا أشارت المدونة العامة لألفونسو الحكيم(٦٠) .

وقد نادى الأطباء المسلمون بالأندلس بضرورة مراعـــاة النظافة الشخصية والعناية بنظافة الأبدان وطهاراتها للوقاية من بعض الأمراض. من ذلك ما يذكره الطبيب ابن زهر عن حالات مرضية تلحق بالجلد او الشعر أو الأسنان، وهى من الأعضاء والأطراف التى تمس المظهر الجمالى للانسان،فاشار الى تولد القشرة فى جلدة الرأس ووصف لها موادا طبية لغسل الراس ، ومنها : خل العنب ، والخل مع العســـل . كما نبه الى اهمية القطران فى ازالة القشرة ، ووصف علاجات لمكافحة القمل المتولد من الوسخ اللاصق بالجلد ، وذلك بغسله بالخل والقطـــران ، وأوصى بالاستحمام وغسل الراس وعدم اهمال النظافة فى ذلك(٦١) .

كذلك ذكر الادريسى عند حديثه عن مدينة طليطلة أنه تقع بالقرب منها قرية تسمى بمغام ، وأن بها تراب يستعمله الناس فى تنظيف وغسل شعر الرأس(٦٢) .

ولما تعرض ابن زهر للأسنان وما يعتريها من ضعف وتشوه ، وصف علاجا لتقويتها وتبييضها وجليها ، كما نصح بتجنب تناول ما هو شديد الحموضة أو شديد السخونة أو شديد البرودة(٦٣) .

وكان الأندلسيون يولون اهتماما كبيرا بنظافة أيديهم وأفواههم عقب تناول الطعام والشراب . وقد احتفظ لنا أحد أعلام الأندلسيين وهو ابن رزين التجيبى بعدد من الوصفات لتنظيف الأيدى والأفواه واللثة والأسنان واسماها (الغاسولات) وهذه عناوين بعضها :

١ - اشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب روائح الأطعمة الدسمة .

٢ - أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف .

٣ - أشنان يطيب البدن والنكهة ويشد اللثة وهو ملوكى .

٤ - غاسول ينقى الأيدى ويذهب الروائح الدسمة(٦٤) .

★ ★ ★

فاذا انتقلنا الى نظافة اللباس عند الأندلسيين لمسنا مدى حرصهم وعنايتهم بهذا الجانب من جوانب الشخصية الأندلسية . وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن سعيد الأندلسى من أن أهل الأندلس اشـــد الناس اعتنـــاء بمظهرهم ونظافة ما يلبسون ويفرشون ، وأن أحدهم ربما لم يكن معه الا قوت يومه فيحتفظ به ويطوى يومه صائما ليشترى بما يملك صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فى حال تزدريه الأعين .

وكانت هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى اشـــتهر بها المجتمع الأندلسى ، فيذكر الادريسى أن أهل قرطبة : (اليهم الانتهاء فى السناء والبهاء .. ذكروا بصحة المذهـــب وطيب المكسب وحسن الزى فى الملابس والمراكب وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ..)(٦٥) .

ولئن كان هذا الوصف قد ورد فى أهـــل قرطبة فان الحضـــارة الاسلامية الراقية فى الأندلس لم تكن وقفا على مدينة قرطبة وانما كانت شاملة لما سواها من المدن الأندلسية الأخرى .

فعلى سبيل المثال يقول الأدريسى عن مدينة بسطة : (ومدينـــة بسطة مدينة متوسطة المقدار ، حسنة الوضع ، عامرة اهلة ، لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة ، وديار حسنة البناء رائقة المعنى ..)(٦٦) .

ولما تحدث ابن الخطيب فى مقدمة كتابه الاحاطة عن اهالى مملكة غرناطة وصفهم بصلاح العقيدة ، وجميل السيرة وحسن الصورة ، ثم ذكر أزياءهم وملابسهم وعنايتهم بها حتى ليبدون فى أيام الجمع (كانهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة)(٦٧) .

★ ★ ★

وعنى الأندلسيون بنظافة منازلهم ودورهم ، اذ من الطبيعى بعدما أشرنا اليه سابقا ان يكون للمنزل أو الدار مكانتهما الاجتماعية اللائقة . ويمكن استخلاص بعض المفاهيم التى تؤكد جمال المظهـــر المدنى ورقى السلوك الاجتماعى ، من خلال تتبع تلك النصوص التاريخية التى كتبها

الرحالة الجغرافيون عن المدينة الأندلسية ووصفها ببديع البنيان ، وحسن التنظيم ، ووصف أهلها بجميل السيرة ، ومنتهى البهاء والسناء ، وطيب العوائد والأخلاق(٦٨) .

ومن الطريف أن نجد المحتسب لا يقتصر دوره فى رعاية الجانب الجمالى على الأسواق والشوارع والساحات، بل كان له اهتمامه الواضح أيضا بنظافة المنازل ومكافحة الأقذار فى الدور ، فكان يحث الناس على العناية بنظافة دورهم وصيانتها من تراكم الأوساخ والنفايات(٦٩) .

وكان يفضل بناء المنازل فى المواقع العالية لئلا تصلها المياه ولا تتأثر بالندى ، ولكى يشرف قاطنوها على ما تحتها من الأراضى الزراعية والبساتين . ويفضل أن أمكن أن تبنى الدار على شاطىء نهر ، مستقبلة رياح الشمال والشرق حتى تشرق الشمس من أبوابها ونوافذها ، لأن الرياح الشرقية أصح من سواها ، ودخول الشمس الى المنزل تدفع عن ساكنيه الأسقام والأدواء . ويوصى بتوسيعها ورفع سقوفها(٧٠) .

ونبه ابن زهر الى أهمية اختيار موقع السكن من حيث نظافته وصحة هوائه ، فمن الخطر السكن بجوار المقابر ، اذ قد يسبب ذلك تلوث الهواء المحيط بمجاورة جثث الموتى المتحللة ، كما أن من أسباب تلوث الهواء وجود المستنقعات والمياة الراكدة(٧١) .

ونلمس عند ابن زهر ملاحظات وتوجيهات حضارية راقية حول المسكن وموقعه ونظافته وعلاقة ذلك بصحة الانسان ، فهو عند الحديث عن الأورام الطاعونية يشدد على أهمية اصلاح المسكن ونظافته الى جانب عوامل أخرى . وكان يوصى بان يفرش المنزل بالريحان ، ويبخر أحيانا بالقطران ، وفى أحيان أخرى يرش المنزل بالخل المركز . ونبه فى هذه الحال الى أن الغرف العلوية خير من البيوت السفلية(٧٢) .

ومن المؤسف أن التاريخ لم يحتفظ لنا بنصوص تاريخية وافرة عن البيت الأندلسى وعادات أهله من حيث النظافة والأناقة . ويمكن أن نشير الى بعض ما كتبه بعض الرحالة الأجانب، الذين زاروا مملكة غرناطة

فى أواخر الحكم الاســـــلامى وما ســـجلوه من مشـــــاهدات المجتمع الأندلسى ، ففى عام٨١٧هـ/١٤١٤م زار غرناطة الرحالة الألمانى خيرونيمو مونزر ، وقد ادهشته نظافة الغرناطيين الشـــديدة ، ويذكر أن طرقات المدينة كانت ضيقة ، وان منازل المسلمين كانت صغيرة الحجم وتضم عددا من الغرف . ويضيف أن المنازل كانت بسيطة المظهر من الخارج ، ولكنها تتميز بجمالها ونظافتها من الداخل(٧٣) . واذا كانت النصوص التاريخية لم تعن بأوصاف البيت الأندلسى من الداخل ، فان البقايا الاثرية مازالت قائمة تشهد على جمال هذه البيوت وحسن تنسيقها .

وكانت ظاهرة النظافة وما عرف عن المجتمع الأندلسى من تمسك بها وحرص على الالتزام بها فى الحياة الخاصة والعـــامة ، مثار اعجاب الغربيين . ويشير ستانلى لينبـــول الى ذلك بقـــوله : (فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عنالنظافة ويعدونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذراتهم ، حتى أن راهبة دونت بعض مذكراتها فى صلف وعجب انها الى ســــن الستين لم يمس المـــاء منها الا اناملها عندما كنت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس ، نقول بينما كانت القذارة من مميزات القداسة ، وكان المسلمون شديدى الحرص على النظافة ولا يجرؤون على مباشرة عبـــادتهم الا اذا كانوا متطهرين . وحينما عادت أسبانيا الى الحكم المسيحى أمر فيليب زوج مارى ملكة انجلترا بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين(٧٤) .

ومن خلال هذا الوصف وما يتعلق بنظافة الانسان المسلم ونزاهته بهـــــذه الصورة المتمدينة صارت البيئة الأندلســـية والمحيط الذى كان يعيش فيه الأندلسى مثالا لما كان ينبغى أن تكون عليه المجتمعات الأخرى. وها هو المؤرخ الأمريكى فكتور روبنسون يشير الى أن (أوربا كانت فى تلك العصور فى ظلام حالك فى الوقت الذى كانت قرطبة تضىء شوارعها وساحاتها المصابيح ، وكانت أوربا قذرة بينما كانت قرطبة تتباهى بانها تضم الف حمام ، وكانت أوربا غارقة فى الوحل تسودها الهوام والحشرات بينما كان الأندلسيون مثال النظافة والرقى الحضارى)(٧٥).

★ ★ ★

وأخيرا نختتم هذا البحث المتواضع بالاشارة الى عدد من الامثال السائرة والحكم المعبرة التى تداولتها السن العوام الاندلسيين حول أهمية النظافة وقيمتها كمظهر من مظاهر التمدن والسلوك الأخلاقى الجميل ، ونفورهم من كل ما يخالف ذلك من الوان القذارة واهمال العناية بنظافة الجسد وطهارة المنظر والسلوك العام لدى الانســـــان . ومن الامثال الاندلسية التى لها صلة بالبيت الأندلسى ما يذم عن صفات ربة المنـــزل وضرورة أن تكون رمزا للنظافة . فاذا كان أمـــرها يخالف ذلك فان التخلص منها هو العلاج الامثل .لذلك دعوا الى تطليق المرأة التى تمتخط فى قناعها أو تدخل أصبعها فى انفها ، فيقول المثل الشعبى : « اذا ريت المرا تمخط فى قنعها (خمارها) وتخـــرج المفتـــول باصبعها لا تبقى معها) (٧٦) .

ويقول المثل ايضا حـــول المرأة : (كـــل شىء يهون الا الغـــزل المعفون) (٧٧) .

ومثل آخر : (سمج ومقذور حر غير مشكور) (٧٨) .

ومن أمثالهم حول الطبخ واهمية مراعاة النظافة فيه أن هناك أنوانا منه لا يصلح طبخها الا فى قدور مخصوصة تراعى نظافتها وخلوها من الأقذار والملوثات يقول المثل : (قدرة الزفت ما يطابخ فيها معسل) (٧٩) .

كذلك بالغوا فى وصف أولائك الذين اهملوا النظافة فقالوا : (اقذر من ولد ناصر الطباخ ، الذى كان يقتل القمل على صلب المغرفة ، ويمسح المغرفة فى صلب الكلب) (٨٠) .

ولم يفت الاندلسيون فى أمثالهم اهمية نظافة الطـــريق والبيت وتنزيههما عن الأقذار ، فظاهرة البصق على الأرض من الأفعال المستقبحة والعادات المستقذرة . ويقول المثل : (بحل (بحال) ربى (حبر اليهود) فى شنوغ (معبد اليهود) يتحرك ويبزق) (٨١) .

ويقول المثل الآخر مستحسنا كنس المواضع وتنظيفها :

(كنس وجاس)(٨٢) .

وكانوا يبغضون انتشار الذباب والحشرات ويعدونها من المنغصات، فيقول المثل :

(ما كفى العيش المر الافيه الدبان) (وما كفى الزيت المر الا فيه الدبان)(٨٣) .

الهـــــوامش

(١) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ، ص ٤٣ (وتقع هذه الرسالة مع رسالتين أخريين فى الحسبة وهما رسالة أحمد بن عبد الرؤوف فى آداب الحســـبة والمحتسب ورسالة عمر بن عثمان الجرسيفى فى الحسبة فى كتاب وقـــد قام على نشرها ليفى بروفنسال تحت عنوان ثلاث رسائل اندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب سنة ١٩٥٥م ٠

(٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ٠ ص ٥٥١ وانظر أيضا ص ٥٤٣٠

(٣) ابن عبد الرؤوف ، رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٧ ٠

(٤) رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٨ ٠

(٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٤ ٠

(٦) ابن عبد الرؤوف ، ص ٤٤ و ص ٤٧ ٠

(٧) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٣ ــ السقطى ، ص ٤٩ ٠

(٨) القنليات : جمع قنلية ، وهو حيوان شبيه بالأرنب لحمه لذيذ وفراؤه مرغوب فيه للباس ، انظر المقرى ، نفح الطيب ، ج١/١٩٨ لحاشية (٤) ٠

(٩) ابن عبدون : ص ٤٣ ٠

(١٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ــ ٩٧ ٠ وانظر ابن عبدون ص ٤٥ والسقطى ص ٥٠ ٠

(١١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(١٢) مجصصة : أى مطلية بالجص (لسان العرب ، ج٧ مادة جصص) ٠

(١٣) فى آداب الحسبة ، ص ٥٠ ــ ٥١ ــ وانظر التجيبى : فضالة الخوان ص ٣١ ٠

(١٤) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ٠

(١٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٨ ٠

(١٦) فضالة الخوان ، ص ٣١ ٠

(١٧) التيسير : ص ٤٩٩ ٠

(١٨) ابن عبدون ــ القضاء والحسبة ، ص ٤٥ ــ السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٢ ٠ والقدور المرصصة أى : المطلية بالرصاص (لسان العرب ، مادة رصص)٠

(١٩) السقطى ، ص ٤٥ ٠

(٢٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ــ ٩١ ٠

(٢١) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ٠

(٢٢) ابن عبد الرؤوف ـ رسالة في اداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٢ ·

(٢٣) الحنتم ـ نوع من الطين تصنع منه الأواني المزججه من الداخل · وفي لسان العرب : مادة حنتم انه جرار خضر تضرب الى الحمرة ·

(٢٤) ابن عبدون ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ·

(٢٥) السقطي : اداب الحسبة ، ص ٥٣ ·

(٢٦) ابن عبدون ، ص ٤٢ ·

(*) السرب حفير تحت الأرض ، أو قناة جوفاء يدخل منها الماء الحائط (لسان العرب ـ مادة سرب) ·

(٢٧) ابن عبدون : القضاء والحسبة ، ص ٣٧ · ابن عبد الرؤوف : رسالة في اداب الحسبة ، ص ١١٠ ـ الجرسيفي : رسالة في الحسبة ، ص ١٢٢ ·

(٢٨) عبد الرؤوف ، ص ١١١ ·

(٢٩) ابن عبدون : ص ٣٨ ـ ابن عبد الرؤوف : ص ١١١ ـ يوسف شكري : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ١٠٢ ·

(٣٠) التيسير في المداوة والتدبير ، ص ١٤٠ ·

(٣١) الجرسيفي : رسالة في الحسبة ص ١٢٢ ـ ابن عبد الرؤوف : رسالة في اداب الحسبة ، ص ١١١ وانظر يوسف شكري ، غرناطة في ظل بني الأحمر ص١٠٢·

(٣٢) السقطي : اداب الحسبة ، ص ٨٣ ·

(٣٣) ابن عبد الرؤوف : في اداب الحسبة ، ص ٧٢ · انظر ص ١١١ ·

(٣٤) ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة ، ص ٢٢ ·

(٣٥) السقطي ، ص ٨٤ ·

(٣٦) ابن عبدون ، ص ٢٣ ·

(٣٧) ابن عبدون ، ص ٢٤ ·

(٣٨) ابن عبدون ، ص ٢٤ ·

(٣٩) ص ٣٠ ·

(٤٠) ابن عبدون ، ص ٢٢ · رسالة في القضاء والحسبة ، ص ٢٢ ·

(٤١) ابن عبدون ، ص ٢٦ ·

(٤٢) ابن عبد الرؤوف ، ص ١١٢ ·

(٤٣) السقطي ، ص ٨٤ ·

(٤٤) ابن عبدون ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ·

(*) ابن سعيد علي بن موسى مؤرخ واديب اندلسي له تاليف في تاريخ الأندلس كالمغرب في حلى المغرب والقدح المعلى ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ·

(٤٥) نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٣ ٠

(٤٦) ابن خلصون : حفظ الصحة ، المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية ، تأليف محمد العربى ج٢ ، ص ٢٠ ٠

(٤٧) التيسير ، ص ٩ ـ ١٠ ٠

(٤٨) ابن غالب : فرحة الانفس ، جزء من الكتاب المفقـــود ٠ تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج١ ، الجزء الأول ، ص ٢٩٦ ٠

(٤٩) وردت فى دائرة المعارف الاسلامية ، المســـلغ والصحيح ما ذكـــرناه والمشلح موضع خلع الثياب فى الحمام من التشليح وهو خلع الثياب ٠ وانظر تقسيمات الحمام فى دائرة المعارف الاسلامية مادة : حمام ٠

(٥٠) يوسف شكرى : غرناطة ، ص ١٣٢ ٠

(٥١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(٥٢) ابن عبدون : رسالة القضاء والحسبة ، ص ٤٨ ٠

(٥٣) حفظ الصحة : المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطـــب والأطباء ، ج٢ ، ص ٢٠ ـ ٢١ ٠

(٥٤) المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا فى ظل الحكم النصرانى بعد سقوط المدن الأندلسية فى أيدى الأسبان ٠

(٥٥) حضارة الاسلام فى اسبانيا ، ترجمة سليمان العطار ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ٠

(٥٦) لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٢ ٠ نقلا عن النســـخة الأسبانية من كتاب Americo Castro : Espana en su historia. P83.91

(٥٧) يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى نصر ، ص ١٣٣ ٠

(٥٨) لطفى عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٩٢ ـ ٩٣ ٠

(٥٩) امريكو كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠ يوسف شكرى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٦٠) امريكو كاسترو ، حضارة الاسلام فى أسبانيا ص ٤٨ ٠ وانظر لطفى عبد البديع ٠ الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ٠

(٦١) ابن زهر ، التيسير ، ص ٢٢ وما بعدها ٠

(٦٢) نزهة المشتاق ، ج٢ ، ص ٥٥٢ ٠

(٦٣) التيسير ، ص ٢٤ ـ ٤٥ وفيها انظر وصفا كاملا العلاجات والوصفات الطبية لمعالجة الاسنان وتنظيفها ٠

(٦٤) فضالة الخوان فى طيبات الطعام والالوان ، ص ٢٧٧ وما بعدها وفيها تفصيل كل صفة وما تتكون منه من مواد عطارية وأعشاب ٠

(٦٥) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ ·

(٦٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٨ وانظر ايضا الاشارة الى مدينة شاب ، ص ٥٤٣ ·

(٦٧) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج١ ، ص ١٣٥ ·

(٦٨) انظر الادريسى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٧٥ ، ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ـ الحميرى · الروض المعطار ، ص ٤٥٦ وما بعدها ، ابن الشباط : قطعة فى وصف الاندلس من كتاب صلة السمط ، تحقيق احمد مختار العبادى . ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ـ ١٥٠ ـ ابن سعيد : المرب ، ج١ ، ص ٢٩٣ ·

(٦٩) انظر ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٧ ·

(٧٠) ابن حجاج ، المقنع فى الفلاحة ، ص ٩ ·

(٧١) التيسير ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ ·

(٧٢) التيسير ، ص ٤٢١ · وتجد فى كتاب المقنع لابن حجاج وصف مواد لكافحة الفئران والبراغيث والنمل والذباب والبق والبعوض وكثير من الحشرات ·

(٧٣) أحمد الطوخى : غرناطة الاسلامية في نظر الرحالة الاجانب مقال ، بمجلة أوراق (العدد الرابع ، ١٩٨١م ، ص ١٤٣) ·

(٧٤) قصة العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ·

(٧٥) محمد حامد منصور ، ذكريات ومشاهدات اندلسية ، (مقال منشور بمجلة الفيصل ، العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ ، ص ٤٩ ·

(٧٦) الزجالى (أمثال العوام) · تحقيق محمد بن شريفه · ق٢ ، ص ١٣ ·

(٧٧) المصدر والقسم نفسه ، ص ٢٥٥ ، ص ٤٢٦ ·

(٧٨) المصدر نفسه والقسم ، ص ٤٢٦ ·

(٧٩) ق٢ ، ص ٤١٨ ·

(٨٠) ق٢ ،ص ١١٥ ·

(٨١) ق٢ ، ص ١٤٤ ·

(٨٢) ق٢ ، ص ٢٦٨ ·

(٨٣) ق٢ ، ص ٣٤٦ ·

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصـادر :

— الادريسى ، محمد بن محمد (ق٦هـ)
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د٠ت) ٠

— التجيبى ، على بن محمد (ق٧هـ)
فضالة الخوان فى طيبات الطعام والالوان ، تحقيق محمـــــد بن شقرون دار المغرب الاسلامى ، الرباط ، ط الأولى ١٩٨٤م ٠

— الجرسيقى عمر بن عثمان (ق٦هـ)
رسالة فى الحسبة ، تحقيق ليفى بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٥٥م ٠

— ابن حجاج ، أحمد بن محمد (ق ٥هـ)
المقنع فى الفلاحة ، تحقيق صلاح جرار ، جاسر أبو صـــفية ، مجمع اللغة العربية الاردنى ، ١٤٠٢هـ ٠

— الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت حوالى ٧١٠هـ)
الروض المعطار ذى حبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ، ط الثانية ١٩٨٠م ٠

— ابن الخطيب ، لسان الدين محمد (ت ٧٧٦هـ)
الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ط الأولى ١٣٩٤هـ ٠

— ابن خلصون ، محمد بن يوسف (ق ٧ هـ)
فصول من المقالة الثالثة من كتابه الأغذية وحفظ الصحة ، منشورة فى كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية لمحمـــد العربى ، ج٢ ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، ط الأولى ١٩٨٨م ٠

- الزجالى . عبيد الله بن أحمد (ت ٦٩٤هـ)
أمثال العوام . دراسة محمد بن شريفة . مطبعة محمد الخامس . فاس ١٣٩١هـ .

- ابن زهر . عبد الملك بن أبى العلاء (ت ٥٥٧ هـ)
التيسير فى المداواة والتدبير . تحقيق ميشيل الخورى، . دار الفكر . دمشق ط الأولى ١٤٠٣هـ .

- ابن سعيد . على بن موسى (ت ٦٨٥هـ)
المغرب، فى حلى المغرب، . تحقيق شوقى ضيف . دار المعارف القاهرة ط الثالثة .

- السقطى . محمد بن أبى محمد (ق ٥هـ)
فى آداب الحسبة . تحقيق د. حسن الزين . مؤسسة دار الفكر الحديث . بيروت ١٤٠٧هـ .

- ابن عبد الرؤوف . أحمد بن عبد الله (ق ٥هـ)
رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفى بروفنسال مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

- ابن عبدون . محمد بن أحمد (ق ٥هـ)
رسالة فى القضاء والحسبة . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

- ابن غالب . محمد بن أيوب (ق ٦هـ)
فرحة الأنفس . تحقيق لطفى عبد البديع . مجلة معهد المخطوطات العربية . ج١ الجزء الأول (٢٧٢ - ٣١٠) .

ثانيا : المراجع :

- امريكو كاسترو : حضارة الاسلام فى اسبانيا . ترجمة د. سليمان العطار ، دار الثقافة . القاهرة ١٩٨٣م .

- ستانلى لينبول . قصة العرب فى اسبانيا . ترجمة على الجارم دار المعارف . مصر .
- لطفى عبد البديع . الاسلام فى اسبانيا . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ، ط ١٩٦٩م .
- يوسف شكرى . غرناطة فى ظل بنى الأحمر . المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ، ط الأولى .

ثالثا : المقـــالات :

- أحمد الطوخى . غرناطة الاسلامية فى نظـــر الرحالة الأجانـــب (مقالة منشورة بمجلة أوراق . المعهد الاسبانى العربى للثقافة) .
- محمد حامد منصور . ذكريات ومشاهدات اندلسية (مقالة منشورة بمجلة الفيصل العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ) .
- دائرة المعارف الاسلامية . ترجمة أحمد الشنتناوى وآخرون . دار الفكر ، ١٩٣٣م .

آل الجنابى بين الفاطميين والعباسيين
فى
القرنين الثالث والرابع الهجرة

د. يمنى رضـــوان(*)

دعوة الباطنية وآل الجنابى : ـ

آل الجنابى طائفة من الباطنية(=) . ومن المعـــروف ان الدعوة الباطنية قام بتاسيسها عدة اشخاص منهم ميمون بن ديصان(×) المعروف بالقداح ، وقد ادعى أنه من نسل عقيل بن أبى طالب . وعندما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض(١) والحلولية(٢) ادعى انه من ابناء محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، فاستجاب له كثير من الناس(٣) .

وقد ولى عبد الله بن ميمون القداح زعامة الدعوة بعد وفاة والده ، وعندما علم العباسيون بنشاطه أمروا بالقبض عليه ففر هو وزميل آخر يدعى الحسين الأهوازى الى سلمية(٤) واتخذاها دار هجرة ومركـزا رئيسيا لهم يرســـلون منها الدعاة لنشر دعوتهم فى أنحـاء العـــالم الاسلامى(٥) . وبعد وفاة عبد الله بن ميمون ولى ابنه احمـــد زعامة الدعوة وقام بارســـال الداعى الحســـين الأهـــوازى عام ٢٦٤هـ (٨٧٧م) الى العراق حيث التقى بحمدان بن الاشعث(٦) قرمط(٧) ـ الذى تنسب اليه القرامطة ويعتبر مؤسس الدعـــوة الاســـماعيلية بين القرامطة(٨) ـ وافضى اليه بأسرار الدعوة بعد أن أخذ عليه العهـــد ، ـ والعهد هو القسم ـ بان يجعل للحسين الاهوازى وللامام على نفسه عهد الله وميثاقه بأن لا يخرج سر الامام الذى علمه . ولا يفشى سر الحســين الأهوازى(٩) . وقد ترك الحسين الأهوازى أمر الدعوة فى سواد العراق

(*) مدرس التاريخ الاسلامى ـ كلية التربية ـ جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم .

الى حمدان قرمط ، الذى تمكن من بث دعاته فى السواد ليأخذ على الناس العهد ، فانتشرت الدعوة الاسماعيليةبفضله انتشارا كبيرا(١٠) .

وكان من دعاة حمدان صهره عبدان(١١) ، وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر(١٢) وممن استجاب اليه فى دعوته أبو سعيد(١٣) الجنابى(١٤) الذى أسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين(١٥) وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال أى شمال غرب بلاد العراق وبادية السماوة(١٦) وبعض بلاد الشام(١٧) .

وعندما تمكن حمدان من احكام السيطرة على اتباعه حلل لهم ترك الفرائض،مؤكدا أنهم غير مطالبين بالصوم والصلاة وغير ذلك من أركان الدين،وان أموال ودماء المخالفين لهم أصبحت مباحة لهم ؛ ومعرفة صاحب الحق ـ الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الذى يدعو اليه ـ تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى . وهذا الامام لم يمت ، وهو المهدى المنتظر الذى سوف يظهر فى آخر الزمان(١٨) .

وكان حمدان بن الأشعث قرمط يراسل دعاة الفاطميين بسلمية.ولكنه لاحظ تغييرا فى أسلوب الرسائل التى كان يرسلها اليه رئيس الدعاة فى سلمية.وعندما أرسل عبدان ليستكشف له الأمر،وجد أن الشخص الذىكانوا يراسلونه وهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح قد توفى وخلفه ابنه الحسين ، فسأل عبدان الحسين عن الامام الذى يدعو اليه ، فسأله الحسين بتعجب ومن هو الامام ؟ فقال عبدان أنه محمد بن اسماعيل(١٩) بن جعفر الذى دعا له أحمد بن عبد الله وكان حجته ، فانكر الحسين ذلك وقال (ان الامام كان والدى وانا الآن أحل محله) .

استنكر حمدان أن يتولى الحجة رتبة الامام ، وبالأصح ان يتولى الامامة شخص لا يمت الى العلويين بصلة . ولذلك أمر حمدان دعاته بايقاف الدعوة فى المناطق التابعة له ، لكنه لم يستطع ايقافها فى الاماكن الاخرى ، فقد تسربت الدعوة وامتدت الى سائر الأقطار(٢٠) .

وسرعان ما اختفى حمدان قرمط وقتل عبدان لانتقاضهما على

رياسة الدعوة وعلى ابناء القداح(٢١) . وكان لانفصال حمدان عن الدعوة عدة نتائج منها انقطاع العلاقات بين دعاة الفاطميين فى الشام - سلمية - ، والقرامطة ، بعد أن كانت الدعوتان متفقتين(٢٢) ، كما ان دعـــــوة القرامطة خمدت فى العراق وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه بن مهـــرويه الدندانى ، ونحو الجنوب على يد أبى ســـعيد الجنابى(٢٣) .

تاسيس دولة آل الجنابى فى بلاد البحرين :

وكان أن لاقت الدعوة الاسماعيلية على يد حمدان بن الأشعث - الملقب بلقب قرمط - وصهره عبدان الكثير من النجاح واستجاب لها الكثير من الناس منهم أبو سعيد الجنابى الذى أسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين .

وكان عبدان صهر حمدان قد أرسل أبا سعيد الجنابى - أحد دعاة القرامطة - الى جنوب ايران، فانتشرت تعاليمه بنجاح كبير ، لكنه سرعان ما اختفى عندما اكتشفت الشرطه أمره وأخذت تبحث عنه ، فاستدعاه حمدان قرمط ثم أرسله الى البحرين لينشر دعوته هناك ، فأحرز نجاحا كبيرا(٢٤) حتى تمكن من الاستيلاء على بلاد البحرين(٢٥) .

ومن الواضح أن المؤرخين لم يتفقوا على السنة التى ظهرت فيها دعوة القرامطة فى البحرين ، فالبعض يقول ان ذلك كان عـــام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) مثل ابن خلدون(٢٦) وآخرون(٢٧) يقولون ان ذلك كان عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) مثل الطبرى(٢٨) وابن الجوزى(٢٩) وابن الأثير(٣٠) وأبى المحاسن(٣١) .

ويبدو أن كلا الرأيين على صواب ، فالدعوة أخذت طـــريقها الى البحرين منذ عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) ، ثم ظهرت وانتشرت وأسس القرامطة دولة لهم بالبحرين منذ عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) .

وعندما قام أبو سعيد الجنابى بنشر دعوته فى بلاد البحرين(٣٢) ، دعا الى امام من أهل البيت ، قيل انه محمـــــد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل انه محمد بن الحنفية(٣٣) . وكان أبو سعيد يدعى انه

ينتسب الى العلويين ، كما أدعى أنه المهدى القائم بدين الله حتى يجذب الناس(٣٤) ، فتقبل الأهالى دعوته وخاصة الاعــراب الذين أسرعوا بالانضمام اليه والالتفاف حوله(٣٥) ، لانـــه خفف عنهم الفرائض ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحا ومســاء ، وأعفاهم من صـــوم رمضان . ولذا أحب البدو أبا سعيد واكبروه وعظموه ، وقالوا انه الامام المنتظر بعينه(٣٦) .

ومما هو جدير بالذكر ان انضمام الاعراب الى ابى سعيد لم يكن ناتجا عن ايمانهم بدعوته وانما سعيا وراء مصلحتهم الخاصة ، والسماح لهم بالسلب والنهب(٣٧) .

والواقع ان هناك ظروفا كثيرة وعوامل عديدة ساعدت على انتشار دعوة القرامطة فى الشرق الاسلامى،منها حالة الضعف التى اتصفت بها الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وازدياد نفـــوذ الاتراك واستبدادهم بامور الخلافة،وانشغال الخلفاء العباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالقضاء على الفتن والثورات التى أثارها الأتراك والتى اثارها صاحب الزنج (٢٥٥ ــ ٢٧٠هـ/٨٦٨ ــ ٨٨٣م(٣٨) . هــــذا الى أن المشرق الاسلامى تميز فى ذلك الدور بسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فازدادت الضرائب وتعسف الجباة فى جبايتها . يضاف الى ما سبق انتشار الفقر وزيادة ظلم الملاك للفلاحين ، وغير ذلك . وقد استفادت الحـركة القرامطية من تلك العوامل وجذبت اليها الساخطين والمتذمرين ووعدتهم باجابة مطالبهم ، فالتف حولها الكثير(٣٩) . ومما ساعد على انتشار دعوة القرامطة تقسيم الدعوة الى درجات مبسطة حتى يسهل فهمها وجذب الناس اليها(٤٠) ومن الواضح أن طبقة العامة لم تكن على درجة كافية من الوعى والثقافة تجعلها تستطيع ان تكتشف مـــدى صـــدق هـــده الدعوة(٤١) . هذا الى أن العناصر غير العربية ــ وبخاصة الفرس ــ كان هدفها القضاء على سيادة العرب ، اذ كان الموالى يحقدون على العرب وعلى ما يتمتعون به من سيادة دينية وسياسية ، لذلك شايعوا اية حركة ثورية للقضاء على نفوذهم(٤٢) . وهناك بعض اسر عربية فى منطقة السواد استجابت لدعوة القرامطة مثل أسرة آل سنبر التى اجابت الحسن بن بهرام الجنابى الى دعوته(٤٣) .

وهكذا اشتدت شوكة ابى سعيد بمن انضم اليه ، فاخذ يقتل أهالى القرى المجاورة الذين رفضوا تلبية دعوته ، واتجه نحو القطيف(٤٤) حيث قتل من بها من الاهالى . ولم يمتنع على أبى سعيد سوى هجر - عاصمة البحرين . وفى سنة ٢٨٧هـ (٩٠٠م) اغار قرامطة البحرين على هجر وحاصرها ابو سعيد لمدة سنتين(٤٥) . وخلال هذا الحصار اخذ القرامطة يقتربون من البصرة(٤٦) ، فارسل احمد بن محمد بن يحيى الواثقى- معاون البصرة وكور دجلة الى بغداد بامر القرامطة ، وشرع فى بناء سور حول البصرة للدفاع عنها(٤٧) . وعندما سمع الخليفة العباسى المعتضد(٤٨) (٢٧٩ : ٢٨٩هـ/٨٩٢ : ٩٠١م) بامر القرامطة ، اسرع بارسال جيش كبير من البصرة بقيادة العباس بن عمرو الغنوى - بعد ان ولاه على اليمامة والبحرين - والتقى العباس بن عمرو بابى سعيد الجنابى عام ٢٨٩هـ(٩٠١م)عند هجر، واستمر القتال بينهما طوال يومين انتهى بنجاح ابى سعيد فى هزيمة العباس واسره وقتل جميع من كان معه ، ثم حرقهم بالنار واستولى على ما معهم(٤٩) .

على ان ابا سعيد الجنابى اطلق سراح العباس بن عمرو الغنوى وارسل معه رسالة ليسلمها الى الخليفة المعتضد(٥٠) . وقد اختلف المؤرخون فى امر هذه الرسالة ، فالبعض(٥١) ذكر ان الرسالة لم تكن قد دون بها شىء . وعندما تسلم المعتضد الرسالة ولم يجد بها شيئا قال انه يعنى من هذه الرسالة اننى ارسلتك اليه على رأس جيش كبير العدد فردك بمفردك . والبعض(٥٢) الآخر ذكر ان ابا سعيد عندما أطلق سراح العباس اعطاه رسالة ليسلمها الى المعتضد يأمره فيها أن يكف عن ارسال الجيوش اليه ، كما أنه هدده بأنه سيتغلب على اى حملة يرسلها ويبيدها، مثلما فعل مع العباس بن عمرو.وهذا يدلنا على مدى ثقة أبى سعيد بنفسه وامتلاكه عناصر كثيرة من القوة مما هيأ له النجاح ، حتى امتلك مدينة هجر بعد أن منح أهلها الأمان(٥٣) وبذلك بسط نفوذه على البحرين والاحساء(٥٤) واليمامة(٥٥) .

سياسة آل الجنابى تجاه الفاطميين :

اتصفت العلاقة بين ابى سعيد وبين الخلافة الفاطمية الناشئة

بالفتور ؛ لأن أبا سعيد كان أشبه بملك مستقل وليس تابعا للدولة الفاطمية . ولذا لم يتقيد فى سياسته بآراء زعماء الدعوة الاسماعيلية ، وانما كان صريحا فى نشر آراء المذهب الاسماعيلى . ذلك أن المجتمع القرمطى كان مجتمعا اسماعيليا بحتا _ وذلك على عكس سياسة الفاطميين التى قامت باخفاء آراء هذا المذهب عن رعاياهم .

وكان آل الجنابى يخضعون فى دور الستر لرياسة الدعوة فى سلمية . غير أن هذا الخضوع فتر قليلا ، فعز على زعمائهم أن يسلبوا بعض نفوذهم نظرا لظهور الامام المستور فى شخص عبيد الله المهـــدى الفاطمى ٢٩٧ _ ٣٢٢ هـ (٩٠٩ _ ٩٣٣م) ، ولذلك لم يعد أبو سعيد الحسن يتحمس للخلافة الفاطمية تحمسه للامامة المستورة .

ولما ادرك الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ _ ٣٢٠هـ/٩٠٧ _ ٩٣٢م) ووزيره على بن عيسى فتور العلاقة بين أبى سعيد والفاطميين ، ومدى الخطر الذى ستتعرض له الخلافة العباسية اذا اتحد أبو سعيد الجنابى وعبيد الله الفاطمى ، عملا على جذب أبى سعيد اليهما . ومما يدل على التقارب بين أبى سعيد والعباسيين أنه لم يمد يد العون والمساعدة للفاطميين خلال حملتهم على مصر عام ٣٠١ _ ٣٠٢هـ/٩١٣ ، ٩١٤م مما ساعد على فشل تلك الحملة(٥٦) .

على أنه يبدو أن فتور العلاقة بين أبى سعيد والفاطميين كان من أهم العوامل التى ادت الى قتله . ويقال انه كان لدى أبى سعيد خادم صقلبى قام بقتل سيده بايعاز من الخليفة عبيد الله المهدى الذى شـعر بخروجه عن سياسته(٥٧) وكذلك يقال ان هذا الخادم لاحظ أن سيده لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، لذلك قام باغتياله فى الأحســاء عام ٣٠١هـ(٥٨) (٩١٣م) .

ولم يتوقف الفتور بين آل الجنابى والفاطميين بموت أبى سعيد الجنابى ، وانما استمرت الجفوة فى عهد ابنه أبى القاسم سعيد ٣٠١ _ ٣٠٥هـ (٩١٣ _ ٩١٧م) _ الذى آلت اليـه زعامة آل الجنابى . ذلك أن

أبا القاسم سار على سياسة أبيه فى التقرب الى العباسيين والتباعد عن الفاطميين.ومما يدل على ذلك الرسالة التى أرسلها أبو القاسم سعيد الى على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسى والتى أعلن فيهـــا ولاءه العباسيين وانه يدين بالعقائد السنية.هذا الىأن اباالقاسم سعيد ولىالحكم بالوراثة - فقد عهد اليه أبوه بذلك قبل وفاته - ولم يتم تعيينه من قبل الفاطميين . ولاشك فى أن هذا الاتجاه أثار الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى الذى كان يعمل لتكون له الزعامة المطلقة على جميع الاسماعيلية.

على أن القرامطة انقسموا الى فريقين ، فريق يناصر سعيد ،وهذا الفريق كان قليل العدد . وفريق ظل على ولائه للفاطميين ، وكان يضم ابا طاهر سليمان اخى أبى القاسم سعيد . وهؤلاء كانوا كثره(٥٩) ،لذلك عملوا على عزل أبى القاسم سعيد عن الزعامة ثم قتله وقام الفاطميون بتولية أخيه أبى طاهر سليمان عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) ، وارسل عبيد الله المهدى كتابا اليه بتوليته(٦٠) .

وهكذا نجح الخليفة الفاطمى فى ادخال آل الجنابى دائرة التبعية الدولة الفاطمية .

والواقع أن علاقة الفاطميين فى بلاد المغرب بآل الجنابى فى بلاد البحرين غدت طيبة منذ أن ولى أبو طاهر عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) وحتى نهاية حكمه عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) . ذلك أن ابا طاهر سليمان التزم بتبعيته الفاطميين ، وشايعهم فى سياستهم التى تهدف الى القضاء على الخلافة العباسية ، ولهذا تحالف مع عبيد الله المهدى فى سياسته العدائية ضد العباسيين ، واتفقا على اتباع سياسة موحدة من ثلاث شعب : -

الأمر الأول : هو أن يســـاعد أبو طاهر الفاطميين فى فتح مصر وذلك بان يشن هجوما عليها من الشرق ليلتقى بجيوش عبيد الله بها ، او أن يعمل الحيلة على الخلافة العباسية حتى لا تستطيع ارسال جيوشها لنجدة مصر .

الأمر الثانى : هو ان يشغل العباسيين بالهجـــوم عليهم فى بلاد العراق حتى يتمكن عبيد الله المهدى من تنظيم شئون المغرب ٠

الأمر الثالث : الاغارة على مكة وعلى قوافل الحجاج حتى يقال هذا من هيبة الخليفة العباسى كزعيم للمسلمين٠

وفيما يختص بالأمر الأول اتفق الفاطميون مع القرامطة عام ٣٠٧هـ (٩١٩م) على القيام بهجوم مزدوج على مصر بحيث تهاجمها جيوش القرامطة من الشرق وجيوش الفاطميين من الغرب ويلتقى الطرفان فى مصر ٠ ولكن هذه الخطة فشلت ، اذ أسرعت الخلافة العباسية بارسال الجيوش من بغداد الى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذى تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش أبى القاسم بن المهدى قبل ان تصل اليه جيوش أبى طاهر٠ وبذلك فشلت الحملة الفاطمية الثانية على مصر،ولكنها رغم فشلها اثبتت ولاء أبى طاهر للفاطميين كما انها القـــت الرعـــب فى قلوب أهالى البلاد(٦١) ٠

آل الجنابى والخلافة العباسية :

اما بالنسبة للأمر الثانى فنلاحظ ان أبا طاهر سليمان شن عـــدة حملات على الخلافة العباسية فى المشرق ، حتى يتمكن عبيد الله المهدى من بسط نفوذه على المغرب ، فقام بعدة غزوات متتالية للاستيلاء على البصرة ٠ من ذلك انه سار الى البصرة عام ٣٠٧هـ (٩١٩م) واستولى على خيراتها وقتل أهلها وخرب أراضيها(٦٢) ٠ وفى عام ٣١١هـ (٩٢٣م) تمكن من دخول البصرة وقتل اهلها وحاميتها وأميرها المســـمى سبكا المفلحى، واستولى على اموالها وضرب جامعها وأراضيها٠ومكث فيها سبعة عشر يوما ثم عاد الى بلده٠وتعتبر هذه من اشد الغزوات التى قام بها على البصـرة ٠

ومن ناحية أخرى فانه اعترض احدى قوافل الحجاج عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) أثناء عودتها من مكة،واستولى على ما مع الحجاج وأسر الكثير منهم وقتل الأسرى(٦٣) ٠

وعندما علم بقية الحجاج بما حدث للقافلة السابقة مكثوا فى فيد(٦٤) حتى نفدت مؤنتهم، فأسرعوا عائدين الى طريق الكوفة،وعندئذ اعترضهم القرامطة واستولوا على ما معهم . ثم عاد أبو طاهر ومن معه الى هجر،وترك الحجاج مشردين فى البادية فمات أكثرهم عطشا من شدة حرارة الشمس .

ولما أرسل الخليفة المقتدر الى أبى طاهر يطلب منه أن يطلق سراح أسرى الحجاج،اطلقهم وطلب منهم ابلاغ الخليفة برغبته فى تولى البصرة والاهواز.غير أن الخليفة رفض ، فخرج أبو طاهر من هجر واعترض الحجاج(٦٥) - الذين كان يتزعمهم جعفر بن ورقاء الشيبانى ، متولى اعمال الكوفة وطريق مكة . وكان يقوم بحمايتهم قادة الجيش - فقاتلهم واخذ يتبع القافلة حتى باب الكوفة وانهزم عساكر الخليفة ولم يتم الحج لأحد(٦٦) . وتمكن أبو طاهر بذلك من دخول الكوفة عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) وخربها وفعل بها أشد مما فعله بالبصرة،واستولى على أموالها وقتل أهلها ، وظل بها ستة أيام ثم عاد الى هجر(٦٧) .

وفى عام ٣١٥هـ (٩٢٧م) توجه أبو طاهر لمحاربة يوسف بن أبى الساج الذى كان بواسط حيث أرسله الخليفة العباسى لمحاربة القرمطى . ولكنه لم يستطع المسير الى بلدة أبى طاهر أمير القرامطة لكثرة جيوشه وصعوبة الأرض ، فلجأ الى الحيلة وارسل اليه وأظهر له المودة « وأطمعه فى اخذ بغداد » فسر بذلك ورحل ومعه أتباعه وحاشيته وجيشه فى كامل عدته واتجه نحو الكوفة . وكان يوسف بن أبى الساج قد اتجه بجيشه من واسط الى الكوفة،ولكن أبا طاهر سبقه اليها واستولى على الكوفة وعلى المؤن التى كانت بها والتى اعدت لابن أبى الساج(٦٨) . وكان أن نشب القتال بين أبى طاهر ويوسف بن أبى الساج حتى تمكن الأول من هزيمة القائد العباسى ابن أبى الساج وأسره(٦٩) .

وهكذا ازداد نفوذ أبى طاهر القرمطى حتى شرع فى مهاجمة بغداد فى عام ٣١٦هـ(٩٢٨م).وكاد يستولى عليها لولا مهارة مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسى الذى أرسل القوارب المليئة بالفاكهة المسمومة الى جند

القرامطة ، فكثرت الميتة فيهم(٧٠)٠ كذلك قطع القنطرة التى توصل الى هذه المدينة ليحول دون تحقيق هدفهم فى السيطرة على بغداد٠وبذلك انهزم جيش القرامطة بقيادة أبى طاهر وتكبد خسائر فادحة(٧١) ٠

وعلى الرغم من هزيمة أبى طاهر أمام بغداد،الا انه ظل يأمل فى السيطرة عليها والدعوة فيها للمهدى الفاطمى ٠

وفى عام ٣١٦هـ (٩٢٨م) تمكن أبو طاهر من بسط نفـــوذه على الرحبة(٧٢) بعد أن دارت بينه وبين أهلها عدة حروب ٠ وعندما عـلم بهذا أهل قرقيسياء(٧٣) أسرعوا بطلب الآمان منه،فمنحهم الآمان ٠وبعد ذلك اتجه نحو الرقه وبسط نفوذه عليها،ثم عاد الى بلاد البحرين وبنى بها دار هجرة(٧٤) ٠

وكان من نتائج انتصار القرامطة ان ظهـــرت اعـــداد ممن كانوا يدينون بمذهبهم ويخفون عقيدتهم ٠ وقد اجتمع هؤلاء فى سواد الكوفة واختاروا رئيسا لهم هو حريث بن مسعود ، كما اجتمعت مجموعة أخرى من القرامطة فى عين القمر(٧٥) وولوا شئونهم رجـــلا يعرف بعيسى وأخـــــذوا ينهبون ويقتلون ٠ وقد أرســـل الخليفة المقتـــدر العباسى هارون بن غريب الى حريث بن مسعود ، وصافيا البصرى الى عيسى بن موسى٠وتمكن كل من هارون وصافيا من هزيمة تلك الجموع وأسر كثير منهم ، وتم ارسالهم الى بغداد حيث قتل معظمهم(٧٦) ٠

وهكذا استمر أبو طاهر بن ابى سعيد الجنابى يغير على البلاد ويسلب ويقتل ويخرب ، حتى قوافل الحجاج لم تسلم من شره ٠ وكان يهدف من وراء هذا كله أن يؤكد اخلاصه للفاطميين وأن يشغل العباسيين بهذه الحروب حتى يتمكن عبيد الله المهدى من توطيد نفوذه فى المغرب٠

وفى عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) قام القرامطة بفعلة شنعاء ، اذ اقتحموا مكة وهى مكتظة بالحجاج ، واستطاع ابو طاهر سليمان (٧٧) أن ينفذ الى المسجد الحرام فى يوم الترويه(٧٨) حيث فعـــل افعالا لا يفعلها المشركون ولا اليهود بمكة(٧٩) ٠

ذلك انه قام بذبح الحجاج أثناء وجودهم بالمسجد الحرام واثناء طوافهم ، وخلال سيرهم فى طرقات مكة دون أن يراعى حرمة هذا البلد الامين ، كما قتل الكثير من عساكر المسلمين . وعندما خرج اليه ابن مجلب(٨٠) أمير مكة ومعه بعض الاشراف لمحاربته ، تمكن أبو طاهر من هزيمتهم وقتلهم جميعا ، وردم بئر زمزم بجثثهم ، كما دفن الباقين فى المسجد الحرام دون ان يكفنهم أو يصلى عليهم(٨١) وقيل ان الجنابى استهلك من النساء والغلمان اعدادا ضخمة ضاق بهم الفضاء وانه قتل بمكة الوفا(٨٢) ، بلغوا ثلاثة عشر الفا .

ويقال أن ابا طاهر جلس يوم التروية على باب الكعبة يشاهد الحجاج وهم يتساقطون صرعى حوله واخذ ينشد(٨٣) :

انا لله وبالله انا ... يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وبعد ذلك قام ومن معه بنهب أموال الحجاج وسلب متاع أهل مكة وقلع قبة بئر زمزم وقلع باب الكعبة وستائرها ، وأرسل رجلا من أصحابه ليصعد ويقلع المرزاب (الميزاب) ، ولكنه وقع على رأسه ومات . ثم قام بقلع كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه . ولم يكتف بهذا بل تجرأ واقتلع الحجر الأسود ، كما أقام الخطبة فى مكة للخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى بدلا من الخليفة العباسى المقتدر(٨٤) .

قيل انه أثناء قيامه بهذه الأفعال البشعة أخذ يردد : -

فلو كان هذا البيت لله ربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية ... مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وانا تركنا بين زمزم والصفا ... كتائب لا تبغى سوى ربها ربا
ولكن رب العرش جل جلاله ... فلم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا

وبعد أن ظل ابو طاهر(٨٥) فى مكة أحد عشر يوما ، عاد الى الأحساء ومعه الحجر الأسود والأسرى وما سلبه من مكة(٨٦) . وقد استمر الحجر الأسود فى حوزة القرامطة بالبحرين اثنتين وعشرين سنة

تقريبا من ٣١٧ - ٣٣٩هـ (٩٢٩ - ٩٥٠م)(٨٧) وعندما عاد أبو طاهر الى بلده ابتلاه الله بمرض الجدرى،وتقطع جسده وهو ينظر اليه(٨٨)٠

ومن الواضح أنه لم يأخذ الحجر الأسود من مكة سعيا وراء المال٠ ذلك أن بجكم والى بغداد - فى ايام الخليفة العباسى المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤هـ/٩٤٤ - ٩٤٥م) بذل للقرامطة خمسين الف دينار من الذهب لكى يردوا الحجر الأسود،لكنهم رفضوا(٨٩)٠ وانما كان الهدف طعن الخلافة العباسية واظهار ضعفها أمام المسلمين وعجزها عن حماية الحجاج ٠ هذا بالاضافة الى رغبة القرامطة فى جذب المسلمين للحج الى بلادهم بدلا من مكة(٩٠) ٠ ويتضح لنا ذلك من اخذهم الحجر الأسود الى بلادهم(٩٠) ٠ ولكن على الرغم من أن الحجر الأسود ظل فى البحرين اثنتين وعشرين سنة ٣١٧ - ٣٣٩هـ (٩٢٩ - ٩٥٠م)(٩١) الا أن أحدا من المسلمين(٩٢) لم يتردد على بلاد القرامطة لزيارته ٠

وكان من نتائج هذه الحادثة - ان اعتنق ضعاف العقيدة من أهالى العراق مذهب أبى طاهر بعد ان افتتنوا به(٩٣) ٠ هذا الى أن هذا الحادث أظهر فعلا مدى ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية الحجاج ورعاية المسلمين ، وهذا هو ما كان يستهدفه القرامطة والفاطميون(٩٤) ٠

وقد ذكر بعض المؤرخين ان عبيد الله المهدى عندما علم بما قام به أبو طاهر أسرع بارسال رسالة(٩٥) اليه يهدده ويوبخه لما فعله(٩٦) ٠ واذا صح ذلك فاننا نرى أن هدف الخليفة الفاطمى تبرئة نفسه من تلك الجريمة التى اهتز لها العالم الاسلامى بأسره ٠

ولم يكن هذا هو كل ما قام به أبو طاهر ، فبعد أن هاجم مكة وبسط نفوذه عليها وأقام الخطبة فيها لعبيد الله المهدى ، فرض على الحجاج اتاوة عام ٣٢٧هـ ٩٣٨م يدفعونها اليه مقابل عدم التعرض لهم٠ وكان الحج قد توقف منذ سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) فلم يحج احد من العراق - خوفا من القرامطة - الا بعد عشر سنين تقريبا عندما ارسل أبو على عمر بن يحيى العلوى الى أبى طاهر القرمطى وطلب منه ان لا يتعرض

الحجاج مقابل أن يعطيه عن كل حمل خمسة دنانير ، فوافق وأدى الناس فريضة الحج ذلك العام « وتعتبر هذه اول سنة أخـــذ فيه المكس من الحجاج »(٩٧) .

اضطراب العلاقة بين الفاطميين وآل الجنابى :

استمر ابو طاهر سليمان الجنابى على اخلاصـه للفاطميين حتى توفى عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) بمرض الجدرى كما سبق أن أشرنا . ولم يترك رغم كثرة ابنائه من يصلح للحكم،فقد كان سابور بن ابى طاهر اكبر ابنائه العشرة لا يزال طفلا لا يمكن الاعتماد عليه . لذلك قام الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/٩٣٣ - ٩٤٥م) بتعيين - أخى أبى طاهر - احمد بن ابى سعيد(٩٨) الملقب بابى المنصور فى حكم دولة آل الجنابى فى البحرين ، وجعل سابور بن ابى طاهر وليا للعهد(٩٩).

وقد اتبع أمير القرامطة احمد بن سعيد (٣٣٢ - ٣٥٩هـ) (٩٤٣-٩٦٩م) سياسة أخيه فى ولائه للفاطميين ، فأعاد الحجر الأســود من الاحساء الى الكعبة عام٣٣٩هـ(٩٥٠م) خلال خلافة الخليفة المطيع(١٠٠) بدون مقابل(١٠١) ، وقال من ردوه « أخذناه بأمر وأعدناه بأمر ». ومن هذا يبدو ان احمد بن ابى سعيد رد الحجر الأسود عنـــدما أمره بذلك الخليفة المنصور الفاطمى ، مما يدل على مدى خضوع قرامطة البحرين للفاطميين . ولما شرع آل الجنابى فى رد الحجر الاسود حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ثم حملوه الى مكة(١٠٢) .

وكان ابو منصور أحمد يفضـــل أن يتولى العهـــد من بعده ابنه « الحسن الاعصم » بدلا من « سابور » ابن أخيه . لذلك نشب النزاع بين بيت أحمد بن أبى سـعيد والـــد الحســن وبيت ابى طاهـــر بن ابى سعيد ، فقام سابور بالقبض على عمه أبى منصور أحمـــد عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م)،ولكن سرعان ماخرج ابو منصور أحمد من معتقله وقتل سابور بن ابى طاهر عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ونفى اخوته واتباعه الى جـــزيرة أوال(١٠٣) .

وقد ظهر عداء آل الجنابى الصريح للفاطميين بعد قتل سابور ، اذ أدى قتله الى قيام النزاع بين آل الجنابى والفاطميين فترة من الزمن، لأن الفاطميين قاموا بتولية سابور العهد بعد عمه أحمد واعتبروا قتله خروجا على طاعتهم(١٠٤) ، وعلى القاعدة التى وضعوها منذ عهد عبيد الله المهدى الفاطمى وهى القاعدة التى تهدف الى جعل الخليفة الفاطمى هو المتحكم فى تعيين رؤساء القرامطة أو عزلهم(١٠٥) .

ومما زاد الفاطميين حنقا على بيت أحمدبنأبى سعيد أنآلالجنابى جنحوا نحوا الاستقلالعن الفاطميين والتصرف دون الرجوع لهم(١٠٦). بعد أن كانوا لا يحاربون الا بوحى من الفاطميين . من ذلك أن القرامطة اغاروا فى عهد اميرهم احمد بن أبى سعيد مرتين على بلاد الشام فى زمن الاخشيديين،وذلك فى عامى ٣٥٣هـ ، ٣٥٧هـ (٩٦٤م،٩٦٧م) . ففى الحملة الأولى التى تعرف بحملة طبرية عام ٣٥٣هـ (٩٦٤م) تمكن القرامطة - وعلى راسهم الحسن الاعصم - بمساعدة الحمدانيين - من الانتصار على الوالى الاخشيدى الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد الذى كان يتولى الشام من قبل الأخشيديين(١٠٧) . وفى المرة الثانية عجز الأخشيديون ايضا عن صد حملة القرامطة على دمشق ، وبذلك امتد نفوذ قرامطة البحرين على بلاد الشام ، وتمكنوا من بسط نفوذهم على الرملة،مما اضطر الحسنبنعبيداللهبن طغج الأخشيد الى أن يتفق معهم، على أن يدفع لهم ثلاثمائة الف دينار سنويا . وقد أبرموا هذا الاتفاق دون الرجوع للفاطميين ، فاعتبر الفاطميون هذا خروجا على رياسة الدعوة الاسماعيلية(١٠٨) . وهكذا بدا أن القرامطة أخذوا يعملون لحسابهم الخاص دون التقيد بزعامة الفاطميين .

على أنه نجم عن مقتل سابور واتفاق القرامطة مع الاخشيديين على الاتاوة دون الرجوع للفاطميين انقسام القرامطة الى فريقين احدهما بزعامة بيت أبى طاهر ظل على ولائه للفاطميين ، والآخر بزعامة بيت احمد بن أبى سعيد وكان يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب الى العباسيين . وكان على راس الفريقالأخير الحسن الأعصم الذى ولى امارة بلاد البحرين (٣٥٩ - ٣٦٧هـ/٩٦٩ - ٩٧٧م) بعد وفاة أبيه .

★ ★ ★

فى ضوء هذه الاحداث صار لابد من قيام حـــرب بين القرامطة المعارضين والفاطميين • وقد حدث عندما مات أحمد بن أبى سعيد أن استبد ابنه الحسن الأعصم بالحكم واتبع سياسة جديدة تجاه الفاطميين تخالف سياسة الود التى اتبعها من سبقه ، اذ أخذ يعمل على التقرب من العباسيين(١٠٩) • من ذلك انه عندما كان الحسن الأعصم بمكة سمح الخطبة تقام للخليفة العباسى المطيع فلم يعترض عليها • وفى ذلك يقول ابن خلدون(١١٠) « وولى ابنه ابو على الحسن بن أحمد ويلقب الاعصم وقيل الاغنم ، فطالت مدته وعظمت وقائعه ونفى جمعا كثيرا من ولد أبى طاهر•يقال اجتمع منهم بجزيرة أوال نحو من ثلثمائة•وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحج ولا اذكر الخطبة للمطيع » • وفى هذا ما يؤكد انحياز الاعصم للعباسيين وابتعاده عن الفاطميين •

والواقع ان هناك عوامل عديدة أدت الى توتر العلاقات ونشوب الحروب بين آل الجنابى والفاطميين فى عام ٣٥٩هـ(٩٦٩م)، منها تدخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥هـ/٩٥٢ - ٩٧٥م) فى شئون القرامطة الداخلية ، وقتل سابور على يد أحمد بن أبى سعيد ، واستبداد الحســـن الاعصم بزعـــامة القرامطة دون الرجـــوع الى الفاطميين الذين كانوا يتحكمون فى تعيين الدعاة • ومن أهم هـــذه العوامل أيضا ان الفاطميين عندما فتحوا دمشـق عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) - كما سيأتى - رفضوا دفع الاتاوة السنوية التى كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة(١١١) • ويجرنا هذا الى الحديث عن النزاع بين آل الجنابى والفاطميين حول بلاد الشام ومصر • ذلك أن الخليفة المعز لدين اللـه الفاطمى رأى ضرورة فتح مصر حتى يتمكن من تحقيق آماله فى ضرب الخلافة العباسية واسقاطها•وربما كان من اهداف الخليفة المعز أيضا تاديب القرامطة ، بدليل أن جوهر الصقلى اعلن فى كتاب الأمان الذى قراه على المصريين أن المعز أرسله لكى ينقذهم من ظلم العباسيين ويصد عنهـــم اخطار القرامطة الذين غزوا بلاد الشـــام عام ٣٥٣هـ(٩٦٤م) ، ٣٥٧هـ (٩٦٧م) وتعرضوا للحجاج ومنعوهم من أداء فريضة الحج(١١٢) •

وفى هذا البيان ما يدل على ان توتر العـــلاقات بين الفاطميين

والقرامطة بدأ قبل استيلاء الفاطميين على دمشق ومنعهم الاتاوة عن القرامطة .

وقد حتمت الضرورة على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يتجهوا لفتح الشام حتى يؤمنوا حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى ، ولكى يقضوا على القرامطة الذين أخذوا ينتهجون سياسة جديدة تجاه الفاطميين(١١٣) .

لذلك أرسل جوهر الصقلى القائد جعفر بن فلاح الكتامى على رأس قوة لفتح بلاد الشام فى أواخر عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) فنجح فى بسط نفوذه على بلاد الشام واستولى على الرملة وطبرية ودمشق . ولكنه ترك لجنوده كامل الحرية فى معاملة الاهالى دون ضبط أو ربط فعاملوهم معاملة سيئة ، مما اثار سخط الناس عليه وعلى الفاطميين الذين كانوا يخالفونهم فى المذهب الدينى(١١٤) .

ولكن جعفر بن فلاح سرعان ما واجه خطر قرامطة البحرين بعد استيلائه على بلاد الشام . وكان هؤلاء القرامطة قد بسطوا نفوذهم على بلاد الشام عام ٣٥٧هـ(٩٦٧م) .وعندما طلب الحسن الاعصم من جعفربن فلاح دفع الاتاوة التى كان يدفعها له الاخشيديون رفض دفعها . ولذا خطب الحسن الأعصم للخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ - ٣٦٢هـ/٩٤٥ - ٩٧٢م) وارتدى السواد شعار العباسيين(١١٥) . بل لقد أرسل الى الخليفة المطيع العباسى والأمير البويهى عز الدولة بختيار فى العراق يطلب منهما المساعدة حتى يتمكن من استرداد بلاد الشام من الفاطميين، وتعهد بأن يحكم هذه البلاد باسم الخليفة العباسى ، فاستجابوا لطلبه وأمدوه بالأموال والرجال . هذا الى أن عز الدولة بختيار طلب من الحمدانيين بالموصل أن يمدوا الحسن الأعصم زعيم القرامطة بالأموال والرجال فلبوا طلبه .وقام الحمدانيون بمده بالأموال والرجال وسمحوا لجنودهم بالتطوع فى جيش الحسن ، وشجعوا الأخشيديين والكافوريين الذين فروا اليهم على الانضواء تحت لواء الحسن الاعصم كما أن الحسن الاعصم أخذ يجمع الاعراب مستعينا فى ذلك بالأموال التى أخذها من الخليفة العباسى(١١٦) .

وبعد أن استكمل استعداداته ، اتجه الحسن الأعصم على رأس جيوشه نحو دمشق فى عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م)·وكان جنوده يحملون الاعلام السوداء وعليها اسم الخليفة المطيع العباسى وعبارة « السادة الراجعون الى الحق »(١١٧) · ودارت رحى الحرب بين الحسن الأعصم أمير القرامطة وجعفر بن فلاح القائد الفاطمى فى ناحية الدكه - التى تقع على نهر يزيد بالقرب من دمشق - وانتهت المعركة بهزيمة جعفر وقتله هو ومعظم اتباعه،وبهذا بسط الحسن الاعصم نفوذه على دمشق(١٨٨)·

وهناك أسباب عديدة أدت الى هزيمة الجيش الفاطمى فى بلاد الشام منها استهانة جعفر بالقرامطة وعدم اعداده القوات الكافية لصدهم· ويبدو انه لم يكن يتوقع ان يهاجمه هؤلاء بقوات ضخمة بدليل أنه لم يطلب النجدة من القائد الأعلى جوهر الصقلى · هذا فضلا عن سوء العلاقة بينه وبين قائده · وقد اعتقد جعفر انه يستطيع أن يقضى على القرامطة بمفرده دون الاستعانة بجوهر الصقلى ·

واما الحسن الاعصم فقد اتبع فى دمشق سياسة تهدف الى التودد لأهلها فمنح أهلها الأمان بعد أن فتحها كما أنه دعا للخليفة العباسى المطيع فى مساجد دمشق،وحذف اسم الخليفة الفاطمى المعز من الخطبة· ولم يكتف بهذا بل أمر بلعن الخليفة الفاطمى على منابر المسجد الأموى بدمشق ، الأمر الذى قابله أهالى دمشق بالترحاب لأنهم كانوا على المذهب السنى ومعادين للشيعة(١١٩) ·

وبعد ذلك زحف الحسن الأعصم تجاه الرملة،وكان يليها سعادة بن حيان القائد الفاطمى·وعندما علم سعادة بن حيان بمسير الحسن الأعصم اليه اسرع نحو يافا حتى يكون على اتصال بمصر عن طريق البحر · اما الحسن الأعصم فقد تتبع القائد الفاطمى وفرض عليه الحصار بيافا · وبهذا تمكن أمير القرامطة من بسط نفوذه على الرملة وعلى كل المدن الواقعة بين دمشق والرملة ، وأقام فيها الدعوة للخليفة العباسى(١٢٠)· وفى هذا يقول المقريزى « واقام القرامطة الدعوة للمطيع لله العباسى فى كل بلد فتحوه وسودوا اعلامهم ورجعوا عما كانوا يمخرقون به » ·

ثم كان أن ترك الحسن الاعصم ظالم بن موهوب العقيلى وابا المنجا بن منجا مع بعض القرامطة لمحاصرة الفاطميين بيافا،واتجه هو بجيوشه نحو مصر(١٢١) ، وذلك فى أواخــــر عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م) ليقضى على حكم الفاطميين ويمنعهم من مهاجمته مرة أخرى . وبعد أن استولى على الفرما هاجم مدينة القلزم (مدينة السويس) وتمكن من دخولها وأسر واليها الاخشيدى عبد العزيز بن يوسف ، وبهذا تحكم فى برزخ السويس. وفى عام ٣٦١هـ (٩٧١م) وصل الى عين شمس ـ وأخذ يهدد القاهرة . وقام انصار الحسن الأعصم بالقاء منشــــوراتهم الثــــورية بجامع عمرو بالفسطاط لتحريض المصريين ضد جوهر(١٢٢) .

وعندما علم جوهر الصقلى بوصول القرامطة الى برزخ السويس بدأ يعد العدة لمحاربتهم . فحفر خندقا كبيرا حول القاهرة لتحصينها . وارسل بعض رجاله ليندسوا فى معسكر القرامطة ويتظاهرون بالسخط على الفاطميين وعلى جوهر ، داعين أن ينتقل الحكم من الفاطميين الى القرامطة . وبهذا انتشرت الفوضى بين صفوف جيش الأعصم(١٢٣) .

وفى عام ٣٦١هـ (٩٧١م) دارت معركة طاحنة عنــــد باب مدينة القاهرة بين القرامطة بزعامة الحسن الأعصم وبين المغاربة بزعامة جوهر الصقلى . واستمرت الحرب بين الطرفين عدة أيام ، انتصر القرامطة فى بادىء الأمر على الفاطميين ، ولكنهم انهزموا فى النهاية ورحلوا الى الاحساء ، فاقتفى جوهر اثرهم ، وتمكن من استرداد الفرما . ثم اتجه نحو يافا وهاجم القرامطة الذين كانوا يحاصرون من بها من الفاطميين وارغمهم على التقهقر الى دمشق كما انه استعاد جميع مدن فلسطين عدا دمشق التى ظلت بيد القرامطـــة(١٢٤) . وكان لانتصــــار الفاطميين على القرامطة نتائج كثيرة منها ان الاخشيديين والكافوريين انفضوا من حول الحسن الاعصم بل أن بعضهم دخـــل فى طاعة الفاطميين ، كما استرد جوهر مدينة الفرما .

ومن الواضح أن هزيمة القرامطة لا ترجع الى شجاعة جند جوهر فحسب بل انها ترجع أيضا الى سياسة الخليفة المعز الذى أخذ يكيـــد

الأعصم ويعمل على التخلص منه لانضمامه العباسيين وقتله جعفر بن فلاح وهجومه على مصر . وكان أن نجح الخليفة المعز فى اشعال نار الفتنة فى بلاد البحرين ضد الحسن الاعصم (١٢٥)، مما جعل الأعصم يرتد عن مصر عام ٣٦١هـ (٩٧١م) ليتمكن من اخماد الثورة التى اشعلها أبناء عمه أبى طاهر . وقد أناب الحسن الأعصم عنه على دمشـــق أبو المنجا القرمطى وظالم بن موهوب العقيلى . وبعد أن تمكن الأعصم من اخماد ثورة أبناء عمه فى البحرين بمساعدة العباسيين عام ٣٦٢هـ(٩٧٢م) عاد واسترد نفوذه على بلاد الشام ثم أخذ يعد العدة لشن حملة ثانية على مصر(١٢٦) .

ولما علم الخليفة المعـــز وهو بالقيروان بأمر القرامطة حضر الى القاهرة فى أواخر عام ٣٦٢هـ (٩٧٢م) للدفاع عنها . وقد رأى أن يرسل الى الحسن الاعصم كتابا قبل أن يبدأ القتال فربما يستطيع أن يثنيه عن رأيه(١٢٧) . وفى هذا الكتاب أخذ الخليفة المعز يذكر الحسن الاعصم بأهله الذين كانوا عبيدا لدى الفاطميين ثم أصبحوا سادة بفضلهم ، كما ذكره بأن أهله القرامطة كانوا يقيمون الدعوة له ولأبنائه ، وعليه أن يتخذ منهم عبرة . ثم أخذ يتساءل عن ســـبب عـــدائه الفاطميين وانضمامه العباسيين ، ثم سبب ما قام به فى بلاد الشام وقتله جعفر بن فلاحوغيره.

وأخيرا عرض الخليفة المعز على الحســـن الأعصـــم ثلاثة حلول ليختار أحدها قائلا : « ونحن معرضون ثلاث خصال ـ والرابعة أردى لك وأشقى لبالك ، وما احسبك تحصل الا عليها ـ فاختر : اما قدمت نفسك لجعفر بن فلاح ، واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان،ورد جميع ما كان لهم من رحال وكراع ومتاع الى آخر حبة من عقال ناقه وخطام بعير ـ وهى أسهل ما يرد عليك .واما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم واموالهم واحوالهم ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار . واما سرت ومن معـــك بغير زمام ولا امان فاحكم فيك وفيهم بما حكمت،وأجريكم على احدى ثلاث : اما قصاص ... واما فدى . فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك واقالة لعثرتك وان أبيت الا فعل اللاعين »(١٢٨) .

والحق أن هذا الكتاب يوضح العلاقة القديمة التى كنت تقوم على أساس المودة بين القرامطة والفاطميين ، ويؤكد أن الفاطميين أصل الاسماعيلية وان القرامطة فرع منهم . ورغم ما فى هذا الكتاب من تهديد ووعيد الا أن الحسن الاعصم لم يبال به واستمر فى اتباع سياسته واصراره على القيام بالحرب ، فأرسل الى الخليفة المعز ردا على رسالته يدل على الاستهانة به ، حيث كتب اليه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » (١٢٩) .

وهكذا سار القرامطة بزعامة الحسن الأعصم فى عام ٣٦٣هـ(٩٧٣م) من الأحساء تجاه مصر، وفرضوا عليها حصارا شديدا،ولم يستطع الخليفة المعز مواجهتهم لكثرة قواتهم.لذلك لجأ الى الحيلة حتى يتمكن من تمزيق كلمتهم . وبالفعل تمكن من استمالة حسان بن الجراح الطائى - رئيس الطائيين الذين كانوا من أقوى العناصر التى يتألف منها جيش الأعصم - فقد اتفق الخليفة المعز مع حسان على ان يدفع له مائة الف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة عندما تنشب الحرب بينهم وبين الفاطميين ، فوافق على طلبه ، فأرسل اليه الأموال المتفق عليها،ولكنها كانت مزيفة(١٣٠). يقول ابن الأثير : « فضربوا اكثرها دنانير من صفر والبسوها الذهب وجعلوها فى أسفل الاكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحمل اليه ... »(١٣١) .

ولما نشبت الحرب بن القرامطة وجند المعز واشتد القتال ، ارتد حسان ابن الجراح منهزما الى الشام ، فتعجب الحسن الاعصم من أمره واستمر يقاتل بمن معه لكن جند المعز شددوا حملاتهم عليه ، فاسرع منهزما الى بلاد الشام ، وتمكن الفاطميون من أسر الكثير من القرامطة(١٣٢) .

ولكن على الرغم من الهزيمة التى منى بها الحسن الأعصم فانه اصر على طرد الفاطميين من مصر والاستيلاء عليها ، الأمر الذى يؤكده هذان البيتان اللذان انشدهما بعد فراره من مصر .

زعمت رجال الغرب(١٣٢) أنى هبتها
فدمى اذن ما بينها مطلول(١٣٤)
يا مصر ان لم أرو ماءك من دم
يروى ثراك ، فلا سقانى النيل

وقد أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قواته بقيادة أبى محمود ابن جعفر بن فلاح لتتبع القرامطة فى الشام،والقضاء عليهم حتى لايعودوا مرة أخرى الى مهاجمة مصر . وتمكنت الجيوش المغربية من اللحاق بهم فى أذرعات(١٣٥) ، فترك الحسن الأعصم بلاد الشام وعاد الى البحرين، وذلك بعد أن ترك على دمشق أبا المنجا القرمطى واليا عليها(١٣٦).

ولم يلبث الخليفة المعز أن تمكن من استرداد دمشق ،اذ انتهز فرصة وجود خلاف بين أبى المنجا القرمطى حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم، وظالم بن موهوب العقيلى - أحد انصار الحسن الأعصم - وعمل على استمالة ظالم بن موهوب،فارسل اليه كتابا يطلب فيه أن يقبض على أبى المنجا ويرسله الى مصر،فنفذ ظالم ما طلبه منه المعز،وقبض على أبى المنجا وابنه ومن معهم من القرامطة . لذلك قام الخليفة المعز بتقليده ولاية دمشق عام ٣٦٣هـ (٩٧٣م) ، وبذلك بسط الفاطميون سلطانهم على بلاد الشام بعد أن انتزعوها من القرامطة(١٣٧) .

على أن الأوضاع لم تستقر فى دمشق بتولية ظالم بن موهوب العقيلى ولايتها ، فقد نشب نزاع بين أهالى الشام السنيين وبين الفاطميين ، فارسل الخليفة المعز بعض قواته بقيادة أبى محمود بن جعفر ليحافظ على الأمن.لكن هؤلاء الجنود سرعان ما انصرفوا الى العبث والفساد . ودب النزاع بين عساكر أبى محمود وبين اهل الشام حتى تم الاتفاق على اخراج ظالم بن موهوب من البلد ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وتولية جيش بن الصمصامة محله فى ادارة أمور دمشق بالاشتراك مع ابن أخيه أبى محمود ابن جعفر(١٣٨) .

ومع ذلك فان الهدوء لم يسد دمشق ، اذ سرعان ما نشب النزاع من جديد بين اهالى دمشق والمغاربة ، وأدى هذا النزاع الى تخريب البلاد

واضطراب الناس ووفاة الكثير منهم . وعندما علم الخليفة المعز الفاطمى بهذا ارسل الى ريان الخادم - واليه على طرابلس - وامره بالتوجه الى دمشق وان يتولاها ويعزل عنها أبا محمود بن جعفر ويعمل على قمع الفتن ونشر الأمن بين الأهالى وجند المغاربة(١٣٩) .

وفى تلك الأجواء استغل افتكين(١٤٠) التركى - أبو منصور التركى الشرابى - الاضطرابات التى سادت بلاد الشام وضعف الحكم الفاطمى فيها وتمكن من دخـول دمشـق ومعـه فريق من الاتراك عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م)(١٤١) . فرحب اشراف دمشق وشيوخها بقدوم افتكين وخرجوا لاستقباله وطلبوا منه أن يتولى حكم بلادهم ويخلصهم من المغاربة الشيعة وظلمهم . فاجابهم الى طلبهم ووعدهم بالحماية ، فعزل ريان الخادم عن دمشق واقام الخطبة للخليفة الطائع العباسـى (٣٦٢ - ٣٨١هـ/٩٧٢ - ٩٩١م) بدلا من الخليفـة المعـز لدين اللـه الفاطمى ، كما قضى على الفتن(١٤٢) .

وبعد أن بسط افتكين التركى نفوذه على دمشـق خشى أن تهاجمه قوات الفاطميين ورأى أن يستميل الخليفة المعز لدين الله ، فأرسل اليه رسالة يتظاهر فيها بالطاعة له ، فأرسل اليه الخليفة المعز يدعوه الحضور حتى يقره على ولايته ، لكن افتكين لم يثق بما أرسـله ، ورفض الذهاب اليه(١٤٣) ، فجهز الخليفة المعز عساكره لمحاربة افتكين ، ولكنه مرض ومات عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) وولى بعده ابنه العزيز(١٤٤) .

أما أفتكين فقد بسط نفوذه على صيدا وعكا وطبريه بالاضافة الى دمشق،وقد انزعج الخليفة العزيز الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٥م) لذلك،وعمل على استرداد بلاد الشام من افتكين(١٤٥) ، وأرسل جوهر الصقلى على رأس حملة قوية الى دمشق . ولما وصل جوهر الى الرملة عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) ارسل الى افتكين رسالة أوضح له فيها أن الخليفة العزيز بالله يمنحه الأمان ، فارسل اليه افتكين الرد الذى علم منه جوهر انه مصر على الحرب(١٤٦) .

ولم تلبث أن دارت رحى الحـرب بين أفتكين وجوهر الصـقلى

واستمرت عدة أشهر ، ظهرت فيها شجاعة افتكين ومهارته ومن معه .
وفرض جوهر الصقلى الحصار على مدينة دمشق .وعندما طال الحصار اشار اهل دمشق على افتكين بأن يستدعى الحسن بن أحمد القرامطة من البحرين للوقوف بجانبه فى محاربة جوهر ، فأجابهم الى طلبهم .
وعندما علم جوهر الصقلى بمسير القرامطة نحوه اضطر الى رفع الحصار عن دمشق لخوفه من أن يقع بين عدوين ، وتراجع نحو الرملة فتبعه الحسن الأعصم وافتكين، وقاتلاه قتالا شديدا . وعندما عجز عن مقاومتهم اتجه نحو عسقلان ، فتبعه أفتكين والقرمطى وفرضا عليه حصارا شديدا.
ولما طال الحصار وقلت المؤن طلب جوهر مقابلة أفتكين ، فلبى طلبه(١٤٧) . واجتمع به فقال له جوهر : « وقد دعوتك الى الصلح والموادعة .. فابيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة ... واريد أن تمن على بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى وتذم لى لامضى وأعود»(١٤٨) فوافق أفتكين على ذلك بشرط ان يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان(١٤٩) .

ووافق جوهر على ذلك ومر هو وأصحابه من تحت السيف والرمح قاصدين القاهرة فى وضع يتصف بالذلة والهوان .

ولما عاد جوهر الصقلى الى مصر التقى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى وأوضح له ما دار بينه وبين القرامطة وافتكين ، فقرر الخليفة الخروج بنفسه لمحاربتهما ، وجهز الجيوش وجعل جوهرا على مقدمتها . وعندما علم افتكين والحسن القرمطى بمسير الخليفة اليهما عادا الى الرملة وأخذا يعدان للقتال . وكان أن دار القتال بين الفريقين عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م) وأسفر عن هزيمة أفتكين والحسن بن أحمد القرمطى وفرارهما وقتل الكثير من جنودهما(١٥٠) ، وكان ذلك خاتمة لنفوذ آل الجنابى فى بلاد الشام ومصر .

وأخيرا عاد الحسن الأعصم الى الاحساء بعد هزيمته أمام الخليفة العزيز الفاطمى ، ثم توفى عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م) ، فنشبت الخلافات بين قرامطة بلاد البحرين حيث انكروا السياسة التى اتبعها الحسن الأعصم وما قام به من مبايعة بنى العباس وعدائه للفاطميين ، وقرروا أبعاد أبناء

ابى سعيد الجنابى عن الحكم وقامـــــوا بتولية رجلين منهم هما جعفر واسحق(١٥١) ، فذهب بنو ابى سعيد الى جزيرة آوال ، وهناك تعرضوا للقتل على ايدى خصومهم(١٥٢) . وبذلك انتهى نفوذ آل الجنابى فى بلاد البحرين .

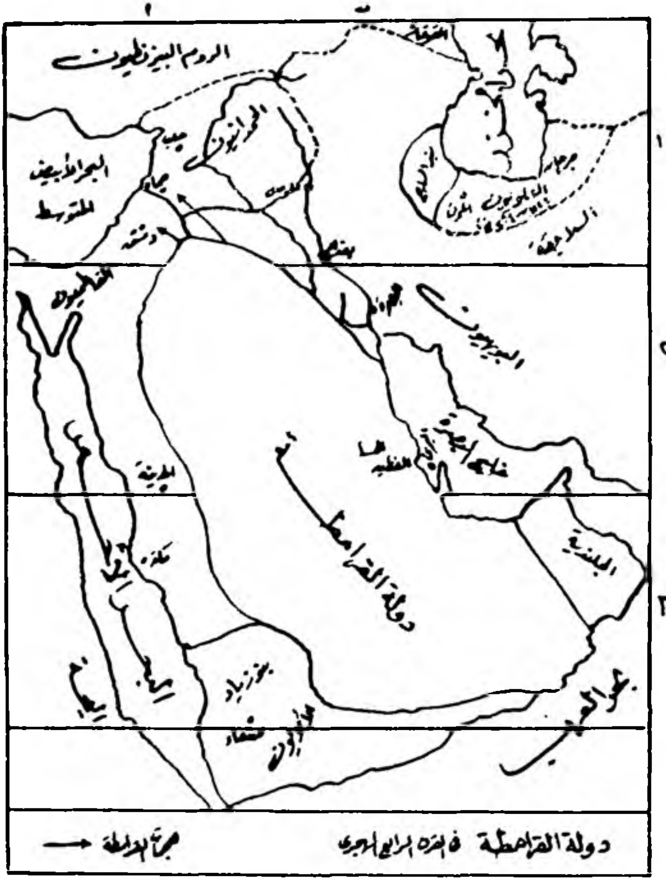

عدنان العطار ـ الأطلس التاريخى

(مجلة المؤرخ العربى)

الهـــوامش

(=) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص١٨٥ فهو يقول «ومن الاشخاص البارزة بين الباطنية (حمدان بن الأشعث) الملقب بقرمط فى سواد الكوفة ... وأبو سعيد حسن بن بهرام الجنابى » .

وقد عرف الباطنية بهذا الاسم لزعمهم أن لكلظاهر باطنا،ولكل تنزيل تأويلا انسلاخا من الدين : (١) ويقال ان دعوة الباطنية ظهرت أولا فى زمان المأمون وانتشرت فى زمان المعتصم . (ب) وقد أطلق مؤلفو العرب اسم الباطنية على فرق عديدة متباينة كان لها شان سياسى هام وأهمها القرامطة والاسماعيلية ، (حـ) فالاسماعيلية يسمون بالباطنية لانهم يقولون ان لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطنا ولكل تنزيل تأويلا . (د) وقيل ان من أهداف الباطنية الدعوة الى دين المجوس ومما يؤكد ذلك ان زعيم الباطنية الاول ميمون بن ديصان كان مجوسيا من سبى الأهواز . والبعض ينسب الباطنية الى الصابئيين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية ، واستدل أيضا بأن صابئة حران كانوا يكتمون عقائدهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم والباطنية أيضا لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر أسرارهم لغيرهم .

(١) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٨٨ .

- الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٧٢ .

(ب) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٨ .

(حـ) دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس ص ٨٦ .

(د) المعرى : رسالة الغفران ص ٣٥٧ .

(و) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٧٧ ، ٢٧٨ .

(×) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ كان مولى لجعفر بن محمد الصادق وكان من الاهواز .

(١) الرافضة أهل ضلال وهم ثمانى عشرة فرقة والقرامطة فرقة من هـــذه الفرق (١) فالرافضة صنف من أصناف الشيعة وقد سموا رافضة لرفضهم امامة أبى بكر وعمر وهم مجمعون على أن الرسول (ص) نص على استخلاف على ابن أبى طالب باسمه وأظهر ذلك واعلنه (ب) ، وقيلسموا الرافضة ، لرفضهم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ورفضهم الخروج معه ، عندما سألوه البراءة من أبى بكر وعمر، فلم يجبهم الى ذلك(حـ) .

أ - الملطى : التنبيه والرد ص ٢٥ : ٢٨ .

ب - الأشعرى : مقالات الاسلاميين جـ١ ، ص ٨٧ ، ٩٨ .

جـ - أبو سعيد نشوان : الحور العين ص ١٨٤ .

(٢) زعم بعض الحلولية أن « الله تبارك وتعالى بعث جبريل الى على ، فاخطأ جبريل وصار الى محمد عليه السلام ، فاستحيا الرب وترك النبــوة فى محمد (ص) وجعل عليا وزيره والخليفة بعده . وبعض الحلولية زعموا أن عليا ومحمدا عليهما السلام شريكان فى النبوة وان عليا نبى بعد محمد (ص) واحتجوا بقول النبى (ص) « انت منى بمنزلة هارون من موسى » .

الملطى : التنبيه والرد ص ٢٩ .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .

(٤) سلمية : بلدة فى ناحية البرية من أعمال حماة ببلاد الشام(أ) وقد اتخذ الائمة الاسماعيلية سلمية دار هجرة لهم منذ عهد المأمون .

أ - ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٥ ص ١٩٣ .

ب - حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٤٤ .

(٥) فاضل عبد اللطيف الخالدى : الحياةالسياسية ونظم الحكم فى العراق ص٧٠.

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٠ .

(٧) هناك تفسيرات عديدة لهذا اللفظ منها أن حمدان بن الأشـ ث كان قصير القامة ورجلاه قصيرتين . فكان يقرمط فى سيره أى كانت خطواته متقاربة لهذا لقب بلقب قرمط (أ) . ومن هذه التفسيرات أيضا أن لفظ قرمط مشتق من لفظ اقرمط ويعنى غضب . وهذا اللفظ آرامى مشتق من «قرمطونا» التى تعنى المدلس أو الخبيث أو المكار أو المحتال وان هذه التسمية لم يتخذها القرامطة انفسهم الذين اشتهروا بهذه الصفات بل أطلقها عليهم الذين لم يؤمنوا بدعوتهم(ب) وأرى ان هذا التفسير هو أقرب التفسيرات الى الصحة .

أ - البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .

ب - المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ٢٠٥ .

وهناك تفسيرات أخرى للفظ قرمط ولمزيد من التفاصيل انظر . -

المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ . ص ٢٠٥ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ١١٩ .

مجد الدين الفيروزبادى : القاموس المحيط حـ٢ ص٢٧٩ .

لويس معلوف اليسوعى : المنجد ص ٦٥٩ ٠

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٢٥ ٠

(٨) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٦٤ ٠

(٩) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٢ ، ١٣ ٠

(١٠) المقريزى : :اتعاظ الحنفا ص ٢٠٨ ٠

(١١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٢٦ ٠

(١٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٠٩ ٠

(١٣) هو أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ـ فارسى الأصل ـ كان يعمل الفراء سافر الى سواد الكوفة ،

المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٥٩ ٠

(١٤) سمى الجنابى نسبة الى جنابة وهى بلدة صغيرة من سواحل فارس يدخل اليها فى المراكب فى خليج من البحر الملح يكون بين المدينة والبحر نحو ثلاثة أميال أو أقل ، وامامها فى وسط البحر جزيرة خارك التى نشأ بها أبو سعيد الحسن الجنابى القرمطى ٠

خير الدين الزركلى : الاعلام حـ١ ص ٢٢١ ٠

(١٥) كانت البلاد الواقعة على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان تدعى البحرين وقيل هى قصبة هجر وقيل هجر قصبة البحرين ٠٠٠ وأحيانا كانت اليمامة تعد من أعمال البحرين هذا كان فى أيام بنى أمية . فلما ولى بنو العبـــــاس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا(أ) ٠ وربما كان سبب تسمية هذه المدن باسم البحرين لأنها تقع على شاطىء البحرين ، بحر عمان ، وبحر فارس (ب) ٠

أ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٢ ص ٧٢ ، ٧٣ ٠

ب ـ أمين الريحانى : ملوك العرب حـ٢ ص ٢٠٢ ٠

(١٦) السماوة بفتح أوله وبعد الالف واو وسميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها والسماوة ماءة بالبادية وبادية السماوة التى هى بين الكوفة والشام قفرى أظنها مسماة بهذا الماء ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٥ ص ١٢٠ ٠

(١٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ، ص ٣٢٦ ٠

(١٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ٠

(١٩) ان محمد بن اسماعيل غير ميمون القداح وان هذا حجة وذاك امام ، وان ميمون من نسل سليمان الفارسي ومحمد بن اسماعيل من نسل على وفاطمة .

حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٥٠ .

(٢٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٣ .

(٢١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٢٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٤ .

(٢٣) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٨ .

(٢٤) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٣ .

(٢٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤١ .

(٢٦) العبر حـ ٤ ص ٨٨ .

(٢٧) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٠ .

(٢٨) تاريخ الامم والملوك حـ١٣ ص ٢١٨٨ .

(٢٩) المنتظم فى تاريخ الملوك والامم حـ ٦ ص ١٨ .

(٣٠) الكامل فى التاريخ حـ٧ ص ١٧٥ .

(٣١) النجوم الزاهرة حـ٢ ص ١١٩ .

(٣٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ١٣ ص ٢١٨٨ .

(٣٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٢١٢ .

(٣٤) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ .

(٣٥) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم حـ٦ ص ١٨ .

(٣٦) امين الريحانى : ملوك العرب ص ٢١٢ .

(٣٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٢ ص ٢١٨٨ .

(٣٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٩ .

(٣٩) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٦ ، ١٨ .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل انظر الحياة الدينية .

(٤١) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٧ .

(٤٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٤٣) عارف تامر : القرامطة ص ١٣٨ .

(٤٤) القطيف : بفتح أوله وكسر ثانيه تعد من أعظم مدن البحرين .

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٧ ص ١٢١ .

(٤٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

(٤٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٦٠ ٠

(٤٧) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ١٨ ٠

(٤٨) يذكر ابن خلدون فى كتابه العبر حـ٤ ص ٨٨ ان الخليفة المعتمد هو الذى أرسل العباس بن عمرو وهذا خطأ والصواب هو الخليفة المعتضد ٠

(٤٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٤ ٠

(٥٠) يذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب حـ٢ ص ٤٨٤ أن الخليفة المعتضد خلع على العباس بن عمرو عندما عاد ولكن هذا لم يحدث ، فهل عاد منتصرا حتى يخلع عليه - بالطبع لا - فجميع المصادر تجمع على انه عاد يجر اذيال الخيبة والهزيمة ٠

(٥١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حـ٧ ص ١٧٧ ٠

(٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٨ ، ٢١٩ ٠

(٥٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر حـ٢ ص ٤٨٤ ٠

(٥٤) بالفتح والمد جمع حسى بكسر الثاء وسكون السين ، وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمال ، فاذا صار الى صلابة أمسكته فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه ٠٠٠ والحسى الرمل المتراكم أسفله جبل صلد ، فاذا مطر الرمل نشف ماء المطر فاذا انتهى الى الجبل الذى تحته أمسك الماء ومنع الرمل وحر الشمس أن ينشف الماء ، فاذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن الماء فنبع باردا عذبا(أ) ٠

والاحساء أصلها قلعة فى البحرين وهى مركز ناحية تحمل الاسم نفسه(ب) ٠

(أ) ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ٠

ب - دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٢٥٢ ٠

(٥٥) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ ٠

(٥٦) حسن ابراهيم وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ١١١ ، ٢١١ ، ٢١٢

(٥٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٢٣٩ ٠

(٥٨) مسكويه : تجارب الامم حـ ٥ ص ٣٣ ٠

(٥٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢١٤ : ٢١٦٠

(٦٠) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٨ ، ٨٩ ٠

(٦١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمـــــد شرف : عبيد الله المهدى ص ١٨٠ ، ٢١٨ ، ٢٩١ .

(٦٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ .

(٦٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٦٤) فيد : بالفتح ثم السكون ودال مهملة بليدة تقع فى منتصف الطريق بين مكة والكوفة .

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ ٦ ص ٤٠٨ .

(٦٥) محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

(٦٦) مسكويه : تجارب الامم حـ٥ ص ١٤٥ .

(٦٧) النويرى : نهاية الأرب حـ١٣ ص ٧٣ .

(٦٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٦٩) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧ .

(٧٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٨٢ .

(٧١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٤ .

(٧٢) الرحبة : تقع على شاطىء الفرات بين الرقه وبغداد أسفل قرقيسياء .

(٧٣) قرقيسياء : بلدة تقع على الفرات بالقرب من رحبة مالك بن طوق .

(٧٤) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم حـ٦ ص ٢١٥ ، ٢٦١ .

(٧٥) عين القمر : بلدة قريبة من الانبار غربى الكوفة .

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٦ ص٢٥٢ .

(٧٦) محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٧٧) يقول الحمادى فى كتابه « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » ص٢ ، ٢٠١ وأبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة ... » حـ٣ ص ١٢٠ أن الذى أغار على مكة هو أبو سعيد . وهذا خطأ لأن أبا سعيد قتل عام ٣٠١هـ (٩١٣م) والاغارة على مكة كانت عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) والصواب أن الذى اغار على مكة أبو طاهر سليمان .

(٧٨) المسعودى : مرج الذهب حـ٢ ص ٥٧٤ .

مسكويه : تجارب الامم حـ٥ ص ٢٠١ .

(٨٩) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٢٢٤ .

(٨٠) وقيل اسمه ابن محارب .

(٨١) مسكويه : تجارب الأمم حـ٥ ص ٢٠١ ٠

(٨٢) المعرى : رسالة الغفران ص ٢٨ ٠

(٨٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢١١ ٠

(٨٤) مسكويه : تجارب الأمم حـ٥ ص ٢٠١ ٠

ابن الجوزى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ص ٢٢٣ ٠

(٨٥) عاصر أبو العلاء المعرى آل الجنابى وكتب عن الجنابى يقول « لو عوقب بلد بمن يسكنه ، اجاز أن تؤخذ به جناية ولا يقبل لها انابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أن لا تزر وازرة وزر أخرى » ٠

أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٢٣٨ ٠

(٨٦) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢٠١ ، ٢١١ ٠

(٨٧) النويرى : نهاية الارب حـ٢٣ ص ١٨٩ ٠

(٨٨) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٢٣ ٠

السيوطى : تاريخ الخلفاء ص خلافة المقتدر ٠

(٨٩) النويرى : نهاية الارب حـ٢٢ ص ١٨٩ ٠

(٩٠) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ٠

(٩١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران حـ١ ص ٢٨ ٠

(٩٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٣ ٠

(٩٣) عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ص ١٣٥ ٠

(٩٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٥ ٠

(٩٥) يذكر محمد الخضرى فى كتابه تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨٢ هو ان أبا طاهر قام برد الحجر هو أخوه أبو المنصور أحمد عام ٣٣٩هـ كما سيأتى ٠

(٩٦) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ٠

(٩٧) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٩٦ ٠

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٢٢٧ ، ٢٦٤ ٠

(٩٨) يذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم حـ٣ ص ٢٨١ أن أبا طاهر مات وولى مكانه أخوه أبو القاسم سعيد لكن هذا غير صحيح والذى ولى مكانه أخوه أبو منصور أحمـــد ٠

(٩٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٢٨١ ٠

حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩٩ ٠

(١٠٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٢ ص ٣٠١ ٠

(١٠١) يذكر أحمد حسين فى كتابه موسوعة مصر ، حـ٢ ص ٥٢٢ عن الحجر الأسود انهم ردوه بعد أن دفع فيه القرامطة خمسين الف دينار ولكن هذا غير صحيح لأنهم ردوه عندما أمرهم أبو منصور أحمد بهذا دون أن يأخذوا مالا ٠

(١٠٢) النويرى : نهاية الارب حـ ٢٣ ص ١٨٩ ٠

(١٠٣) أوال : بالضم ، ويروى بالفتح : جزيرة بالبحرين بها نخـل وبساتين صفى الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع حـ١ ص ١٢٨ ٠

(١٠٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٤ ٠

(١٠٥) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف ٠ المعز لدين الله ص ١٠٥ ٠

(١٠٦) عارف تامر : القرامطة ص ١١٧ ٠

(١٠٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٧٣ ٠

(١٠٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٦

(١٠٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ٣٤٥ ٠

(١١٠) العبر حـ٤ ص ٩٠ ٠

(١١١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١٠٣ : ١٠٥٠

(١١٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٤٧ ، ٤٨ ٠

- حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٩٧ ٠

(١١٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩١ ، ٩٢ ٠

(١١٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٨ ، ١١٩ ٠

(١١٥) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٩٠ ٠

(١١٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١ ٠

- ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١١٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف المعز لدين الله ص ١٠٩ ٠

(١١٨) ابن القلانسى ٠ ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٢ ٠

- ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٢٤ ٠

(١١٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٠ - ١١٢٠

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

- ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٢١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ٠

(١٢٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق جـ١ ص ٢ ٠

(١٢٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١١٣ ٠

(١٢٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٢ ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١٢٥) انتهز ابناء واتباع أبى طاهر فرصة انشغال الأعصم بحرب الفاطميين فى مصر وخرجوا من جزيرة «أوال» وتمكنوا من احتلال الاحساء ، لهذا اضطر الاعصم الى الارتداد عن القاهرة واسرع بالعودة الى البحرين وتمكن من اخماد فتنة أبناء عمه آل طاهر ٠

عارف تامر : القرامطة ص ١٤٧ ٠

(١٢٦) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٥ ـ ١١٧٠

(١٢٧) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٢٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٥٨ ـ ٣٦٥ ٠

(١٢٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٨ ـ ١٢٠٠

(١٣٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٣ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٣١) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٩ ٠

(١٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٣ ٠

(١٣٣) رجال الغرب يقصد بهم الفاطميين والمغاربة ٠

(١٣٤) مطاول = مسفوك ٠

(١٣٥) أذرعات بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ١ ص ١٣٠ ٠

(١٣٦)ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١٣٧) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ، ٥١ ٠

(١٣٩) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣١ ٠

(١٤٠) افتكين : هو أحد موالى عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعـــراق . وعندما انهزم فى المعركة التى دارت بينه ومن معه من الاتراك وبين الديلم ترك بغداد وسار قاصدا بلاد الشام ٠ وعندما علم ظالم بن موهوب العقيلى بقدومه حاول القبض عليه ومنعه من التقدم لكنه لم يستطع وتمكن افتكين التركى من الوصول الى دمشق عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م) ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥١ ٠

(١٤١) د٠ سرور ٠ سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٤ ، ١٣٥ ٠

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٢٧ ٠

(١٤٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٥ ٠

(١٤٤) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٨ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥١ ، ٩٠ ٠

(١٤٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٦ ٠

(١٤٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٥ ، ١٦ ٠

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٧ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٢ ٠

(١٤٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٧ ٠

(١٤٩) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٢٩٤ ٠

(١٥٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٨ ، ١٩ ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٨ ٠

(١٥١) وهما من القرامطة الستة الذين يلقبون بالسادة ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٧ ص ١٢٦ ٠

(١٥٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٩١ ٠

قائمة بأسماء الخلفاء
المعاصرين لدولة آل الجنابى

الخلفاء الفاطميون

- عبيد الله المهدى ٢٩٧هـ = ٩٠٩م
- القائم بأمر الله ٣٢٢هـ = ٩٣٣م
- المنصور ٣٣٤هـ = ٩٤٥م
- المعز لدين الله ٣٤١هـ = ٩٥٢م
- العزيز ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ = ٩٧٥ ـ ٩٩٥م

الخلفاء العباسيون

- المعتضد ٢٧٩هـ = ٨٩٢م
- المكتفى ٢٨٩هـ = ٩٠١م .
- المقتدر ٢٩٥هـ = ٩٠٧م
- القاهر ٣٢٠هـ = ٩٣٢م
- الراضى ٣٢٢هـ = ٩٣٣م
- المتقى ٣٢٩هـ = ٩٤٠م
- المستكفى ٣٣٣هـ = ٩٤٤م
- المطيع ٣٣٤ هـ = ٩٤٥م
- الطائع ٣٦٢ ـ ٣٨١هـ = ٩٧٢ ـ ٩٩١م

آل الجنابي ببلاد البحرين

١ ـ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي

٢٨٣ ـ ٣٠١هـ

٨٩٦ ـ ٩١٣م

٢ ـ أبو القاسم سعيد

٣٠١ ـ ٣٠٥هـ

٩١٣ ـ ٩١٧م

٣ ـ أبو طاهر سليمان

٣٠٥ ـ ٣٣٢هـ

٩١٧ ـ ٩٤٣م

سابور

٤ ـ أبو منصور أحمد

٣٣٢ ـ ٣٥٩هـ

٩٤٣ ـ ٩٦٩م

٥ ـ الحسن الأعصم(١)

٣٥٩ ـ ٣٦٧هـ

٩٦٩ ـ ٩٧٧م

(١) هذا الجدول من واقع هذا البحث .

المصـــادر

١ ـ القرآن الـكريم ٠

٢ ـ ابن الاثير : (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) على بن أحمد أبى الكرم
الكامل فى التاريخ ٠

٣ ـ الأشعرى : (ت ٣٣٠هـ) أبو الحسن على بن اسماعيل
« مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى مكتبة النهضـــة المصرية ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م ٠

٤ ـ البغدادى : (ت٤٣٩هـ،١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر
الفرق بين الفرق (دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٣م)

٥ ـ ابن الجوزى : (ت ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على ٠
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمـــم ٠ الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ ٠

٦ ـ الحمادى : (ت أواسط القرن الخامس الهجرى) محمد بن مالك بن أبى الفضائل ٠
كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة (مكتبـــة الخانجى مصر والمثنى ببغداد ١٣٤٧هـ/١٩٥٥م ٠

٧ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر الجـــزء الرابع (دار الكتب) ٠

٨ ـ خير الدين الزركلى
الاعلام (المطبعة العربية بمصر ١٨٢٧م)

٩ ـ أبو سعيد : ت ٥٧٣هـ) نشوان بن سعيد بن نشوان الحميرى
« الحور العين » حققه وعلق عليه كمال مصطفى ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م

١٠ ـ السيوطى : (ت ٩٣١هـ ، ١٦٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ٠

١١ ـ الشهرستانى : (ت ٥٤٨هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
الملل والنحل .

١٢ ـ صفى الدين : (ت٧٣٩هـ) عبد المؤمن عبد الحق البغدادى
« مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » تحقيق وتعليق على محمد البجاوى ، دار الجيـــل بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

١٣ ـ الطبرى : (٣١٠هـ ، ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
تاريخ الأمم والملوك (مكتبة الخياط ١٩٦٩م) .

١٤ ـ الغزالى : (ت ٥٠٥هـ ، ١١١١م) الامام أبو حامد محمد بن محمد ابن أحمد .
فضائح الباطنية (الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) .

١٥ ـ ابن القلانسى : (ت٥٥٥هـ) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على
ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ١٩٠٨م) .

١٦ ـ كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسن
ادب النديم مكتبة الخانجى القاهرة ١٢٩٨م

١٧ ـ لويس معلوف اليسوعى
المنجد فى اللغة والأدب والعلوم«المطبعة الكاثوليكية بيروت١٩٠٨م

١٨ ـ مجد الدين الفيروزابادى
القاموس المحيط الطبعة الخامسة .

١٩ ـ أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ ، ١٤٦٩م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتـــب المصرية ١٩٣٢م) .

٢٠ ـ المسعودى : (ت ٣٤٦هـ ، ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦م) .

٢١ ـ مسكويه : (ت ٤٢١هـ ، ١٠٣٠م) ابو على أحمد
تجارب الامم (مصر ١٩١٤م) ٠

٢٢ ـ المعرى : (٣٦٣ : ٤٤٩هـ) أبو العلاء
رسالة الغفران شرح وايجاز كامل الـكيلانى مطبعة المعارف مصر ١٩٣٨م ٠

٢٣ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥هـ ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م ، القاهرة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م ٠

٢٤ ـ الملطى : (ت ٣٧٧هـ) ابو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ٠

٢٥ ـ النوبختى : (من اعلام القرن الثالث للهجرة ت أوائل القرن الرابع الهجرى) أبو محمد الحسن بن موسى ٠
« كتاب فرق الشيعة » المطبعة الحيدرية بالنجف ٠

٢٦ ـ النويرى : (٦٧٧ ـ ت ٧٣٣هـ) أحمد بن عبد الوهاب،
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » تحقيق د٠ أحمد كمال زكى مراجعة د٠ محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م ٠

٢٧ ـ ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ ، ١٢٢٩م) شهاب الدين ابو عبدالله الحمـوى ، معجم البلدان (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥م ، ١٩٠٦ ٠

المراجـع العـربية

٢٨ - أحمد حسين
« موسوعة تاريخ مصر » (دار الشعب ١٩٧٢م) .

٢٩ - أحمد عبد الرازق
« الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٠م .

٣٠ - السيد عبد الله بن خليفة وعبد الملك يوسف
« البحرين عبر التاريخ » .

٣١ - امين الريحانى
« ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية » - الجزء الثانى بيروت ١٩٢٥م .

٣٢ - حسن ابراهيم حسن
« تاريخ الاسلام السياسى » جـ٣ .

٣٣ - « الفاطميون فى مصر » (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م) .

٣٤ - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف
« المعز لدين الله » (مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٧م) .

٣٥ - عبيد الله المهدى ، (مطبعة الشبكشى عام ١٩٤٧م) .

٣٦ - عارف تامر
« القرامطة » (دار الكاتب العربى بيروت) .

٣٧ - عبد العزيز الدورى
« دراسات فى العصور العباســية المتأخرة » (مطبعة السريان - بغداد ١٩٤٥م) .

٣٨ - عدنان العطار
« الأطلس التاريخى للعالمين العــربى والاسلامى » دمشــق - القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٣٩ - فاضل عبد اللطيف الخالدى
« الحياة السياسية ونظم الحكم فى العـــراق » مطبعة الايمان - بغداد ١٩٦٩م .

٤٠ - محمد جمال الدين سرور
« سياسة الفاطميين الخارجية (دار الفكر العربى الطبعة الرابعة ١٩٧٦م) .

٤١ - محمد بك الخضرى
« تاريخ الأمم الاسلامية » (مطبعة دار احيـــــاء الكتب العربية ١٩٣٠م) .

٤٢ - محمد عبد الفتاح عليان
« قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين » الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م .

٤٣ - دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس .

المراجع العربية المترجمة

٤٤ - زامبـــاور
« معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » أخرجه د. زكى محمد حسن بك وحسن أحمد محمود واشترك فى ترجمة بعض فصوله د. سيدة اسماعيل الكاشف وحافظ أحمـــد حمدى وأحمد ممدوح حمدى ، القاهرة ١٩٥٢ .

٤٥ - كارل بروكلمان
« تاريخ الشعوب الاسلامية » نقله الى العـــربية د. نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكى (دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٤٩م) .

٤٦ - ناصر خسرو ، ابو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المرذوى « سفر نامه » ترجمة وتقديم الدكتور احمد خالد البدلى - الرياض السعودية .

المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر في الميزان

د. نورة محمد عبد العزيز التويجرى(*)

يعتز التاريخ الاسلامى بجناحه الغربى مثلما يعتز بجناحه الشرقى. ففى اقصى الطرف الغربى للدولة الاسلامية ، قامت للمسلمين دولة فى شبه جزيرة ايبريا ـ هى دولة الأندلس ـ قدر لها أن تنهض بدور خالد فى ميادين السياسة والحرب والجهاد من ناحية ، وفى ميادين الحضارة بمختلف آفاقها ومظاهرها من ناحية أخرى . وفى تتبعنا لهذا النشاط المتعدد الأوجه نصادف شخصيات فذة خلدت اسماءها فى التاريخ ، ومازالت جديرة بالمزيد من عناية الباحثين ، لالقاء الأضواء على جوانبها، وكشف ما خفى من بطولاتها واسهاماتها الحقيقية ، أو الحكم عليها حكما امينا صادقا يزيح عنها ما قد تكون قد تعرضت له من غبن أو نكران .

ومن هذه الشخصيات المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، الذى قام بالوصاية على هشام المؤيد عقب وفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) . وقد أثبت المنصور محمد أنه سياسى بارع ومحارب شجاع ، بذل الكثير دفاعا عن دولة الاسلام فى الأندلس وحفاظا على كيان المسلمين فى تلك البلاد البعيدة عن قلب الدولة الاسلامية فى الشرق ؛ ومع ذلك لم يلق المنصور التقدير الكافى من معاصرية وكثير من المؤرخين ، فغلبوا الزلات على الحسنات ، واغفل بعضهم حقه ولم يذكروا الا أخطاءه . بل ان البعض تجنى عليه ، وأطلقوا عليه من الصفات ما يتنافى مع الواقع والحقيقة ، فوصفوه بالاحتيال والخيانة . ومن المحدثين من وصفه بالدكتاتورية ووصف عهده بالدكتاتورية العامرية ، ولم يروا فيه الا الطمع والاستبداد ، بل الوصولية والممارسات اللاأخلاقية .

(*) كلية التربية ـ الرئاسة العامة لتعليم البنات ـ الرياض .

ولكن فى ضوء الكثير من المصادر والمراجع التى رجعت اليها والتى تهتم بالتاريخ الاندلسى فى تلك الحقبة الزمنية التى عاصرها المنصور وما حفلت به من أحداث كان المنصور محمد بن أبى عامر ذكر فيها ، تبلورت امامى هذه الشخصية فى ضوء طبيعة العصر واجوائه وظروفه ، واتضحت جهود هذا الرجل التى لا تنكر فى الحفاظ على الاسلام ودولته فى الأندلس . وكان أن رأيت مــن الانصاف أن نضع هــذه الشخصية التاريخية فى الميزان ، لنواجه من نظروا اليها من جانب واحد فقط ، متجاهلين ما لها من جوانب مضيئة فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة وفى التاريخ الأندلسى الاسلامى بصفة خاصة . وبعبارة أخرى فاننى فى هذا البحث أقف امام هذه الشخصية محاولة الرد على المتحاملين عليها ، والذين نظروا اليها من جانب واحد مظلم واهملوا جانبها المضيء .

ذلك انه من الأمانة العلمية الا نغمط هذا الرجل حقه ، والا نتجاهل ما قام به من أعمال أدخلت الفزع والرعب فى قلوب أعداء الدولة الاسلاميه فى الأندلس.وحسبه ان وفاته احدثت موجة من الفرح والسرور فى الأوساط الاسبانية حتى أن الحوليات اللاتينية التى كانت تدون فى الكنائس والأديرة اهتمت بتسجيل تاريخ موته ، وعبرت عن ذلك بقولها :

« وفى سنة ١٠٠٢م توفى المنصور ، وذهب الى الجحيم » .ويكفى هذا الاحساس من جانب الخصوم والأعداء ليضفى عليه أهمية فى نظر الأهل والأصدقاء .

★ ★ ★

شخصية المنصور محمد بن أبى عامر :

اما عن المنصور فهو أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، من قبيلة معافر اليمنية احدى قبائل حمير(١) قدم جده عبد الملك الى الاندلس ، وكان من أوائل الداخلين تلك البلاد مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، واتخذ من الجزيرة الخضراء مستقرا له حيث حصل على اقطاعات كبيرة فى بلدة طرش Torrox (٢) مكافأة له ، لما أظهره

من شجاعة وبسالة فى المعارك ، التى خاضها فى الفتح الاسلامى لبلاد الأندلس . وفى تلك القرية - قرية طرش - ولد المنصـــور محمد سنة ٣٢٨ هـ .

أما والده عبد الله المكنى بأبى حفص فكان من أهل الدين والزهد فى الدنيا والعزوف عن السلطان . وقد سمع الحديث ، وقام بأداء فريضة الحج ، وتوفى بمدينة طرابلس الغرب بليبيا عندما كان عائدا من الحج .

وكانت أمه بريهة بنت يحيى بن زكريا من قبيـلــة تميم المعروفين ببنى ترطال(٣) . تلقى محمد بن ابى عامر تعليمه فى جامع قرطبة ، وكان حسن النشأة مغرما بالتعلم ينصف بالذكاء والنجابة ، أحـــب علم التاريخ ، واهتم بقراءته ،والتحق بالقضاء فى بداية حياته ، وقرأ اللغة والأدب على معلميه أبى على القالى وأبى بــكر بن القـــوطية ، ودرس الحديث على يد أستاذه أبى بكر بن معاوية القرشى(٤) . وكان ينظر الى المستقبل نظرة المتفائل مؤمنا بأنه سيكون له دور مهم على مسرح الحوادث . يحكى انه فى حديثه مع بعض زملائه عن المستقبل قال لهم . لابد لى أن أملك الأندلس ، وأقود العسكر وأنفذ حكمى فيها(٥) .

وقد تغنى عدد من الشعراء به مشيدين بشجاعته وبطولاته ، وحسن نسبه ، منهم الشاعر أبو عمر أحمد ابن محمد بن دراج المعروف بالقسطلى حيث قال فيه :

تلاقت عليــه من تميم ويعـــرب	شـموس تلألأ فى العـــلا وبدور
مــن الحميريين الذين أكفـــهم	سحائب تندى بالندى وبحور(٦)

ولقد تولى محمد بن ابى عامر عـــدة مناصب فى الدولة الأمويه بالأندلس . ذكرت بعض المصادر التاريخية ان كل منصب تولاه كانت تسانده فيه الأميرة (صبح) زوجة الخليفة الحكم المستنصر ، وام الخليفة هشام المؤيد . وكان أول منصب تولاه عندما عين وكيلا لخدمة الأميرة (صبح) وولديها عبد الرحمن وهشـــام ، ثم تولى ادارة أموال وضياع الأميرة صبح ، ثم شؤون الخزانة العامة لأموال الدولة ، وبعدها تولى

خطة المواريث ثم قضاء اشبيلية(٧) ولبلة واعمالهما ثم أمينا لدار السكة، ثم وكيلا للخليفة هشام المؤيد . وقد أسند اليه الخليفة الحكم المستنصر كثيرا من المهام السياسية ؛ وذلك لما لاحظه عليه من الذكاء والفطنة ، كما كان محل ثقة وتقدير الخليفة الحكم ، حيث أرسل معه كمية كبيرة من الأموال والهدايا الى البربر لينضموا الى جانبه .

وهكذا استطاع محمد بن ابى عامر بما اوتى من ذكاء وفطنة أن يصل الى اعلى وظائف الدولة فى قصر الخلافة وذلك خلال مدة قصيرة، لا تتجاوز عدة أعوام ، كما استطاع أن يصل الى الملك بالرغم من انه لم يكن من أسرة مالكة ، وهذا ما ذكره عن نفسه .

وقد اختلفت الروايات التاريخية حول كيفية اتصال محمد بن ابى عامر بالخليفة المستنصر وزوجته صبح حتى استطاع أن يصل الى حكم بلاد الأندلس ، فبينما يذكر المقرى أن اتصاله بهما تم عندما طلبت الأميرة صبح مديرا لأموالها فذكر لها عدد من فتيان القصر محمد بن أبى عامر الذى كان يملك دكانا صغيرا مقابل قصر الخلافة ، حيث كان يكتب الشكاوى والمعاريض الناس ، ومن يريدون الدخول الى الخليفة الحكم المستنصر ، فاستحسنت أسلوبه وعينته أمينا لبعض أمورها الخاصة(٨).

ولم يلبث ان استطاع أن يستحوذ على اعجاب زوجات الخليفة الحكم المستنصر بفضل لباقته وحسن معاملته وعطائه ، فلفت ذلك انتباه الخليفة الحكم المستنصر فدخله الشك حيث قال لأحد من يثق بهم من رجاله «مالذى استلطف هذا الفتى ؟ حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يضعن الا هداياه ولا يرضين الا ما آتاه . انه لساحر عظيم ، أو خادم لبيب ، وانى خائف على ما بيده »(٩) .

وكان أن دفع هذا الشك احد خصوم محمد بن أبى عامر الى اتهامه أمام الحكم المستنصر بأنه مسرف فى أموال الدولة ، مبدد لها ، ينفقها فى سبيل مصالحه الشخصية ، وتكوين الأنصار والمؤيدين له . وعندئذ تأكد شك الخليفة المستنصر فيه ، وطلب منه أن يقدم له حساب الخزانة

العامة لأموال الدولة التى كان المسئول الأول عنها . وكانت الخزانة تعانى عندئذ عجزا كبيرا فيها ، مما دفع المنصور ان يلجأ الى أحد المقربين له ، وهو الوزير (ابن حدير) وكان مشهورا بثرائه ، فأخذ منه المنصور المال الكافى الذى استطاع به أن يغطى هذا العجز فى خزينة الدولة ، فزالت شكوك الخليفة فيه ، وازدادت ثقته به .

وهناك رواية أخرى تذكر كيفية اتصال محمد بن أبى عامر بالخليفة الحكم المستنصر ، أوردها ابن بسام حيث يذكر أن ذلك الاتصال تم عندما كان الخليفة الحكم المستنصر يريد ان يعين مشرفا لادارة أملاك ابنه عبد الرحمن . فاسند هذه المهمة لمحمد ابن أبى عامر بناء على ترشيح الوزير جعفر بن عثمان المصحفى له . ثم أخذ محمد بن ابى عامر يتقلب فى مناصب الدولة ، بفضل وقوف الأميرة صبح وراءه فى كل منصب يتولاه مساندة ودافعة له .

وتذكر بعض المصادر أن من ضمن المناصب التى تولاها محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة الوسطى فى عهد الحكم المستنصر سنة ٣٦١هـ، ثم قاضى العدوة ، وخطة المواريث(١٠) .

كذلك قام بمهام سياسية بتكليف من الخليفة الحكم المستنصر ، ومن هذه المهام أن الخليفة المستنصر جعله يرأس الوفد المكلف باستقبال يحيى ابن على بن حمدون أحد أمراء بنى خزر من أمراء قبيلة زناتة البربرية، وهم ممن استعان بهم الخليفة الحكم للقضاء على الدولة الفاطمية ببلاد المغرب .

وهكذا أخذ شان المنصور محمد بن أبى عامر يعلو ويثبت فى الدولة الأموية فى الأندلس بعد أن تولى الاشراف على تربية الأمير هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بتكليف من والده الخليفة الحكم ، كما أسند اليه مهمة تنظيم البيعة بولاية العهد لابنه القاصر (هشام المؤيد) . وقد مكنه ذلك من الاستيلاء على السلطة فى الأندلس بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر .

وكانت له جهود فى الحفاظ على منصب الخلافة للخليفة هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بعد أن قام باحباط المؤامرة التى كان يخطط لها الفتيان الصقالبة،صاحب البردةوالطراز فائق وجؤذر صاحب الصاغة، واستهدفت هذه المؤامرة خلع الخليفة هشـــام وتولية عمـــه المغيرة بن عبد الرحمن ، بشرط أن يعهد المغيرة للخليفة هشام بولايةالعهد من بعده.

المميزات العامة لشخصية المنصور بن أبى عامر :

وفى دراستنا لشخصية المنصور محمد بن أبى عامر يتضح لنـــا أن أهم ما كان يميز هذه الشخصية ذكاؤه وفطنته وقـــدرته على تصريف الامور ومواجهة المصاعب ، هذا فضلا عن أن طموحاته الشخصية كانت لا تعرف حدا . وكثيرا ما كان يعبر عن طموحاته فى حديثه مع أصحابه ، فيدفعهم ذلك للاستهزاء به والسخرية منه .

ولكنه كان يصر علىموقفه مخاطبا اياهم بقوله : تمنوا على ،فتمنى كل منهم أمنية خاصة به الا صديقه موسى بن عزورن ، فقد استبعد حدوث ذلك الشىء ، فقال ساخرا له : اذا أمضى اليك الأمر يا صاحبى فأمر أن يطاف بى فى قرطبة على حمار ووجهى الى الذنب ، وأنا مطلى بالعسل ليجمع على الذباب(١١) .

كذلك امتاز المنصور بمميزات أعلت من قدره ورفعت من شأنه . فالمتتبع للاحداث التى جاء فيها ذكر المنصور بن ابى عامر أثناء حكمه يدرك تماما أنه لم يكن ذلك الرجل المتعسف الظالم ، بل انه حرص كل الحرص على أن ينشر العدل ؛ دون أن يعمل حسابا للفروق الاجتماعية. كما كان حريصا علىأن يشمل عدلهالعامة والخاصة ؛ من ذلك أن رجلا من العامة تقدم اليه فى مجلسه فشـــكا اليه مماطلة القاضى عبد الرحمن بن فطيس فى قضية بينه وبين أحد فتيانه صاحب الدرقة(١٢) وذلك لمكانة صاحب الدرقة فى بلاط المنصور ، فما كان من المنصور محمد بن أبى عامر ، الا أن أنكر على القاضى عبد الرحمن بن فطيس تصرفه هذا ، وعجزه وتهاونه فى الحسم فى هذه القضية بقوله : ما اعظم بليتنا من هذه الحاشية ؟ ، ثم نظر الى الفتى الصـــقلبى وطلب منـــه أن يدفع

«الدرقة» الى أحد رجاله ، وان ينزل صاغرا الى مقام خصمه حتى يرجع الحق بينهما(١٣) .

وقد عرف المنصور من قبل رعيته بالعدل والانصاف ، بحيث كان كل من شعر باغفال ، او هضم لحقه يحاول أن يوصل شكواه الى المنصور بن ابى عامر فلا يخذله ، ويأخذ الحق له . وقد حكى عن أحـــد تجار المغرب انه جرت بينه وبين أكبر خدم المنصور والمشرف على داره ويدعى (البورقى) خصومة وجب فيها اليمين على (البورقى) ، فدافع عنـــد الحكم ؛ ظنا منه أن منصب (البورقى) وجاهه عند المنصور لايستدعى استحلافه . فما كان من التاجر الا أن وقف المنصور بن أبى عامر وهو فى طريقه المسجد الجامع لتادية الصلاة فيه ، وطلب منه انصافه من هذا التاجر ، فطلب المنصور أن تحال قضية التاجر المغربى للحاكم لينظـــر فيها ، كما امر ان يعزل خـــادمه (البورقى) من الخـــدمة ونفاه الى الأندلس(١٤) .

وكان من الأشياء التى تشغل بال المنصور ، ويصرف اليها جل وقته اهتمامه بتوفير الأمن والطمأنينة لرعيته ولدولته ، فكان دائم السهر على مصلحتها . وقد أنكر عليه أحد خدمه الملازمين له طول سهره ، وطلب منه أن يأخذ قسطا من الراحة ، فما كان رد المنصور عليه الا ان قال له : حارس الدنيا لا ينام اذا ما نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لمـا كان فى هذا البلد عين نائمة ... »(١٥) .

وهكذا جمع المنصور بين سياسة العدل والسهر على مصالح الرعية ، وسياسة الحزم والعزم واليقظة ـ اذا ما استدعت الأمور ذلك . كل ذلك مع حسن معاملة الرعية والحرص على اكرامهم ، وبذلك كسب محبتهم له واقبالهم عليه(١٦) .

ولعل ما ذكره عنه ابن عذارى لأوضح دليل على ذلك ، اذ يقول « احتاج الناس اليه ، وغشوا بابه فاسالهم ، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه سعة صدر ، وكرم لقاء ، وسهولة حجاب ، وحسن اخلاق ، فعرف جاهه ، وعمر بابه »(١٧) .

كذلك كان المنصور محبا للعفو مشجعا عليه . من ذلك أن احد فتيان قرطبة وهو من اهل الأدب كان فى شىء من العوز والحاجة ، فاشتغل فى خزانة الدولة فامتدت يده الى بعض المال فاخذ مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فبلغ أمره المنصور محمد بن أبى عامر ، فاستدعاه واستجوبه فيما نسب اليه ، فاعترف الفتى بذلك .. فأمر المنصور بحبسه والتشديد عليه . فانشد الفتى أبياتا قال فيها :

أواه أواه وكم ذا أرى	اكثر من تذكار اواه
ما لامرىء حول ولا قوة	الحول والقوة لله

فلما سمع بها المنصور بن أبى عامر ، طلب احضار الفتى اليه وسأله بقوله : أتمثلت ام قلت ... فقال الفتى : بل قلت . فعفا عنه المنصور ثم انشد الفتى هذه الأبيات :

اما ترى عفو ابن عامر	لابد أن تتبعه منه
كذلك الله اذا ما عفا	عن عبده ادخله الجنة(١٨)

فلما سمع المنصور بذلك ، أمر بالعفو عنه ، وكافاه بالمال .

وكان المنصور شديد المخافة من الله ومن عقابه ، فكانت تعرض عليه أسماء من طالت مدة سجنهم النظر فيهم والعفو عنهم . وكان من ضمن هذه الأسماء اسم لأحد خدامه ، كان قد غضب عليه المنصور فامر بحبسه ، ووضع تحت اسمه : لا سبيل فى اطلاقه حتى يلحق بامه الهاوية . فعرف الرجل السجين بما تم فى شانه ، فاخذ يدعو ربه ويناجيه ، فاصاب المنصور القلق والأرق فى نومه ، حيث كان يأتيه عند نومه شخص عنيف ليطلب منه اطلاق سراح الرجل ويتوعده على حبسه . فما كان من المنصور الا أن امر باطلاق سراحه فى كتاب قال فيه « هذا طليق الله على رغم انف ابن أبى عامر »(١٩) .

كذلك كان للمنصور هيبة فى جنده ورجاله لم يؤتها ملك قبله ، فكان مكان الاحتفال الذى يحضره المنصور بن أبى عامر يعمه الصمت

والسكون والاطراق ، حتى ان الخيل تمتثل لانصات فرسانها ، فلا تذكر الصهيل أو الهمهمة(٢٠) .

ولعل ما أورده خلف بن حيان والد الامام أبى مروان حيان بن خلف من حادثة تبين مدى ما كان عليه المنصور من هيبة واحـــترام فى نفوس رجاله وحاشيته ، وما كان عليه من تواضع ورفق بالرعية . ذكر ابن حيان أن المنصور قد لاحظ عليه حالة الفزع والهيبـــة من سلطانه ، فاستدعاه عندما فرغ مجلسه من الحضور ، وسأله عـــن سبب فزعه ، واستنكر ذلك عليه بقوله : من وثق باللـــه برىء من الخون والقوة،وانما انا آلة من آلات الله تعالى أتصرف بمشيئته واسطو بقدرته ، واعفو عن اذنه ، ولا أملك لنفسى الا ما املك لى ، فازل عنك روعك ، فانما أنا ابن امرأة من تميم ، طالما تقوتت بثمن غزلهـا ، ثم جاء من اللـــه تعالى ما تراه(٢١) .

وكان المنصور يتصف بالعطف والرحمة على أفراد رعيته . هـذا ما أورده المقرى عنه فى حادثة يذكر فيها : أنه بينما كان المنصور عائدا من احد غزواته على مملكة نبرة النصرانية ، لقيته امرأة وشكت اليه أن لها ابنا اسيرا فى بلاد الافرنج وعرفته باسم تلك البـــلاد ، فما كان من المنصور الا أن طمأنها وقام بفتح تلك البلاد واطلق من فيهـــا من أسرى المسلمين(٢٢)

وهكذا كان المنصور رجلا حازما قويا ، مما مكنه من ضبط الأمور الداخلية فى دولته حتى جعل منها دولة قوية صامدة ، بالرغم من الأوضاع السياسية المضطربة التى أوشكت أن تعصف بها عندما ولى أمورها . وقد عبر ابن عذارى عن ذلك بقوله : « فقام بتدبير الخلافة وأقعد من كان له فيها اذافة .. وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب اخشن دياسة. واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس نصفا وعشرين ، ولم تدحض سعادتها حجة ، ولم تزخـــر المكروه بها لجه ، لبســـت فيها البهـــاء والاشراق»(٢٣) .

كذلك كان المنصور شديد الخشية من الله والرغبة فيما عنده ، يتبين

ذلك من قوله لابن حيان فى احدى مخاطباته له « يا ابن حيان ، ان افضل الناس غرسا من غرس الخير ، وان أفضل السلطان غرسا ما أثمر فى الآخرة . ومن أنا من الله تعالى لولا عطفى على المستضعف المظلوم، وقصمى الجبار المغشوم اللاهى عن حقوق ربه بفسوقه ودنسه »(٢٤) .

وحسب المنصور قول عبد الله بن بلكين آخـــر ملوك بنى زيرى بغرناطة عنه :(٢٥)

« وكان ـ المنصور ـ بالرغم من أعباء الحكم ، وكثرة غـــزواته ، واتصال جهاده محبا للعلم ، شغوفا بالأدب ، مقدرا من ينسب اليهما ويفد عليه . وكان دقيقا فى اختيـار هؤلاء الشـــعراء والتمييز بين قدراتهم الشعرية » .

★ ★ ★

اما أهم ما يميز سياسة المنصور محمد الخارجية والحربية ، فكان جهاده الصادق للحد من أطماع القوى المسيحية فى الممتلكات الاسلامية فى شمال الأندلس . وقد انطلقت سياسة المنصور محمد بن أبى عامر العسكرية من خطة محددة ذات أبعاد واضحة استهدفت ســـحق القوى العسكرية للممالك النصرانية واخضاع سادتها ، ولم يكن الهدف من حروبه التى شنها على القوى المسيحية فى الشمال ـ كما قال بعض المغرضين طريقا الوصول الى قلوب جماهير المسلمين فى اسبانيا ووسيلة لدعم طموحاته السياسية(٢٦) . ذلك أن المنصور استطاع فعلا أن يحول بين النصارى وأطماعهم فى بلاد المسلمين ، اذ لم تقتصر جهوده على رد هجماتهم على الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتـــدت الى الفتح والتوسع فى بلادهم الواقعة شمال الأندلس وبذلك أصبح قوة يخشـــاها ملوك تلك البلاد مما اثار الفزع فى قلوبهم .

ثم انه عمل على نشر الاسلام فى البلاد التى غزاها ، ويقال انه كان يغزو فى السنة مرتين احداهما فى الصيف وتعرف بالصائفة والثانية فى الشتاء وتعرف بالشاتية . وأدت هـــذه الغزوات الى استنزاف قوة

النصارى ، وشل حركتهم التوسعية ؛ مما دفع كثـــيرا من الشـعراء الى التغنى ببطولاته(٢٧) ٠

وقد تباينت المصادر فى ذكر عدد غزوات المنصور لبلاد النصارى ، فمنهم من ذكر انها خمسون غزوة ٠ ومنهم من ذكر انها اثنتان وخمسون غزوة ٠ وقيل : أربع غزوات وقيل سبع غزوات٠ وقد ذكر ابن خلدون بانها اثنتان وخمسون غزوة كلها تمت تحت قيادته ٠ وفى ذلك يقول ابن خلدون « ورد الغزو بنفسه الى دار الحرب ، فغزا اثنتين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ، ولا غل له جيش ، ولا أصيب له بعث ، ولا هلكت سرية»(٢٨) ٠

وكان من الطبيعى أن يهتم المنصور بتقوية الجيوش الاســلامية فى الاندلس ؛ لتستطيع مواجهة الأعداء ، فعمل على دعم جيشه وتجهيزه بكل المستلزمات الحربية٠وزاد من عدد الجيش ، ورتب الجند معاشات شــهرية مجزية ، لتشجعهم على مواصلة الجهـــاد ، كما كان يصرف الجنود مكافآت مغرية بعد كل غزوه أو سرية ، يتحقق له فيها النصر ٠ ولاشك فى أن سياسة المنصور الحربية ودأبه على مواصلة حركة الجهاد ، ادت الى زعزعة كيان الممالك النصرانية شمال الأندلس حتى بلغت فى عهد المنصور درجة شديدة من التمزق والضعف٠ولم يقبل المنصور من أعداء الاسلام صلحا ولا مهادنة ، مما جعل القوى المســـيحية تلجأ الى تغيير خططها العسكرية ، فتحولت من الهجوم على الممتلكات الاسلامية الى الدفاع لمواجهة قوة المنصور العسكريه الساحقة ٠

ومن أشهر حروب المنصور محمد ، تصديه لاطماع الملك (ردمير الثالث) ٣٥٥ - ٣٧٢هـ/٩٦٦ - ٩٨٢م ملك ليون الذى حاول الهجوم على الممتلكات الاسلامية مستغلا صغر سن الخليفة هشام المؤيد ٠ فقام بالهجوم على قلعة (رباح) وهى احدى الكور الاسلامية المهمة ؛ وساعد فى هـذا الهجوم أهالى امارة قشتالة فعاثوا فى بلاد المسلمين فسادا وتخريبا مما دفعهم الى الاستنجاد بالحاجب جعفر المصحفى القائم على دولة الأندلس فى بداية عهد الخليفة هشام المؤيد ٠ وعندما رأى المنصور محمد تقاعس

الحاجب المصحفى عن حماية بلاد المسلمين ، أعد جيشا خرج به من قرطبة فى الثالث من شهر رجب سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م . قاصدا أراضى ليون وقشتالة(٢٩) فحاصر حصن (الحامة) فى جليقية ، وأنزل باهله هزيمة فادحة ، وقام بفتح الربض التابع له ، والذى تم بناؤه على يد الملك ردمير الثالث(٣٠) وعاد الى قرطبة منتصرا(٣١) . ثم قام بحملة أخرى انطلقت من مدينة طليطلة وتمكن بها من فتح كثير من الحصون النصرانية . كذلك تمكن المنصور من فتح مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غرب مملكة ليون . ومن غزوات المنصور المهمة غزوه مملكة ليون ، لمعاقبة ملكها ردمير الثالث فتمكن من هزيمته وقام بهدم مملكته واستباحها لجنده .

ومن أهم غزوات المنصور تلك الغزوة التى عرفت باسم (اوشنت ياقب) - أى القديس يعقوب - وهى عاصمة اقليم (جليقية) فى الشمال . وقد اشتهرت هذه المدينة بأنها من أعظم معالم اسبانيا ؛ لمكانتها الدينية التاريخية ، كما تعتبر من أمنع معاقل اسبانيا النصرانية وأشدها صعوبة لموقعها الجبلى الوعر الذى حال دون وصول المسلمين الفاتحين اليها . ولم يفكر احد هؤلاء الفاتحين قبل المنصور بن ابى عامر فى اقتحامها ، حتى غزاها المنصور بن أبى عامر ٣٨٧هـ/٩٩٧م على رأس جيش وبمعاونة الأسطول البحرى ، وتمكن من اقتحامها(٣٢) .

وكان لانتصار المنصور فى هذه الحملة صدى واسع ، وفرحة كبيرة فى نفوس المسلمين فى الأندلس ، وأشاد ابن دراج القسطلى بهذه الحادثة التاريخية بقوله(٣٣) :

ووقفت دون الدير فيها وقفة ... كانت لنصر الله فيها موعدا
وبرأى عينى يوم خضت لفتحها ... بحرا من البيض الصوارم مزبدا

وبعد أن غزا المنصور مملكة ليون تطلع لغزو بقية الوحدات المسيحية فى شمال شبه الجزيرة ، فقام بغزو امارة قشتالة سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م ؛ وذلك لمواجهة الحلف العسكرى النصرانى الذى نظمه أميرها (سانشو غرسيه) ، والذى كان يضم عددا من ملوك النصرانية . وقد واصل فتوحاته فى أراضى قشتالة الى أن وصل الى عاصمتها (برغش) سنة

٣٩٠هـ/١٠٠٠م . وفى هذه الغزوة أظهر المنصور وجنده روحا عالية ، وخاصة بعد أن اهتز بعضهم امام ضخامة جيش العدو وفكروا فى الفرار ، اولا أن من الله على المسلمين بالنصر وعندئذ وجه المنصـــور الى جنوده وقواده بيانا عسكريا قال فيه : « وكثيرا ما فرط من قولكم انكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول ، فحين جاءكم شاغبة بالامنة وقاتلكم بالشريطة اذكرتم ما عرضتم ونافذتم حتى فررتم فرار اليعافير(٣٤) من أسار(٣٥) الفيل ، واجفلتم اجفال الرئال(٣٦) من المقتصين . ولولا رجال منكم دحصوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل ، ابرئت من جماعتكم وشملت بالموجـــود كافتكم ، وخرجت الامام والأمة من عهدتكم ونعمت المسلمون فى الاستبدال بكم ، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر ، وحسن عقبى . فلابد أن ينصر دينه بمن شاء»(٣٧) وقد كان الشاعر ابن دراج شاهدا ايضا هذه الوقعة حيث تمثل فيها هذه الابيات :

ان تفخـــر الدنيا فانت فخارها	أو تختر العليا فانت خيـــارها
وعدا على الله حقا نصر من نصره	وحكم سيفك فى هامات من كفر

الى أن يقول :

هلال بنور السعد والحق مقمـر	أهل على الاسلام الله اكبر(٣٨)

ومن الجوانب المضيئة فى حياة المنصور انه استطاع أن يشمل بلاد المغرب بنفوذه ، بغرض القضاء على النفوذ الفاطمى ، وبذلك استطاع ان يوسع نفوذ الدولة الأموية بالأندلس حتى غدا يضم مراكش كلها بما فيها مدينة (فاس) ، ولا شك فى ان المنصور استغل اضطراب الأحوال السياسية فى منطقة الشمال الافريقى ، وذلك بعد ان نقل المعز لدين الله الفاطمى مقر الدولة الفاطمية عن بلاد المغرب الى مصر . وقد استطاع المنصـــور محمد بحذكته السياسية وحسن معالجته للامور ان يكسب محبة وموالاة معظم أهل المغرب البربر الزياتية فاحبوه ، وتفانوا فى طاعته(٣٩) .

ولا شك فى ان المنصور احس بالزهو والفخر بعد أن حقق هذا القدر من الانتصارات فى سبيل الدفاع عن الدولة الاسلامية فى الأندلس والحفاظ عليها . وقد عبر عن ذلك ببعض الابيات الشعرية ، التى يقول فيها :

الم ترنى بعت الاقامة بالسرى
ولين الحشايا بالخيول الضوامر ؟
تبدلت بعد الزعفران وطيبه
صدا الدرع من مستحكمات المسامر
ارونى فتى يحمى حماى وموقفى
اذا اشتجر الأقران بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامر
بسيفى اقد الهام تحت المغافر
فلا تحسبوا أنى شغلت بغيركم
ولكن عهدت الله فى قتل كافر(٤٠)

وبالاضافة الى شجاعته فى ميدان الحرب ، كان المنصور سياسيا محنكا استطاع أن يكسب بسياسته احترام أعدائه فى نفوسهم ، مما دفع كثيرا منهم الى التقرب منه ، ومحاولة كسب وده فعقدوا الصلح معه ، وارسلوا السفارات لكسب صداقته . ومنهم على سبيل المثل : شانجه بن غرسيه حاكم امارة (نافار) . وعندما قام شانجه بن غرسيه بنقض الصلح مع المنصور قام المنصور بعدة هجمات على امارته ، وعندئذ اسرع الملك النصرانى (شانجه) باعلان طاعته المنصور وتجديد العهد معه ، بل لقد اهدى ابنته له ، فتزوجها المنصور ، وأنجبت منه ابنه (عبدالرحمن)الذى عرف باسم (شنجول) تصغيرا لجده لأمه .

وهكذا توالت على بلاط المنصور سفارات متعددة من قبل ملوك النصارى فى الشمال معلنة ولاءها له . ومن بين هذه السفارات تلك السفارة التى كانت برئاسة ولى عهد امارة قشتالة ، وكان موفدا من قبل ابيه غرسيه .

كذلك كان من بين السفارات التى قدمت على بلاط المنصور سعيا

لكسب صداقته وحسن رضائه تلك السفارة التى كانت برئاسة الأمير « غذر شلب » ابن شانجه بن غرسيه (ملك نافار) الى المنصور ، وكان ذلك عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م وقد اشاد بها ابن دراج بقوله :

ورمى «ابن شنج» اليك نفس محكم
نهج الخضوع لها سبيل رشادها

الى أن يقول :

مستنجد منه مذلة خاضع
غنم الحياة ابوه باستنجادها(٤١)

وفى الداخل حكم المنصور البلاد بحزم ،فتصدى لكل حركةاستهدفت اثارة البلبلة والشغب فى الدولة لتحقيق أطماع خاصة بها . ومن هذه الحركات حركة زيرى بن عطية الذى أعلن الثورة سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م على المنصور ، متهما اياه باغتصاب الحكم من الخليفة هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر . فدخل فى حرب مع المنصور بن أبى عامر ، ولكن المنصور تمكن من انزال هزيمة نكراء به سنة ٣٨٨هـ/٩٨٨م .

اصلاحات المنصور ومنجزاته الداخلية :

(أ) منشآت المنصور العمرانية :

لم تقتصر الجوانب المضيئة فى حياة المنصور على الجانب الحربى فقط ، بل شملت أعمال المنشآت العمرانية فى البلاد الأندلسية . ومن أجل أعماله توسعاته الكبيرة فى المسجد الجامع بقرطبة سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م . وذلك حين لاحظ أن المسجد بدأ يضيق بالمصلين ، فقام بشراء الدور المحيطة بالمسجد من أصحابها ، وأمر بهدمها ، وأدخل أراضيها فى ساحة المسجد . وقد استغرقت هذه التوسعة ما يقرب من العامين والنصف تقريبا(٤٢) . وقد حرص المنصور على توخى العدل والالتزام به ، حينما أقدم على شراء هذه الدور من أصحابها ؛ حتى لا يحيق ظلم أو غبن بهم . من ذلك أنه راعى أن يكون شرائها عن طيب خاطر من صاحبها ، كما أنه ترك له الحرية فى طلب المبلغ الذى يرغبه(٤٣) .

ومن أعماله الانشائية كذلك انشاء القصور والمدن فى الانحاء التى تتميز بحسن طبيعتها واعتدال مناخها داخـــل الدولة الاســـلامية فى الاندلس . وكانت الصفة الغالبة على هذه القصور هى جمال التصميم وحسن التنفيذ . ومن هذه القصور قصر الزاهرة على نهر قرطبة وقد اطلق عليه اسم قصر الزاهرة نسبة الى المدينة ، التى قام بتأسيسها المنصور سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م شمال شرق قرطبة لتكون مقرا له . وكذلك انشاء قنطرة قرطبة على نهر قرطبة سنة ٣٧٨هـ ، وذلك لتخفيف الضغط على القنطره التى قام بانشائها عبد الرحمن الداخل ، والتى تعرضت السقوط عــدة مرات ، بسبب جرف السيول لها . وقد ربطت هذه القنطرة شمال قرطبة بجنوبها ، وبذلك سهلت حركة مرور السكان من جهة الى أخرى . ومن أعمال المنصور أيضا انه قام باعادة بناء قنطرة مدينة طليطلة سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م وكانت قد هدمت بأمر الأمير محمد بن هشام من حفدة عبدالرحمن الناصر والملقب بالمهدى ، وذلك انتقاما من أهلها الثائرين عليه(٤٤) . وامر المنصور ببناء قنطرة نهر اشتجه وهو نهر شنيل ، فســـهل بذلك الطريق الوعرة والشعاب الصعبة(٤٥) .

ولم تقتصر أعمال المنصور محمـــد بن أبى عامر العمــــرانية على الانحاء الواقعة داخل الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتـــدت الى الأجزاء التى فتحها فى بلاد النصارى فى الشمال . ويتضح ذلك من أنه عندما حضرته الوفاة ، كان بحضرته صاحب كوثر الفتى ، فرآه باكيا فساله قائلا « مم تبكى يا مولاى لا بكت عيناك ؟ » قال : « مما جنيت على بلاد المسلمين . فلو قتلونى وأحرقونى ما انتصفوا منى » فســـأله متعجبا قائلا له « وكيف ذلك ، وأنت اعززت الاسلام وفتحت البلاد ، وأذللت الكفر ، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم الى قرطبة حين بنيت بها جامعها ؟! » فقال له : « لما فتحت بلاد الروم ومعاقلها عمرتها بالأقوات من كل مكان وبنيت بها حتى عادت فى غاية الامكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين ، فاوصـــلت العمـــارة » ثم ابدى مخاوفه ممن سيخلفه فى عدم قدرته على المحافظة عليها ؛ لانشغاله بملذاته الشخصية ، الى أن قال : « فيجىء العدو فيجد بلادا عامرة حاضرة ، فيقوى بها على محاصرتها ، فلا يزال يتغلبها شيئا فشيئا ، ويطويها طيا

حتى يملك أكثر هذه الجزر ، ولا يترك فيها الا معاقل يســيرة . فلو الهمنى الله فى تخريب ما تغلبت عليه ، واخلاء ما تملكت ، وجعلت بين بلاد المسلمين وبلاد الروم عشرة أيام فيافى وقفارا ، لايزالون لو راموا سلوكها حيارى ، فلا يصلون الى بلاد الاسلام الا بعد جهد ومشقة»(٤٦)

ومن أعمال المنصور أيضا انه أعاد بناء مدينة سلا ، وهى رباط من ربط المسلمين.وكانت قد تخربت على يد المارقين عن الاسلام (برغواطة) فامر المنصور باعادة بناء أسوارها ، وبنى فيها مارستانا فخما ، وقصرا لمقر الجند ، كما بنى بها جامعا بديعا ، وقاعة للصلاة مزينة باللازورد ، والفسيفساء ،والنوافذ الزجاج الملون(٤٧) .

تنظيم الجيش :

بعد أن استتب الامر للمنصور محمـــد بن أبى عامر فى الدولة الاسلامية فى الأندلس ، أدرك أنه هو المسئول الاول عن بقائها وحمايتها، ورأى أن من اول واجباته العنــاية بالجيش ، لانه عمـــاد الدولة الأول والركيزة الأولى التى تعتمد عليها فى بقائها وقوتها . لذلك حرص المنصور ابن أبى عامر على بناء جيش قوى متماسك يتناسب قــوة وعـــددا مع الجيوش الاسبانية النصرانية المعادية للدولة الاسلامية والمعارضة لقيامها وكان أن فتح باب التطوع للانضمام الى الجيش الاسلامى وجعل الدخول فيه متاحا لجميع افراد طبقات المجتمع الأندلسى الاسلامى ، كما قام بالغاء النظام الذى كان معمولا به من قبل فى الجيش وهو نظام التجنيد الاجبارى ، واحل محله نظام التطوع ، بحيث ترك حرية الانخراط فى الجيش للأفراد . وقد أعلن المنصور ذلك بامر أصدره سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م بعد عودته من احدى غزواته فقال : ان من تطوع خيرا فهو خير ، ومن خف اليه فهو مبرور ومأجور ، ومن تثاقل فهو معذور(٤٨) . وكان لهذا النظام اثره فى نفوس أهل الأندلس اذ سارعوا بالانضمام الى الجيش ؛ رغبة فى نيل الأجر والثواب من عند الله . وكان لذلك أثره البالغ فى عدنى جهادهم ، وتفانيهم فى مواجهة الأعداء .

كذلك عمل المنصور على ازالة النظام التقليدى المعمـــول به فى

الجيش ، والذى كان يعتمد على زعماء العرب والبربر ، الذين استقروا وسط المزارع فى قلب البلاد ، فى وضع اقرب الى ما هو معـــروف فى النظام الاقطاعى . ويسمح لهم باستثمار الارض مقابل النهوض بمهمة القتال والجهاد ومعهم اتباعهم ، عندما يدعوهم الأمير الى ذلك ، وعندما ينتهى القتال يعودون الى مزارعهم بما حصلوا عليه من مغانم(٤٩) وقد أدى ذلك النظام مع مرور الوقت، الى نشـــأة تكتلات عسكرية ذات طابع سياسى فاصبحت مناطق اقامتهم شبه مستقلة عن الدولة واشعلوا كثيرا من الثورات وحركات التمرد . وصحب ذلك ظهور نزعات اســـتقلالية وانفصالية ، كادت ان تودى بوحدة البلاد وأمنها ، لولا ان تدارك هـــذا الأمر المنصور بن أبى عامر وعمل على الغائه .

ومن الملاحظ أن المنصور تحاشى الاعتمـــاد على طبقة الصقالبة كعنصر فعال فى الجيش بعد أن قويت شوكتهم فى زمن الحكم المستنصر ، فعمل المنصور على إبعادهم وعمل جيشا موحـــدا متماسكا يتالف من جميع فئات أهل الأندلس ، وبذلك يقضى على النزعات القبلية العنصرية داخل الجيش(٤٩) .

اهتمامه بالقضـــاء :

ومن النظم المهمة فى الدولة ، التى اختصها المنصور بالكثير من عنايته واهتمامه ، نظام القضاء ، اذ عمل على ضبطه وسيره فى الوجهة الصحيحة . ذلك انه تصدى لكل من حاول الاخلال بالقضاء ، أو ادخال شىء مناف عليه . يذكر المقرى عن المنصور انه سد باب الشفاعات ، وقمع اهل الفسق والزعارات ، حتى ارتفع البأس وأحس الناس بالأمن ، وأمنت البلاد عادية المجرمين(٥٠) . وقد أولى اختيار القضاة جل اهتمامه ، وتوخى فيهم حسن السلوك ، وحسن السيرة ، رغبة منـــه فى اشاعة العدل بين أفراد مجتمع الدولة الاسلامية . وكان اختياره للقاضى يقوم على أساس كفاءته التامة ونزاهته المطلقة ودرجة علمـــه . كذلك كان حريصا على فصل السلطة الزمنية عن السلطة القضائية ، بحيث منـــع التدخل فى شئون القضاء منعا باتا مع معاقبة من يثبت تدخله فى سير القضاء ، مهما يكن منصبه ، أو مكانته فى الدولة .

اهتمامه بالثقافة والعلم :

أما عن الناحية الثقافية والعلمية فى البلاد زمن حكم المنصور محمد ابن أبى عامر ، فقد احتلت الثقافة اهمية كبرى فى نشاطه ، ولم تشغله عنها أعباء الحكم ، او جهاده المتواصل ، فكان محبا للعلم والعلماء ، كثير اللقاء بهم ، والاستماع الى آرائهم ، الى جانب احترامه واهتمامه باهل العلم والأدب والشعر(٥١) وقد خصص لهم أماكن مستديمة فى مجلسه . ويحكى عنه أن له تذوق للأدب، والشعر ، حيث كان يفرق بين جيده ورديئه ، بحيث كان يمتحن قدرة الشعراء ، وموهبتهم الشعرية قبل السماح لهم بالقاء قصائدهم أمامه(٥٢) وكانت مكتبته زاخرة بكتب العلم والأدب والثقافة،كما انه أسند الى العلماء وظائف القضاء والتدريس فى مسجد قرطبة الجامع(٥٣) . والمعروف عن المنصور بن أبى عامر أن نشاته منذ صغره كانت فى بيت علم ، وادب ، وشعر .

★ ★ ★

وقد حظيت شخصية (المنصور بن أبى عامر) باهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، واختلفت وجهات النظر حول الحكم على هذه الشخصية الفريدة ، ما بين مادح لها ، وطاعن فيها . ونحاول نحن خلال الصفحات التالية عرض هذه الآراء ، وبيان وجه الحقيقة فيها .

أولا : مصادر اشادت بالمنصور بن أبى عامر :

١ - **ابن حيان :** وصف المؤرخ ابن حيان جهاد المنصور المشرف ؛ لأجل اعلاء كلمة الله فى عبارة ، نقلها عنه ابن عذارى ، وفيها يقول « تمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس ، ومحا من طواغيتها كل متعجرف ومتغطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم اذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدد الى اكبادهم سهام الفجائع ، واغص بالحمام ارواحهم ، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم»(٥٤) .

٢ - **الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء بنى زيرى بغرناطة :** قال هذا الرجل فى مذكراته عن المنصور : « وعلى الرغم من ان المنصور لم يكن من أسرة عريقة بالملك ، فانه حصل على ذلك بدهائه وعبقريته ،

وتدرجه فى المناصب ، وحسن تدبيره فى الدولة ، وأيضا كثرة غزواته وانتصاراته على النصارى ، والتى كانت تقابل باستحسان لدى أهــل الأندلس ... » الى ان يقول « وقد نال الاسلام فى عهده بالاندلس عـزا ونصرا ، لم تشهده الأندلس من قبل ، ووصل بالمسلمين الى بلاد النصارى وما كان لأى حاكم قبله أن يصل اليها »(٥٥) .

٣ ـ المؤرخ ابن عذارى : اعجب هذا المؤرخ بشخصية المنصــور ، ووصفه بصفات جليلة ، ورفع قدره بين الحكام والملوك ، وذلك فى رواية يقول فيها « كان المنصور بن ابى عامر متسما بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ،وخوفه من ربه ، وكثير جهاده . واذا ذكر بالله ذكر ، واذا خوف من عقابه ازدجر . وكان يكثر من قراءة القرآن الكريم ، ومايزال متنزها عن كل ما تغن به الملوك . وكان يهتم بالعلماء ، ويعلى مراتبهم ويجزل العطاء لجنده وكان ذا عقل بصير بالحرب»(٥٦) .

ثانيا : باحثون محدثون اشادوا بابن أبى عامر :

١ ـ محمد عبد الله عنان : وقد ذكر هذا الباحث خلاصة ايجابيات وانجازات المنصور ، فذكر انه كان قائدا مغوارا ، انشأ فى الأندلس جيشا منظما ، حارب به اعداءه (نصارى الاسبان) وأن أيامه فى الأندلس كانت اياما خالدة ، ساد فيها الأمــن والاســتقرار ، وازدهرت فيها التجارة والصناعة ، وتقدمت فيها العلوم والآداب ، وكثرت الأموال فى خزائن الدولة فى عهده(٥٧) .

اما بخصوص اهتمامه بالعلوم والفنون ، فقد كان يشجع العلوم والفنون ، وقام بانشاء دور العلم . وكان يقوم بزيارات للمدارس والحلقات العلمية فى المساجد ، كما أنه كان يمنح المكافآت لمستحقيها من طـلاب العلم . واثر عنه كثرة مجالسته للعلماء ومناظرتهم ، اذ كان له فى كل اسبوع مجلس يجتمع فيه مع العلماء ، والادباء والشـــعراء ، للمناظرة والبحث(٥٨) .

٢ ـ محمد لبيب البتانونى : اشاد هذا الباحث بشخصية المنصور ، وامكاناته الأدبية الفائقة ، ومهاراته وبعد نظره فى سياسة البــلاد فى

عهده ، فيقول « وكان من اكبر ملوك الاندلس سلطانا وفضلا ، وعلما وحسبا . له فى السياسة اليد الطولى ، وفى ادارة الحكم القدرة الفائقة. وكانت له مميزات فى صفاته وبعد نظره ، وفكر ماهر وقدرة كبيرة على تحمل الشدة(٥٩) .

٣ ـ المؤرخ الاسبانى ماسديه : أعجب هذا الباحث الغربى بقدرات المنصور السياسية ، ونجاحه فى توحيد مملكته ، وقوة شخصيته ، وحسن معاملته لمن استسلم لجنده من أهالى المدن النصرانية التى تم فتحها على يديه ، ويعبر عن ذلك بقوله « كان المنصور سياسيا كبيرا وقائدا عظيما ، أخمد الثورات التى كانت تعصف بمملكته . واكتسب محبة الشعب بجميع طبقاته ، وبرز فى شهرته وهيبته على كثير من القواد ، بما اجتمع فى احكامه من الصراحة واللين ، والقصاص والعفو . وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ولكنه لم يسمح ـ قط ـ لجنـــده أن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعا»(٦٠) .

٤ ـ المؤرخ منديث بيدال : قارن هذا الرجـــل بين حال الدولة الاسلامية بالأندلس ايام المنصور بن ابى عامر وما وصلت اليه من مجد وفخار ، وبين ما انحدرت اليه ممالك النصارى فى الشـــمال من ضعف وهزال .وقد وصف هذا الوضع بقوله : « عاش الاسلام فى أسبانيا أرفع ايامه واسطعها ، وانتهى نصارى الشمال الى حالة دفاع ، وكانت أيامهم مقرونة بالمدن . ولاح كانهم لم يعيشوا الا لتأدية الجزية ، والســلاح ، والأسرى . والمجد الخلافة الأموية »(٦١) .

★ ★ ★

على أن التاريخ لا ينظر الى الأمور من زاوية واحدة ، وعلى ذلك لابد من الاشارة الى الرأى الآخر فى حكمه على المنصور . ويكون ذلك بتحديد الاتهامات التى وجهت الى المنصور ، والمآخذ التى أخذت عليه .

الاتهام الأول ـ اتهم المنصور بأنه اغتصب حكم بلاد الأندلس لنفسه، وحكم البلاد حكما مركزيا مطلقا . وذلك بأن حجر على الخليفة الشرعى (هشام بن الحكم) حتى اصبح هو الآمر الناهى فى كل صغيرة وكبيرة

من شئون الدولة ، وهكذا غدا شبيها بامير الأمراء فى بغداد وقد وصف ابن عذارى(٦٢) المنصور بانه استأثر بكل سلطان الخليفة ، ولم يعد يكلف نفسه مجرد استشارة هشام ، أو اعلامه بما يجرى حوله ، كما اعتاد أن يفعل فى السنوات الأولى من حكم هشام المؤيد « لقد قصر الخليفة من جميعه ،وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه ، وشد باب قصره عليه ، وجد فى خبر الا يصل اليه . وجعل من يثق به من صنائعه على باب القصر ، لضبط حركة الدخول والخروج واوقف الحراس والبوابين ، يلازمونه ليل نهار . أما الخليفة هشام فهو خفى الذكر ، عليـــل الفكر ، محجوب عن الأحباب لا يراه خاص ولا عام ، ولا يعهد اليه الا الاسم الســـلطانى فى السكه والدعوة ، وقد نسخه ، ولبس أبهته ، وطمس بهجته ، واغنى الناس عنه ، وازال اطماعهم منه ، وصيرهم لا يعرفونه» .

وهذا القول مردود عليه بان المنصور رأى صغر سن الخليفة هشام وبلاهته ، وضعف عقله ، فقدر أن ظروف الدولة الحرجة امام الصراعات فى الداخل ، وتربص الأعداء فى الخارج ، لا تحتمل ترك مقدرات الأمة الأندلسية فى يد طفل صغير .

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن المنصور(٦٣) - عزل هشاما ، وحجبه عن شئون الدولة برضاء أمه ، اذ كان الخليفة مشغولا بمعاشرة القيان والجوارى والخدم ، مما افسد خلقه ، واضعف رجولته ، وحد من قدراته العقلية . فأنى له أن تكون مقاليد الدولة بيديه ؟!

الاتهام الثانى : أن المنصور تزوج من (اسماء) وهى ابنة القـــائد الغالب عبد الرحمن(٦٤) ، مستهدفا المكر والخديعة ، والوصـول الى أطماعه الشخصية .

ويرد على ذلك بان المنصور لم يســـتهدف من ذلك الزواج المـــكر والخديعة ، وانما اراد ابطال ما كان يدبره الحاجب (جعفر المصحفى) ، الذى كان ينوى تزويجها الى ابنه (عثمان) ، لتحقيق شىء من التفاهم والوئام بينه وبين القائد غالب ابن عبـــد الرحمن ، عن طريق هـــذه المصاهرة ، والتى عن طريقها يتم التحالف بين هـــذين الرجلين ضد

الخليفة هشام بن الحكم ، فيعملان معا على انتزاع السلطة منه . وكان المنصور يخشى قيام حروب وفتن فى البلاد ، لوجود منافسين آخرين لهما ، مما سيؤدى الى اضطراب أمور الدولة .

فاراد المنصور أن يسبقه الى الزواج من ابنة غالب ، ليقطع دابر الفتنة ، ويئدها فى مهدها .

الاتهام الثالث :

اتهم المنصور بعدم الانسانية ، وباتخاذ كافة السبل والوسائل غير الاخلاقية ، لأجل تحقيق مصالحه الذاتية . وأنه كان يسعى للوصول ولو على جثث الآخرين . ومن ذلك : اشتراكه مع القائد غالب بن عبدالرحمن فى غزوة (الصائفة ، والشاتية) ضد النصارى بمدينة (مجريط).ورغم ان النصر تم على يد غالب الا أنه نسب الى المنصور . وتم ذلك بناء على اتفاق أبرم بينهما ، يتم بمقتضاه قضاء المنصور على الحاجب (جعفر المصحفى).وكان ذلك عن طريق تقريب الخليفة هشام للمنصور ، لما عامه من تحقيق النصر على يديه ، ولما جلبه من غنائم وسبى . وكانت نتيجة هذا التقارب ايقاع المنصور بين هشام والمصحفى . ونجحت الوقيعة بأن اصدر هشام أمرا بعزل المصحفى من رئاسة الشرطة والمدينة ، واسناد ذلك الى المنصور . هذا بالاضافة الى ما قام به المنصور من تعذيب وسجن وذهب لآل المصحفى ، حتى هلك المصحفى فى السجن ذليلا .

ويرد على ذلك بأن هناك عوامل دفعت المنصور الى التخلص من المصحفى أهمها عاملان :

الأول - استبداد المصحفى بالسلطة فى الدولة بحكم مركزه فيها . اذ كان يعد الرجل الحقيقى الأول فيها .

الثانى - نقمة المنصور عليه ، واتهامه اياه بالتقصير فى الدفاع عن ثغور الأندلس ، ومواجهة اعتداءات النصارى على المسلمين الآمنين . لقد استنجد بالمصحفى أهل قلعة (رباح) ؛ لانقاذهم من ملك ليون (روميرالثالث ٣٥٥ - ٣٧٢هـ) ، الذى زحف بقواته على ذلك الثغر الاسلامى بمساعدة ادارة قشتالة ، فعاثوا فى الأرض فسادا . ولكن المصحفى وقف

موقفا سلبيا من هؤلاء المستضعفين رغم ما يملكه من عتاد ورجال واموال. وكان كل ما نصحهم به أن يهدموا سد نهر (أنه) ، لتحول مياهه دون عبور الأعداء اليهم . لذلك رأى المنصور ضرورة عزله لتهاونه وعدم قدرته على حماية بلاد المسلمين .

الاتهام الرابع :

اتهم ابن أبى عامر بانه رجل متعطش الى سفك الدماء ، مخادع ما كر على استعداد لعمل أى شيء فى سبيل الوصول الى اغراضه ومطامعه ، وأن صيرورة أمر هذه المملكة الأندلسية اليه بعد أن كان عبد الرحمن الناصر قد حقق لها وحدتها ، أدى بها الى الضعف والانحلال(٦٥) .

لقد قال البعض فى المنصور أنه كان ميكافيلليا قبل أن يولد ميكافيللى بقرون ، وأدرك أنه فى سبيل الوصول الى الحكم لابد من أن ينحى الضمير والوازع الاخلاقى جانبا . ولذا فانه قتل كل من كان يخشاه من أمراء البيت الأموى فى الأندلس . ولم يكتف المنصور بذلك ، بل كان يقضى على مراكز القوى الثانوية التى تنافسه . فمثلا قضى على عبد الرحمن ابن مطرف التجيبى من عائلة هاشم ، وكان يحكم (سرغوسه)(٦٦) .

ويرد على ذلك بان المنصور ادرك ان كل أمير فى البيت الاموى يطمع فى أن تكون الخلافة له من دون هشام بن الحكم ، فرأى ضرورة التخلص منهم ، لأن وجودهم سيؤدى الى اشعال الفتن والحروب الأهلية فى الدولة ، ويوجه نظر أعدائها من الاسبان نحوها ، بغرض الاستيلاء عليها .

لقد كان الخليفة هشام غير قادر على تحمل مسئولية الخلافة اذ كان يعيش للذاته الخاصة . وقد وصفه ابن سعيد بانه (نشا جامد الحركة، أخرس الشمائل ، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار فى صورة آدمى) الى أن قال عنه : (وكلما زاد سنا نقص عقلا) بل مما يدل على سذاجته وبلاهته الشديدة ، أنه عندما خلفه الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار

على اثر تنازله عن الخلافة بعبد الرحمن بن المنصور، لم يكن يشغله في ذلك الحدث الجلل الا طائره (الهدهد) الذى كان يتولى العناية به ، حيث قال لاحد غلمانه : بالله انظر هدهدى ان كان سلم ، وتفقـــده لئلا يهلك بالجوع والعطش فانه من ذرية الهدهــــد الذى دل سليمان على عرش بلقيس(٦٧) . هذا الخليفة المعتوه كان من السهل خلعه ، وانتزاع أمراء بنى أمية فى الأندلس عرشه ، ولذا كان لابد من موقف صارم لابن ابى عامر تجاه بقاء هشام فى الحكم(٦٨) .

اما ما يتعلق بحكام منطقة (سرغوسة) ، فقد خشى المنصور أن تثير هذه الأسرة الحاكمة القلاقل والفتنة داخل الدولة الاسلامية بالاندلس، خاصة اذا عرضنا تواطؤ حكامها وتعاملهم مع النصارى أعداء المسلمين فى مقاطعة الشمال الذين كانوا لا يتوانون فى القضاء على الاسلام ودولته.

الاتهام الخامس :

يؤخذ على المنصور تخليه عن العنصر العـــربى ، واعتماده على العنصر البربرى ، والصقالبة فى الجيش .

ويرد على ذلك بأن المنصور لم يتخل عن العنصر العربى تماما فى الجيش وانما حد من أعدادهم لازالة العصبية القبلية عن الجيش ، حيث ان الجيش فى عهد خلفاء بنى أمية فى الأندلس قبل تسلم المنصور زمام الأمور - كان يتألف من العنصر العربى فقط ، أو لعل هذا العنصر كان هو العنصر الغالب فى الجيش ، مما سبب الفوضى ، وأوجد الحزازات والعصبية داخل الدولة . وقد رأينا أن المنصور ، عمل ليجعل الجيش جيشا نظاميا ولذا أدخل فيه عناصر بشرية متباينة من تلك العناصر المكونة للمجتمع الأندلسى ، وقسم الجيش الى فرق متعددة كل فرقة تعبر عن احد العناصر المتباينة التى تألف منها المجتمع الأندلسى كالبربر ، والعرب والصقالبة(٦٩) .

وجدير بالذكر أن المنصور نكب صقالبة القصر ، وأن ذلك العمـــل رفع من قدره فى نظر الأندلسيين عموما ، وأهالى قرطبة خصوصا. لأن الجميع كرهوا تلك الفئة الدخيلة المتغلبة على شــئون القصر والبلاد .

الاتهام السادس :

وصف المنصور بن أبى عامر بالجبروت والعسف : نتيجة قتله ابنه وفلذة كبده : عبد الله . ونحن لانستطيع - ولا نقر - له عذرا فى مثل هذا التصرف الأخرق ، ولكن نترك المنصور نفسه يبرر تصرفه فيقول : أن ابنه عبد الله تآمر عليه مع خصومه التجيبيين أصحاب الثغر الأعلى ، كما تآمر مع خصوم أبيه فى قرطبة والزاهرة ، وذلك بالتجائه الى عدو المسلمين (غرسيه) كونت قشتالة ، الذى كان يكن الحقد والكراهية لأبيه - لقد أقدم المنصور على التخلص من ابنه ليحد من مؤامراته ، التى كانت تهدد بالقضاء على دولته وعلى دولة الاسلام فى الأندلس . وكان المنصور يدرك جيدا نوايا ابنه الخبيثة ، وما يدبره له من مكايد . وقد افصح عن ذلك لأحد أعيان البربر (طرزون بن زتراء البرازالى) ، وعندما استنكر عليه قتل ابنه ، فقال « لا يسؤك ذلك ، فلو لم افعل لقلتنى »(٧٠) .

الاتهام السابع :

يؤخذ على المنصور فى مجال الحياة الثقافية انه كان يكره الفلسفة والفلاسفة ، ولا يأنس الى علماء الفلك والتنجيم . وقد عبر عن نهجه هذا بصراحة ، حين أخرج بعض ما كان فى خزانة الخليفة الحكم المستنصر من نوادر المؤلفات الفلسفية والعقلية ، واحرقها بمحضر عـــدد من اكابر الفقهاء والعلماء .

ويرد على ذلك أنه ربما احس بان بعض كتب الفلسفة التى أحرقها كان فيها ما يخالف الدين وعقائده . وكان المنصور يحرص على الظهور بمظهر المدافع عن الدين كما كان حريصا على استحباب رضاء العلماء ، وكسب تأييد عوام الناس فى قرطبة(٧١) .

الاتهام الثامن والأخير :

أخذ على المنصور أن فتوحاته لبلاد النصارى لم يرافقها استيطان للمسلمين فى تلك البلاد المفتوحة . ولو أنه حقق ذلك الاستيطان ، لصعب على النصارى استردادها بعد ذلك .

ويرد على ذلك بأن ظاهرة الاستيطان ترتبط بالعامل النفسى عند الجنود المسلمين المحاربين فى جيش المنصور ، اذ من الواضح أنهم كانوا لا يرغبون فى الاستيطان فى تلك المناطق لعدم تأقلمهم وفق طبيعة تلك البلاد ، الى جانب احساسهم بأن بقاءهم فيها لا يدوم ، وربما تعرضوا للافتتان عن دينهم عند استرجاع النصارى لبلادهم(٧٢) .

★ ★ ★

واخيرا فاننا فى حكمنا على المنصور محمد بن عبـــد الله بن أبى عامر وتقويمنا له ، نرى :

١ ـ لا نستطيع أن ننكر المواهب والكفاءات والمهـــارات السياسية والقيادية ، التى تمتع بها المنصـــور ، والتى أهلته لكسب ثقة الحكم المستنصر ، وجعلته يتدرج فى المناصب المهمـــة التى ترقى اليها ، حتى وصل الى مرتبة الحاجب ، منافسا غيره من رجالات الدولة الكبار ، وعلى رأسهم (جعفر المصحفى) .

٢ ـ ولا ننكر ـ أيضا ـ ان الظروف خدمت المنصور للوصول الى ما وصل اليه من مجد . ذلك انه لم يكن من أهل بيت ملك فى عصر كان العظماء يتوارثون الملك كابرا عن كابر . فسعادة جده (حظه)(٧٣) مع ذكائه الفذ ، كل ذلك مكنه من الوصول الى أهدافه ، عن طريق التخطيط السليم ، متخطيا كل العقبات التى صادفت طريقه ، سواء تخطاها بسبل شرعية أم غير شرعية .

٣ ـ اذا كان يحسب للمنصور أنه صان وحـــدة الاندلس وحقق له الاستقرار تحت قيادته ، وحمى بلاد المسلمين من غزو النصارى لها ، بل لقد فتح كثيرا من بلادهم فى الشمال ، حتى غدا مصـــدر رعب وفزع مستديم لهم(٧٤) الا انه كانسان اجتهد فى سياســـته ، فأصاب أحيانا ، وأخطأ حينا . ويمكن تركيز خطأه فى مسألتين : احداهما داخلية ـ وذلك بالاكثار من استخدام البربر فى ديوان جيشه ، اذ تذكر المصادر أن عددهم بلغ ما يقرب من ثلاثة الاف فارس(٧٥) ، حقيقة انه كان يستهدف تقوية

الجيش الاسلامى المجاهد بهم ، ولكن ذلك أثار حقد العرب عليه ، وامتد هذا الحقد الى ما بعد وفاته ، وظهرت نتائجه فى عهد ابنه عبد الرحمن (شنجول) ، مما كان سببا فى اشعال الفتنة بين أهالى قرطبة والبربر ، وأدى - فى النهاية - الى سقوط الدولة العامرية بالأندلس .

والثانية خارجية - وهو خطأ اعترف به المنصور نفسه ، اذ حرص على المحافظة على البلدان والمدن والحصون التابعة لنصارى الشمال عندما قام بغزوها والاستيلاء عليها ، رغبة منه فى استفادة المسلمين منها فيما بعد . وبدلا من أن يعمل على تخريبها وفقا لروح العصر قام بتعميرها ، وخزن الاقوات بها ، تسهيلا لاستمرار الفتوحات الاسلامية نلبقاع النصرانية . فلما ضعفت الدولة الاسلامية بعد ذلك ، كانت تلك المناطق عونا للنصارى فى الاغارة على الثغور الاسلاميه فى الأندلس .

★ ★ ★

وبعد ، فاننا لا يسعنا فى ختام هذا البحث سوى أن نردد ما نقش على قبره من شعر بعد وفاته وذلك اشادة بما قام به من أعمال جليلة فى خدمة الاسلام والمسلمين :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبدا ولا يحمى الثغور سواه(٧٦)

الهـــوامش

(١) المراكشي : المعجب ص ٧٣ ·

(٢) ذكر ياقوت أن طرش ، بضم أوله وتشديد ثانيه وضمه أيضا ، ناحيـــة بالأندلس تشتمل على ولاية وقرى ·

(٣) ابن بسام : الذخيرة ١/٣٩ ـ ٤٠ ·

أحمد العبادي : تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ ·

(٤) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق ٢ ص ٧٧ ـ ٧٨ ـ نفس الصفحة ·

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٢ ص ٧٧ ـ ٧٨ ·

(٦) ديوان ابن دراج القسطلي ، ص ٣٠٠ ·

(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ ·

(٨) المقري : نفح الطيب ١/١٨٧ ·

(٩) ابن عذاري : البيان المغرب ٢/٢٦٨ ·

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ ·

(١١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٧٧/٧٨ ·

(١٢) الدرقة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب (أى : ولا غصب تعمل من الأوتار) ·

والمقصود : المسئول عن التروس المصنوعة من الجلد الخالص ·

(المعجم الوسيط مادة (د·ر·ق ـ حـ/ص·٢٩٠) ·

(المعجم الوسيط مادة ع·ق·د ـ حـ ٢ ص ٦٣٦) ·

(١٣) نفح الطيب (دار صادر) : ١/٤٠٩ ـ ٤١٠ ·

(١٤) السابق : ١/٤١٠ ·

(١٥) السابق : ١/٤١٦ ·

(١٦) المقري / نفح الطيب ١ /٤١٢ ـ ٤١٨ ·

(١٧) ابن عذاري / البيان المغرب ٣/٢٥٨ · والاحاطة ٢/١٠٣ ـ ١٠٤ ·

(١٨) المقري/نفح الطيب ١/٤١٨ ـ ٤١٩ ·

(١٩) مخطوط الزهرات المنشورة في نكت الاخبار المأثورة/ابن سماك تحقيق : محمود علي مكي ص ٨٣/٨٤ ·

(٢٠) نفس المرجع السابق ٠

(٢١) نفس المرجع السابق ، ص ٨٥ ٠

(٢٢) المقرى/نفح الطيب ١/٥٩٧ ٠

(٢٣) ابن عذارى/البيان المغرب ٣/٢٥٨

ابن سماك المرجع السابق ٠

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٥ (طبعة دار المعارف - تحقيق : بروفنسال)٠

(٢٥) ابن دراج القسطلى/تحقيق محمود على مكى ص ١٦ ٠

(٢٦) عبد المجيد نعنعى/تاريخ الدولة الاموية فى الاندلس ص ٤٤٦ ٠

المقرى/نفح الطيب ١/٥٩٨ ٠

(٢٧) ومنهم ابن دراج القسطلى حين قال للمنصور عندما كان مودعا اياه فى احدى غزواته :

سر سار صنع الله حيث تسير قدما وساعد عزمك المقدور

وقضى لك الرحمن أنك قاهر حزب الضلال وأنه مقهور

فانهض بحزب الله يقدم جمعه حفظ الاله وسعيك المشكور

(٢٨) ابن خلدون العبر ٤/٣٢١ ٠

(٢٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ١/٧٠ ٠

(٣٠) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ص ٥٢٩ ٠

(٣١) كان يرافقه فى هذه الغزوة ، فأعجب بشجاعته وبطولته فعبر عن شعوره ذلك بقوله :

أهلا بمن نصر الاله وأيدا وحمى من الاشرار أمة أحمدا

ديوان ابن دراج القسطلى ص ٥١ ٠

(٣٢) المقرى : نفح الطيب ٤١٣ ٠

(٣٣) ديوان ابن دراج - تحقيق محمود مكى ، ص ٢٧٣ وما بعدها (ط٢٠) ٠

(٣٤) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبى لونه كلون العفر (التراب) ، أو هو ولد البقرة الوحشية ٠

(٣٥) أسار : الأسر ، والأسارى : الاسرى (جمع أسير) : م٠ الوسيط (مادة ٠أ٠س٠ر٠) ح١ ،ص ١٧ ٠

(٣٦) الرئال : جمع رأل ، وهو فرخ النعام (ما أتى عليه حول منه) (المساعدة: مادة/ر٠أ٠ل) ١/٣٣٢ ١/٢٦٢ ٠

(٣٧) الوثائق السياسية والادارية فى الاندلس وشمال افريقيا/تحقيق : محمد ماهر حمادة نقلا ن ابن الخطيب/تاريخ اسبانيا النصرانية ص ٧٢ ·

(٣٨) المرجع السابق ص ٥٣١ ·

(٣٩) أحمد مختار العبادى/تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ·

(٤٠) ومما يؤثر عن شعره رحمه الله قوله :

رميت نفسى هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاحبى الاجناف مشيع واسمر خطى وأبيض باتر
ومن شيمتى انى على كل طالب اجود بمال لاتقيه المعاذر

ابن الخطيب/الاحاطة ٢/١٠٤ ، وانظر ابن الابار/الحلة السيراء ١/٢٧٥ـ٢٧٦·

(٤١) ديوان ابن دراج (ط٢) تحقيق : د· محمود مكى ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ·

(٤٢) ابن عذراى : البيان المغرب ٢/٤٢٩ ·

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ١/٥٤٦ (ط· دار صادر) ·

(٤٤) ابن عذراى : البيان المغرب ٢/١٤٤ ·

(٤٥) نفح الطيب المقرى ج١ ، ص ٤٠٩ ·

(٤٦) أحمد مختار العبادى التاريخ العباسى والأندلسى ص:٤٥٦ ·

(٤٧) الاسلام والمسلمون فى افريقية الشمالية ·

عبد العليم عبد الرحمن خضر ص ٢٨٨ عالم المعرفة النشر والتوزيع ·

(٤٨) اعمال الاعلام : ابن الخطيب ص ١٠١ ·

(٤٩) تاريخ الدولة الأموية بالأندلس : عبد المجيد نعنعى ، ص ٤٦٢ ·

(٥٠) المقرى : نفح الطيب ·

(٥١) البيان المغرب/ابن عذراى ٢/٤٢٠ ·

(٥٢) مقدمة ديوان القسطلى المحقق : د· محمود مكى ، ص ٤٢ ·

(٥٣) تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس/عبد المجيد نعنعى ·

(٥٤) البيان المغرب ٢/٢٧٤ · وكذلك ورد فى (نفح الطيب) للمقرى ١/٤٠٣ ·

(٥٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥ ·

(٥٦) البيان المغرب ـ المكان السابق ·

(٥٧) الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٣ ، ٨٩ ·

(٥٨) البيان المغرب لابن عذارى ٢٨٦/٢ والدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٩ ·

(٥٩) رحلة الأندلس ، ص ٧٠ ·

(٦٠) محمد عبدالله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، ص٩٥·

(٦١) محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ص٩٥ نقل ذلك عن :

R.M. Pidal : La Espana del Cid, P. 72

والدولة العامرية فى الأندلس : دراسة سياسية وحضـــارية ، لعلى أحمـــد القحطاني ، ص ١٠٧ ·

(٦٢) البيان المغرب ٢١١/٢ ، ٢١٤ ·

(٦٣) د· عبد المجيد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٢٤ ·

(٦٤) نفح الطيب المقرى ، جـ١ ، ص ٤٠٠ ·

(٦٥) ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ٧٧ ، وبطرس البستاني : معارك العرب الأندلس، ص ٥ ، وأحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٤ ·

(٦٦) د· عبد المجيد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٣٨ ·

(٦٧) المغرب فى حلى المغرب ١٩٤/١ ـ ١٩٥ ·

(٦٨) يقول ابن الخطيب عنه : « وكان هشام مندرجا فى طى كافلة الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب اليه تدبير ، ولا يرجع اليه من الأمور قليل أو كثير ، اذ كان فى نفسه وأصل تركيبه ضعيفا مهينا مشغولا بالنزهات ، ولعـــب الصبيان والبنات » (أعمال الاعلام ٥٨/٢ـ٥٩) ، ولا شك أن المنصور كان يسد ويسجد لله عندما يسمع الروايات التى تروى عنه وصفه هشام·وكان يقول ان السلطان الذى تصلح معه الرعية اثنان : اما سلطان قاهر ذو رأى ، عارف بما يأتى ويذر ، مستبد بنفسه · واما سلطان مثل هذا (يعنى هشاما) تدير الدنيا باسمه ، ولا يخشى المتفرغ لدراسة سلطانه ذمالثة · والمتوسط يهلك ويهلك » المغرب لابن سعيد ١٩٥/١ ـ ١٩٦ » ·

(٦٩) أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٥٢ ·

(٧٠) البيان المغرب ٨٨٥/٢ ·

(٧١) نفح الطيب (تحقيق : احسان عباس ٢٢١/١) ·

(٧٢) وقد قامت حملات تبشيرية على يد رجال الدين المسيحى ، وأرغموا فيها المسلمين على التنصير ولو ظاهريا بعد سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وعرفوا بـ/ (الموريسكيين) وطردوا من الأندلس نهائيا بعد فشل تنصيرهم ·

(انظر تاريخ مسلمى الأندلس لعبد الله حاله ، ص ١٧٢ ، وبحث د· عبد اللهجمال الدين (طرد المسلمين من الأندلس : أثاره ونتائجه) ·

(٧٣) نثبت هنا ـ ما ذكره الأمير عبد الله من ارتباط نجاح المنصور بطالعه، رغم عدم اقتناعنا بذلك ، يقول قد حصل على عظائم بداعاته ومخرمته على العامة مع ما هيأت السعادة له ، وكانت أقوى الأسباب فى سلطانه وقد ذكر بعض أهل العـلم بالتنجيم انه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس ، كان أعظـم الأسباب فى سلطانه ، أو عقاره » (مذكراته ص ١٥) ·

(٧٤) وقد سعد النصارى بوفاته وسجلت حولياتهم ما يلى : فى سنة ١٠٠٢م (٣٩٢هـ) (مات المنصور وذهب الى جهنم) ·

(٧٥) البيان/المغرب ٢/٤٢٨ ·

(٧٦) أعمال : الأعلام ، ص ٨١ ، نفح الطيب ١/٣٩٨ ·

(الدعـوة الزيدية فى مصر)

« من منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) الى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) »

د. حسن خضيرى أحمد(*)

تمهيـــــد :

تنسب الزيدية الى زيد بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب(١) ، الذى ظهر على المسرح السياسى فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م ، وكون أتباعا يشايعونه سياسيا ومذهبيا عرفوا بالزيدية(٢) .

ذلك ان زيد بن على خـــرج على الخليفـــة الأموى هشـــام بن عبد الملك ، واتخذ من الكوفة مركزا لدعوة أهلها ، فنادى فيهم قائلا :

« انما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ورد المظالم ، وفعل الخير ، ونصرة اهل البيت ، فان اجبتم ســـعدتم ، وان ابيتم خسرتم ولســـت عليـكم بوكيل »(٣) .

ولما علم يوسف بن عمر الثقفى (١٢٠ – ١٢٦هـ/٧٣٨ – ٧٤٤م) والى العراق – بأن زيدا يدعو لنفسه سرا فى الكوفة ، كتب الى عامله هناك – الحكم بن الصلت – بتتبع زيد والقضاء على حركته(٤) . ومالبث زعماء أهل الكوفة أن نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم لزيد ، حين اجتمعوا معه ، وسالوه عن رايه فى الشـــيخين أبى بكر وعمر ، فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحدا من أهلى يتبرأ منهما ، ولا يقول فيهما الا خيرا . قالوا : فلم تطلب اذن بدم اهل هذا البيت ؟ فكان جواب زيد :

(*) مدرس بكلية الاداب بقنا – جامعة جنوب الوادى .

«انا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ... وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ... فان انتم احببتمونا سعدتم ، وان انتم ابيتم فلست عليكم بوكيل .. » فرفضوه ، فقال لهم : اذهبوا فأنتم الرافضة(٥) .

وكان انواصل زيد جهادهمع نفر قليلمن أصحابه - جلهم منالفقهاء - فى معركة غير متكافئة مع جند والى العراق ، اسفرت عن اصابة زيد بسهم فى جبينه ، سقط على أثره صريعا يوم الجمعة ٢ من صفر سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م ،(٦) وحفر له اصحابه فى ساقية ، وأجروا عليه الماء ، حتى لا يعلم بأمره ، بيد أن الوالى علم بمكانه ، فاخرجه من قبره ، واحتز رأسه ، ثم بعث به الى هشام بن عبد الملك ، فنصبه فى دمشق ، ثم أرسله الى المدينة فنصبه هناك(٧) ، وأما جثمانه فقد صلب بكناسة الكوفة(٨) ، ومكث مصلوبا سنين عددا ، الى أن تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦هـ/٧٤٣ - ٧٤٤م) فكتب الى يوسف ابن عمر يأمره « باحراقه وذروه فى الرياح »(٩) . وأما عن مصير رأس زيد بن على فتتفق الروايات التاريخية على نقله الى مصر يوم الأحد ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م مع أبى الحكم بن أبى الأبيض العبسى(١٠) ، حيث طيف بها ثم نصبت على المنبر بجامع عمرو . فسرقه اهل مصر ودفنوه فى الموضع الذى يعرف الآن بحى زين العابدين(١١) ، والذى كان يعرف من قبل باسم (الحمراء القصوى)(١٢) . ثم بنى عليه مشهد فى عصر الدولة الفاطمية ، اشار اليه المقريزى بقوله(١٣) : «هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ، ومدينة مصر تسميه العامة مشهد زين العابدين ، وهو خطأ وانما هو مشهد رأس زيد بن على المعروف بزين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب » كذلك ذكر المقريزى نقلا عن كتاب الجوهر المكنون : « زيد بن على زين العابدين .. الشهيد بالكوفة ، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد الذى بين الكومين بمصر بطريق جامع ابن طولون وبركة الفيل .. وهو مشهد صحيح »(١٤) .

ويروى المقريزى ان الأفضل بن بدر الجمالى ، لما بلغته حكاية رأس

زيد ، أمر بكشف المسجد يوم الأحد ١٩ من ربيع الأول سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، وكان وسط الأكوام ، واندثرت معالمه ولم يبق منه الا المحراب، فوجد الرأس ، وحمله الى داره حتى عمر هذا المسجد(١٥) .

على أن هناك لوحة تذكارية مثبتة على مدخل المسجد بالواجهة الغربية ، كتب عليها ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا مشهد الامام على زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام على ابن أبى طالب ، صلوات الله عليهم اجمعين فى سنة ٥٤٩هـ »(١٦) .

كذلك هناك لوحة اخرى بالمسجد تعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى كتب عليها ما يلى :

هـذا مقام قـد شرف قـدره	مذ دخـل فيه من تكامل فخرا
زيد بن زين العابدين بن الحسين	بن الفاطمة البتـول الزهـراء
بنت النبى المصطفى أكـرم بـذا	نسبا عليا قـد تطهـر طهـرا
من زاره نال المسـرة والمنـا	وسـعادة الدنيـا كذاك الآخـرة
بشـرى لعثمـان أغـا ببنائه	حاز السـيادة والهنا والآخـرة
يـارب زده نعمـة ومهـابة	وارفـع لـه بين البرية قـدرا
فهو الذى أحيا لنا هـذا البنـاء	فى مسـجد زان المساجد ناظرا

سنة ١٢٢٥هـ(١٧)

وبمراجعة اللوحتين نجد أن اللوحة الثانية رغم أنها متأخرة زمنيا، الا أنها تؤكد ما اجمعت عليه الروايات التاريخية من دفن رأس زيد بن على فى هذا الموضع ، « وليس قبر أبيه فى مصر بل قبره بالبقيع »(١٨) . ويبدو ان اللوحة الأولى اختلط على كاتبها الامر ، ونسب المشهد الى زين العابدين بدلا من ابنه زيد . ومن هنا يمكن القول بان أول ظهور للزيدية كان فى مصر عند قـدوم راس زيد بن على زين العابدين الذى يعتبر بحق مؤسس المذهب الذى نسب اليه .

اما علمه وفقهه فقد أجمع أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والشيعة على امامة زيد فى العلم(١٩) ، وانه كان حجة فى الفقه ، كما اجمع العباد والزهاد وغيرهم على انه لم يكن له نظير فى علمه وخلقه(٢٠) ، ويدفع

الامام أبو حنيفة النعمان بقوله : « .. شــاهدت زيد بن على ، كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه افقه ولا أعلم منه ، .. لقد كان منقطع القرين »(٢١) .

ويذكر الشهرستانى(٢٢) ان زيد بن على ، التقى بواصل بن عطاء راس المعتزلة ، واخذ عنه آراءه فى الاعتزال ، وبلغ نهاية التقدم فى علم الكلام(٢٣) . أما عن مبدىء زيد نفسه فهى بايجاز :

— ان الامامة تقتصر علىاولاد على بن ابى طالب من نسل فاطمة حسنا كان أم حسينيا(٢٤) .

— خروج الامام شـاهرا سـيفه حاملا راية الجهاد على الظلم والجور(٢٥) .

— ان يدعو الامام لنفسه بعد أن يستوفى شروط الامامة من العلم والزهد والفقه ، وان يدعو الى كتاب الله وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورد مال المستضعفين ، والرضا من آل محمد(٢٦) .

والواقع أن ثورة زيد كانت ثورة لها شأنها ، وكانت فاتحة الدعوة الزيدية التى انتشرت من بعد زيد على يد اتباعه وتلاميذه ، الذين رحلوا الى الاقطار الاسلامية ، ينشرون الدعوة ، ويفقهون الناس(٢٧) . وكانت مصر من بين هذه الأقطار ، حيث ضمت بين ثراها رأس مؤسس هذه الدعوة ، وهذا ما سنقف عليه فى هذه الدراسة .

★ ★ ★

بدء الدعوة الزيدية فى مصـر :

سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ، وجاء حكم العباسيين ، امتدادا للظلم والاستبداد الذين مارسهما الأمويون من قبل ضد العلويين ، بسبب موقفهم المعارض لخلافة آل العباس ، وحقهم فى الامامة دونهم . ذلك انهم أنكروا البيعة بالخلافة لكل من أبى العباس وأخيه أبى جعفر من بعده . وقدم العلويون ابرز رجالهم وقتذاك وهو محمدبنعبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب المعروف بالنفس الزكية(٢٨) ،

فدعا لنفسه بالامامة بالحجاز سرا ، فضلا عن الكوفة التى جاءها أخوه ابراهيم وقام فيها بنشاط كبير . أما مصر فقـــد جاءها ابنه على داعيا لابيه وعمه(٢٩) فى أوائل سنة ١٤٤هـ/٧٦١م . ويرجع اختيار مصر مركزا للدعوة الزيدية والاعداد للثورة بها لعدة أسباب، منها :

أن مصر ذات مركز اقتصادى متميز ، فهى درة ولايات الخلافة ، « ومن فضائلها أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم(٣٠)» . ثم ان موقعها الاستراتيجى ، وبعدها عن حاضرة الخلافة يكفل الحماية للدعوة ونجاح الثورة . أما على الصعيد السياسى ففيها شيعة على بن أبى طالب، هذا فضلا عن ميل المصريين لآل البيت(٣١) . أضف الى ذلك أن كثيرا من تلاميذ زيد رحلوا الى مصر وغيرها من الأقطار الاســـــلامية داعين المذهب الزيدى(٣٢) . ومن أهمهم عوث بن ســـليمان الحضرمى (ت ١٦٨هـ/٧٨٤م) الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد اليها سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، « واتهم أن يكون غيبه عنده »(٣٣) ، الأمر الذى جعل أبا جعفر يكتب الى واليه بحبس هذا القاضى وصرفه عن القضاء فى رمضان سنة ١٤٤هـ/٧٦١م(٣٤) . وكذلك عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى (ت ١٧٤هـ/٧٩٠م) الذى تولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥/٧٧١ - ١٦٤هـ/٧٨٠م) للخليفة المنصور(٣٦) ، كان على مذهب زيد بن على ، ومفرطا فى التشيع »(٣٧) .

أما عن موقف والى مصر حميد بن قحطبة الطائى من هذا الداعى الزيدى الوافد ، فيذكر الكندى(٣٨) ان على بن محمد لما قدم الى مصر نزل على عسامة بن عمرو المعافرى ، فاخبر صاحب السكة الوالى أمر هذا الداعى ومكانه ، وطالب القبض عليه « فقال حميد : هذا كذب ، ودس عليه فتغيب ، ثم بعث اليه من الغد فلم يجده » ، فما كان من صاحب السكة الا أن كتب الى الخليفة يعلمه بالأمر ، وتهاون الوالى فى القبض عليه ، مما جعل الخليفة يحنق على واليه ، ويامر بعزله عن امرة مصر ومساءلته ، فرحل من مصر متوجها الى العراق فى ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ/أبريل٧٦١م .

ونستشف من هذه الرواية ، أن الوالى العباسى كانت له ميـــــول

المتشيع ، دون أن يكشف ذلك خشية بطش أبى جعفر . والمعروف أن والده قحطبة بن شبيب وابنه الحسن بن قحطبة كانا من رجالات الدعوة العباسية فى خراسان وقت الاعداد للثورة العباسية ، ووليا قيادة الجيش الزاحف من خراسان صوب العراق .

على أية حال عزل أبو جعفر واليه لمساءلته ، وان كان هذا الوالى قد نجح فى اقناع الخليفة بولائه وقبول عذره ، فولاه قيادة الجيش لمحاربة النفس الزكية بالحجاز فى رمضان سنة ١٤٥هـ/ابريل٧٦٢م(٣٨) ، مستفيدا من كفاءته ، وتطبيقا لسياسته « لا ابالى أيهما قتل صاحبه » .

ثم عقد الخليفة أبو جعفر ولاية مصر ليزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، فقدمها فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ/ابريل ٧٦١م(٣٩) وقد استفحل فيها خطر الدعوة الزيدية ، وطار ذكرها بين المصريين ، « وتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله »(٤٠) ، وذلك بفضل جهود خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى(٤١) ، احد زعماء الصدف من العرب اليمنية بمصر ، وكان قد ورث عن جده وقبيلته الميل للعلويين ، « فقد كان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب رضى الله عنه وشيعته »(٤٢) . وهكذا اتخذ خالد بن سعيد داره مركزا لنشر الدعوة ومقرا للبيعة للنفس الزكية ، واستطاع أن يضم اليه بعض الأمويين فى مصر من أبناء الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان(٤٣) ، الى جانب العناصر المتذمرة التى ربما لم يكن لديها أى ولاء للعلويين أو تفهم الدعوة الزيدية ، ولكنهم أملوا بأن المهدى الجديد سوف ينقذهم من الظلم ، ويوفر لهم حياة أفضل . وكان أن اخذت هذه العناصر تدعو لهم ، سواء كان ذلك باخلاص ، أو لمجرد التظاهر لاتخاذهم واجهة سياسية تحقيقا لغايات أخرى مبيتة .

ولاشك فى أن الدعوة لآل البيت تكفى لكسب الأنصار ، لمالهم من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المسلمين عامة ، والمصريين خاصة . وقد مس آل البيت الضر الكبير على أيدى الأمويين ثم غبنهم العباسيون حقهم فى الأمامة . لهذا التف الناس حول على داعية أبيه محمد (النفس الزكية) ، الذى قضى بمصر نحو عام ، والتقى بشيعة جده من الصدف

والمعافر ، واستطاع أن يجوس خلال الديار يكسب فيها الأنصار(٤٤) ، ومنهم عدد غير قليل من المصريين رحبوا بالدعوة حتى « تكلم بها الناس، وبايع كثير منهم لبنى الحسن فى الباطن .. وماجت الناس بمصر ، وكاد أمر بنى الحسن أن يتم »(٤٥) .

ولما علم خالد بن سعيد بظهور محمد النفس الزكية وثورته بالحجاز، عزم بدوره على تفجير الثورة فى مصر ، فعقد مجلسا بداره ضم زعماء من قدموا البيعة ، واستشارهم فى الامر ، فاقترح عليه دحية بن مصعب - أحد رجال البيت الاموى - أن يضرم النار فى مدينة العسكر ، حيث مقر الوالى العباسى وجنده . بيد أن هذا الرأى لم يجد قبولا من باقى الزعماء ، خشية الدخول فى مغامرة غير محمودة العواقب . واتفق رأيهم على الاجتماع فى المسجد الجامع بالفسطاط ، وبدء الثورة بالاستيلاء على بيت المال . بيد أن رجلا من المجتمعين دس الخبر الى صاحب شرطة الفسطاط عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، الذى أخبر بدوره الوالى يزيد بن حاتم ، وبذلك فقدت الثورة عنصر المفاجأة . وعندما توجه خالد بن سعيد على رأس أنصاره وأتباعه من المصريين الى جامع عمرو فى جنح الظلام ليلة العاشر من شوال سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م للاستيلاء على بيت المال(٤٦) ، تصدت لهم قوة أرسلها الوالى بقيادة صاحب الشرطة . ثم بدا واضحا فشل هذه الثورة بتخلف احدى القوى الموالية للعلويين ممثلة فى أبى حزن المعافرى . والمعروف أن المعافر قوة لها ثقلها الحربى والسياسى فى ذلك الوقت(٤٧) ، فضلا عن انسحاب نفر من المصريين لحقوا بجيش يزيد بن حاتم(٤٨) .

وكان أن وقف صاحب الشرطة بالمسجد وخاطب خالد بن سعيد بكلمة قبطية أن يخرج . وعند خروجه رماه أحد جند العباسيين بنشابة ، فانتزعها ، وخرج يتبعه ابناه ابراهيم وهدبة . وهكذا فشلت الثورة بهزيمة خالد ومقتل ثلاثة عشر رجلا ، وفرار خالد واختفائه عند يحيى ابن جابر أبى كنانة الحضرمى سبعين ليلة حتى هدأت الأحوال وسكن الطلب(٤٩) .

أما مصير زعماء الانتفاضة من أصحاب خالد فقد يسر صاحب الشرطة

هروبهم واختفائهم . وكان الضرب هو العقوبة الوحيـــدة التى حلت بعامة من اشترك فى تلك الحركة ، مما يدل على ما يبطنه صاحب الشرطة هذا من ميل للعلويين . أما مصير على بن محمد النفس الزكية فتباينت اقوال المؤرخين فى أمره ، فمنهم من يذكر انه أخذ بمصر ، فمات فى حبس محمد بن ابى جعفر الملقب بالمهدى(٥٠) ومنهم من يذكر أنه اختفى عند عسامة بن عمرو أحد رجالات المعافر ، فانزله قرية طره ، وتوفى فيها ودفن بها ، مما عرض عسامة هذا الحبس ، ثم حمل الى العراق ، وأودع فى سجن أبى جعفر المنصور(٥١) ولم يخرج منه الا فى عهـــد الخليفة المهدى (١٥٨/٧٧٤ - ١٦٩هـ/٧٨٥م) بعـــد ان تشفع له أبو عبيد الله الأشعرى - كاتب المهدى - وبعد أن أقر عسامة المهدى بان عليا ابن محمد مات فى بيته،فصدقه المهدى وعفا عنه ، ورده الى مصر(٥٢) . والراجح أنه اختفى بمصر الى أن مات فيها .

وهكذا كانت انتفاضة ومصير أول علوى من آل البيت قدم مصر لنشر الدعوة الزيدية بها(٥٣) .

على أن هذه الانتفاضة ، وان كانت قـــد انتهت سريعا على ذلك الوجه ، فانها تركت آثارا بعيدة المدى على مستقبل الدعوة الزيدية ، التى انتشرت بين عدد غير قليل من المصريين ، حتى غدت مصر مكانا يؤمه ائمة الزيدية من آل البيت فيما بعد . أما الآثار المباشرة ، فقـــد تدرجت الحـــالة بمصر ، وســـادت موجة من التذمر والســـخط بين المصريين(٥٤) ، مما حدا بالوالى العباسى أن يمنع أهل مصر من الحج سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م . ولم تهدأ الحال فى مصر الا بعد أن قدم البريد برأس ابراهيم بن عبدالله بن الحسن قتيل باخمرا فى ذى الحجة سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م فنصبت فى المسجد الجامع أياما ثم طيف بها(٥٥) ثم دفنت فى الضاحية التى تعرف بمنية مطر (المطرية حاليا)(٥٦) .

ويرجح بعض الباحثين(٥٧) أن السبب فى اختيـــار جهة المطرية مقرا لراس ابراهيم - أحد ائمة الزيدية - هو ابعـــاد الناس عن زيارة المقبرة ، حتى تخمد الثورة ، وتخبو الدعوة ، فقد كانت منطقة المطرية، غير آهلة بالسكان ، لبعدها عن العاصمة وهى الفسطاط ثم العسكر ، كما

أن مقابر المسلمين فى ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم . ومما يجدر ذكره أنه يوجد بالمطرية الآن ضريح ومسجد ابراهيم بن عبد الله فى شارع ماهر المعروف بشارع سيدى ابراهيم ، المتفرع من شارع المطراوى .

ولا يفوتنا أن نذكر من بين آثار هذه الانتفاضة الزيدية فى مصر ، أنها اتاحت الفرصة لذوى الأغراض المختلفة للخروج على الخلافة العباسية ، فاستمرت المعارضة الأموية فى مصر . ورفع راية المعارضة دحية بن مصعب بن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وهو احد زعماء ثورة على بن محمد النفس الزكية فى مصر . وقد خرج فى صعيد مصر سنة ١٦٥هـ/٨٧١م ، ودعا الى نفسه بالخلافة ، وملك عامة الصعيد . واستمرت ثورته حتى سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م(٥٨) ، حيث قتل وصلب فى تلك السنة .

ويمثل عهد الخليفة المهدى (١٥٨/٧٧٤ ـ ١٦٩هـ/٧٨٥م) فترة وفاق علوية عباسية قصيرة . وسرعان ما تحركت الزيدية بعد ذلك بثورة ثانية بالحجاز فى عهد الخليفة الهادى (١٦٩/٧٨٥ ـ ١٧٠هـ/٧٨٦م) ، كان لها آثار خطيرة فى تاريخ الدولة العباسية ، حيث خرج الحسين بن على بن الحسن المثلث بن على بن أبى طالب سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م(٥٩) ، يدعو لنفسه ويتطلع الى الامامة . وكان أن جمع أنصاره والتقى بالعباسيين فى موقعة فخ(٦٠) ، التى تقرر فيها مصير العلويين ، وكثر فيها ضحاياهم ، ومنهم الحسين بن على نفسه . وقد بلغ من قسوة التنكيل بالعلويين فى هذه المعركة ان قرنها المؤرخون لهولها ونتائجها بمعركة كربلاء ، فقال بعضهم : لم تكن مصيبة بعد كربلاء اشد وأفجع من فخ .

ولم ينج من هذه الكارثة الا القلائل الذين فروا الى أطراف البلاد ، منهم يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، الذى ذهب الى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين(٦١) . أما أخوه ادريس بن عبد الله فقد فر بنفسه صحبة مولاه راشد من مكة الى مصر ، واستقر بها فترة عند أحد المصريين المتشيعين لآل البيت ، فبالغ فى اكرامهما والاحسان اليهما(٦٢) ، وقال لهما : « لتطمئن نفوسكما ، فانى من شيعة آل البيت ، وأول من كتم سرهم ، فانتما من الآمنين »(٦٣) ، ولم يكتف

هذا المصرى باخفاء امر ادريس فحسب ، بل يسر له ولمولاه راشد طريق الخروج من مصر ،وأمدهما بالدواب ، وسار معهما الى برقة ، وجدد لهما طعاما وودعهما(٦٤) .

وكان على امرة مصر فى ذلك الوقت، على بن سليمان الهاشمى (١٦٩هـ/٧٨٥م - ١٧١هـ/٧٨٧م) الذى علم بمكان ادريس وسعى الى لقائه سرا ، فسأله ادريس بالله والرحم الا يكشف أمره ، وانه متوجه الى المغرب ، فستر عليه ، وقال « : وانى اكره أن أتعرض لدماء آل البيت »(٦٥) .

ويزيد بعض المؤرخين(٦٦) ، أن واضحا مولى صالح بن المنصور - صاحب البريد فى مصر وقتذاك - كان متشيعا لآل البيت ، وانه علم بشأن ادريس وأتاه الى الموضع الذى كان مختبئا فيه ، فمهد له الطريق وأمده بمن يرشده الى أرض المغرب . وقدم له دواب البريد ، فحملته الى طنجة سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ، حيث أخذ يدعو لنفسه ، ولقى التأييد والعون من البربر . وكان أن أرسل دعاته الى مدن المغرب ، فاجابه خلق كثير ، وجدوا فى دعوته ومذهبه حركة مضادة للخلافة العباسية التى يعارضونها ، وبذلك استطاع أن يكون دولة عمرت طويلا حتى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م(٦٧) .

وكان جزاء عامل البريد على تهريب ادريس العقاب الشديد فقد أمر الرشيد بضرب عنقه ،وولى بريد مصر وأخبارها رجلا يدعى الشماخ(٦٨) .

وهكذا حفظ لنا التاريخ دور مصر ثانية ، فى ايوائها أحد أئمة الزيدية ، واخفاء أمره ، وتيسير هربه ، ليكون أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة . وكان من الممكن تجنب قيام هذه الدولة لولا ذلك المصرى ووالى مصر وصاحب بريدها .

★ ★ ★

القاسم الرسى والدعوة الزيدية فى مصر :

هو القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب(٦٩) . ولد فى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م استنادا الى

ما تذكره المصادر على أنه توفى سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠م عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما(٧٠) .

اما عن سنى حياته الأولى فالمصادر لا تمدنا بالكثـــير عن ذلك . والراجح انه نشأ فى المدينة ، حيث درس الحديث على أبى بكر عبدالحميد ابن عبد الله بن أبى أويس المدنى (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م)(٧١) ، كما درس الفقه على أحد شيوخ بنى الحسن ، والتقى بالكثير من علماء اللغـــة أيضا(٧٢) واشترك والد القاسم فى ثورة الحسين الفخى سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م(٧٣).وأما جده اسماعيل الملقب بالديباج فكان من جملة المسجونين فى حبس أبى جعفر المنصور(٧٤) .

ويعتبر القاسم من اهم الشخصيات الزيدية . دعا الى نفسه سرا فى مصر فى بداية القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى ، دون أن يقوم بثورة تحقق له الامامة . واستطاع عن طريق دعاته أن يمهد لقيام أول دولة زيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م . هذا فضلا أنه أسس لنفسه قاعدة فى اليمن استفاد منها حفيده الهادى الى الحق يحيى بن الحســـين بن القاسم فى اقامة دولة زيدية باليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م ، استمرت ما يربو على الف سنة . ومن هنا اثرنا أن نلقى مزيدا من الضوء على حياته فى هذه الدراسة .

جاء القاسم الى مصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى،عندما ثار أخوه محمد بن ابراهيم على المأمون سنة ١٩٩هـ/٨١٥م فى الكوفة ، فأرسله الى مصر ليأخذ له البيعة من المصريين ويقوم بالدعوة(٧٥) ، وتذكر المصادر الزيدية أن القاسم قدم الى مصر وهو شاب فى الســــادسة والعشرين أو السابعة والعشرين(٧٦) .

ويبدو أن أخاه أرسله الى مصر ليبعده عن أعين العباسيين ، حتى لا تتكرر المآسى السابقة التى راح ضحيتها كثـــير من العلويين ، وكذلك ليختبر مدى استعداد المصريين للاستجابة للدعوة الزيدية . لكن القاسم لم يمكث بمصر طويلا نظرا لما كان يجتاحها من اضطرابات بسبب الحرب الأهلية بين أنصـــار كل من الأمين والمـــأمون (١٩٥/٨١٠ - ١٩٨هـ/

٨١٣م)(٧٧) ، الامر الذى عجل برحيله الى بنى عمه الأدارسة بالمغرب الاقصى ، حيث قضى فترة من الوقت(٧٨) ، وأتاه هناك خبر وفاة أخيه محمد سنة ١٩٩هـ/٨١٥م ، فرثاه بقصيدة نقتبس ابياتا منها(٧٩) .

يادار دار غـــرور لا وفـــاء لهـــا حيث الحـــوادث بالمكروه تستبق
ابرحت اهلك من كد ومن أسف بمشرع شربه التصـــدير والرنق

الى أن يقول :

فايما حـــدث تخشـــى غوائـــله من بعد هلـــكك يغذينى به الشفق

ثم كان أن عاد القاسم الى مصر سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م، وقد عزم على الدعوة لنفسه بعد وفاة أخيه ، فبث دعاته ، وهو على حال الاستتار على أساس الرضا من آل محمد(٥٧) . وانتشر ذكر القاسم فى الآفاق ، فاجابه عالم من الناس من بلدان مختلفة ، وجاءته بيعة أهل مكة والمدينة والكوفة واهل الرى وقزوين وطبرستان(٥٨) ، وتخوم الديلم ، كما كاتبه أهل العدل من البصرة والاهواز وحثوه على الظهور(٥٩) . واجتمع اليه فى مصر اصحاب هرثمة بن أعين البالغ عـــددهم نحو عشرة آلاف ، فاقام بينهم فى خفية عشر سنوات(٦٠). وعندما تأهب للخروج على الخلافة العباسية ، واعلان الثورة فى مصر ، لم يتمكن من ذلك لأسباب اختلف فيها المؤرخون ، فمنهم من ارجع السبب فى ذلك الى انه « ســـمع فى عسكره صوت طنبور ، فقال : لا يصلح هؤلاء القـــوم أبدا ، وهـــرب وتركهم »(٦١) ، أو بسبب آرائه فى الشيخين أبى بكر وعمر ، فانفض عنه كثير من أتباعه(٦٢) ، أو أن الطلب قد اشتد عليه من قبل والى مصر عبد الله بن طاهر (٢١١هـ/٨٢٦م) ، فلم يمكنه المقام ، فعاد الى بلاد الحجاز وتهامه(٦٣) .

ويبدو أن شدة الطلب من الخليفة المأمون،واحكام الرقابة من جانب الوالى عبد الله بن طاهر ، كانت احد الأسباب الرئيسية وراء مغادرة القاسم مصر وعدوله عن الثورة فيها . كذلك لا يستبعد أن يكون الكثير من المصريين قد انسحبوا من صفوف القاسم ، بعـــد ما تبين لهم رايه فى

الشيخين ، لما لهما من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المصريين ، فخشى على نفسه الوشاية ، وانسل راجعا الى الحجاز .

على اية حال غادر القاسم مصر يتوجس خيفة ، ميمما وجهه صوب الحجاز وتهامة ، بعد نحو عشر سنوات قضاها فى مصر ، نشر خلالها الدعوة الزيدية فى مصر وبعض بــــلاد المشرق ، ولاقت قبولا كبيرا من المصريين ، فقدموا له كل عون ومساعدة واكرموا وفادته . ومن الحجاز استمر القاسم فى الدعوة فبعث جماعة من دعاته من بنى عمه وغيرهم الى بلخ والطالقان والجوزجان ، فبايعه كثير من أهلها ، وطلبوا منه ان يرسل لهم أحد ابنائه ليظهروا الدعوة ، بيد أن عيون الخلافة العباسية، كشفت أمره فارسلت اليه جيشا يتتبع اثره ، مما حدا به أن ينحاز الى حى من البدو حيث ظل مختفيا طيلة عصر المأمون(٦٤) .

ولما توفى المأمون ، وتولى المعتصم الخلافة ، اجتمع أمر أهل البيت على مبايعة القاسم البيعة الجامعة سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م اماما للزيدية ، لما اتصف به من علم وفقه وشجاعة ، وهى من شروط الزيدية . وتمت البيعة فى منزل محمد بن منصور المرادى بالكوفة(٦٥) ، وعندئذ عزم القاسم على الخروج فى المدينة ، فأشار عليه أصحابه بان لا يفعل ذلك « لأن المدينة والحجاز تسرع اليهما العسكر ، ولا يتمكن فيها من الميرة»(٦٦). لذلك لم يتمكن القاسم من الخروج ، وفضل الاختفاء والتنقل فى الصحراء بسبب الملاحقة التى تعرض لها من جيوش المعتصم(٦٧) .

على أن القاسم لم يحمل السلاح مطلقا ضد العباسيين ، ولم يقد ثورة مسلحة ، طبقا لقاعدة خروج الامام عند الزيدية ، وانما اكتفى بالدعوة واشتغل بالدين والعلم . ويعلل الهارونى(٦٨) ذلك بان الغرض من الدعوة هو الانتصاب للامر ، واظهار مباينة الظالمين والتجرد لقصدهم ودفعهم ، وليس الغرض منها تجييش الجيوش فى مباشرة الحروب ،لأن ذلك مشروط بالتمكن والقدرة ، واجتماع الأصحاب والأنصار . والقاسم قد بلغ النهاية فى اظهار الدعوة ، ودعا الناس اليها ، وباين الظالمين وهاجر عنهم . ومن مذهبه أن الهجرة من الدار التى يغلب عليها الظالمون واجبة لا يصح الاخلال بها . وكان أن استقر القاسم فى آخريات حياته فى

جبل الرس بالقرب من المدينة فى أرض اشتراها لنفسه ولأولاده بالقرب من ذى الحليفة(٦٩) . وهناك اشتغل بالتدريس ، وعمـــل على نشر مبادئه بين الحجاج الذين كانوا يعرجون الى المدينة بعــــد الانتهاء من حجهم فيلتقون به ، وينهلون من علمه وافكاره ، ومن ثم ينشرونها بين مواطنيهم بعد عودتهم لبلادهم .ومن بين هذه الدروس التى كان يلقيها القاسم كتابه « سياســـة النفس » الذى استقطب الكثـــير من آل البيت واتباعهم « وغناهم عن اللجوء لغيره »(٧٠) . ولم يلبث ان توفى القاسم سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م ، بعد أن قضى أكثر عمره مستترا(٧١) .

★ ★ ★

الأثر السياسى والفكرى للقاسم الرسى :

قضى القاسم فى مصر قرابة عشر سنوات ، وهى فترة طويلة نسبيا ، استطاع خلالها أن ينشر الدعوة الزيدية بين قطاع كبير من المصريين . واذا كان قد غادر مصر ، فانه ترك فيها بعضا من اخوته وذويه ، ظلوا بمثابة دعاة له . ومازالت شــيعة على بمصر الى ان ورد كتاب الخليفة المتوكل الى اسحاق بن يحيى (٢٣٥/٨٤٩ - ٢٣٦هـ/٨٥٠م) واليه على مصر ، يامره باخــــراج آل على بن أبى طالب من مصر ، فاخرجوا من الفسطاط سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م الى العراق ، ثم اخرجوا من هنــــاك الى المدينة(٧٢) « واستتر من كان بمصر على رأى العلوية »(٧٣).

ويبدو أن الذين بقوا فى مصر من العلويين ، اضطروا الى النزوح والتسلل الى الصعيد ، خاصة قفط(٧٤) التى تشير بعض المصادر الى أن أهلها كانوا من الشيعة(٧٥) ، وانها « وقف على العلوية من ايام أمير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه ، وليس فى ديار مصر ضيعة وقف ولا ملك لأحد غيرها »(٧٦) وتشـــير الدراسات الحـــديثة الى وجود العلويين بالصعيد فى القرن الثالث الهجرى(٧٧) .

وهكذا يمكن القول أن العلويين والشيعة فى مصر اصبحوا غير آمنين على انفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد الخليفةالمتوكل(٧٨) . ويكفى للتدليل على ذلك أن يزيد بن عبد الله (٢٤٢/٨٥٦ - ٢٥٣هـ/٨٦٧م)

ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه ، فاقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه ، فزاده ثلاثين درة . ولما علم الخليفة بذلك ارسل كتابا الى يزيد يأمره بضرب ذلك الجندى مائة سوط ، وحمل بعدها الى العراق(٧٩) . وتتبع هذا الوالى الشيعة فى مصر ، وحملهم الى العراق. ولم يكن عهد الخليفة المنتصر (٨٦١/٢٤٧ - ٢٤٨هـ/٨٦٢م) أحسن حالا من عهد ابيه ، فقد استمر فى اضطهاد العلويين ، حيث بعث كتابا الى والى مصر يأمره «بأن لايقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولايسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ...»(٨٠) .

وفى خلافة المستعين (٨٦٢/٢٤٨ - ٢٥٢هـ/٨٦٦م) وضح ضعف الخلافة العباسية فى ظل سيطرة الأتراك ، مما هيأ الفرصة للعلويين ، وتابعهم فيها المصريون المتأثرون بدعوة القاسم الرسىالقيام بخمس ثورات فى فترة عشر سنوات . واتخذت الخروج شعارا لها طبقا لمبادىء الزيدية. وعندما خرج محمد بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تمكن الوالى العباسى من اخماد حركته ، وحمله الى العراق بصحبة جمع من آل أبى طالب سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م(٨١) . وبعد أربع سنوات قامت ثورة أخرى قادها عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى يقال له ابن الأرقط ، وانضم الى جابر بن الوليد المدلجى من بنى الهجيم ، الذى ثار فى الاسكندرية وانتهى أمره بأن اخرج الى العراق سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م(٨٢) .

كذلك نسمع عن رجل من العلويين يدعى أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والمعروف ببغا الأكبر(٨٣) ، وهو حفيد عبد الله شقيق القاسم الرسى . وقد خرج هذا الرجل فى الصعيد ، بيد أنه هزم سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م على يد أرجون التركى والى مصر (٢٥٤هـ/٨٦٨م)(٨٤). وخرج علوى آخر يدعى أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا ، ويقال له بغا الأصغر سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فيما بين الاسكندرية وبرقة ، ثم سار فى جمع الى الصعيد ، وهزم على يد أحمد بن طولون ،

وقتل فى المعركة واتى برأسه الى الفسطاط(٨٥)٠ كذلك ثار فى الصعيد ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بابن الصوفى العلوى سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م ، ودخل اسنا فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م ونهبها وقتل أهلها ، فبعث اليه ابن طولون بجيش استطاع ابن الصوفى أن يهزمه ، ولم تزل ثورته قائمة حتى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م عندما هزمه أبو عبد الله العمرى بأسوان(٨٦) ٠

وهكذا يتضح أن الدعوة الزيدية التى عرفت طريقها الى مصر منذ منتصف القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى عن طريق دعاة وائمة الزيدية ، والتى غذاها القاسم الرسى ، لم تنته برحيله عن مصر ، بل تركت أثرا كبيرا فى نفوس المصريين الذين ساندوا الثوار العلويين من اقارب القاسم الرسى ٠ وبحلول النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ازدادت شريحة العلويين فى قطاعات الشعب المصرى ، حيث نصادف فى سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم نقيبا للطالبيين بمصر فى عهد الطولونيين(٨٧) ٠ ومازال أمر الشيعة يقوى بمصر الى أن دخلت سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م(٨٨) فى عهد الأخشيديين ٠ وكان للعلويين بحكم بمركزهم الروحى مكانة شعبية رفيعة ذات أثر خطير فى الحياة المصرية(٨٩) ٠

أما عن القاسم الرسى نفسه فقد احاط بعلوم الدين واخصها الكلام والفقه ٠ ومشهود له بعلو الكعب فى النشاط الفكرى ٠ يصفه الحاكم الجشمى(٩٠) بقوله ٠

« نجم آل الرسول وفقيههم ، وعالمهم المبرز فى أصناف العلوم ، ومن يضرب به المثل فى الزهد والعلم » وكان القاسم على علم دقيق بالمذهب الحنفى مع فقه الحجاز ٠ وشغل أثناء اقامته فى مصر بالعمل بالمسائل الفقهية ، التى يقترب فيها الى حد كبير من مذهب أبى حنيفة٠ وجدير بالذكر أن الزيدية تعد أبا حنيفة واحدا من رجالها ، لأنه أخذ عن زيد بن على وأولاده(٩١) ، كما أن كثيرا من الزيدية فى الأمصار الاسلامية يستترون ، بمذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة العباسية(٩٢) ٠

وقد ترك لنا القاسم الكثير من المؤلفات منها : كتاب الفرايض والسنن ، وكتاب الطهارة ، وكتاب صلاة اليوم والليلة ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب الامامة(٩٣) ، وكتاب سياسة النفس(٩٤) ٠

أما علم الكلام ، فقد بلغ القاسم فيه شأوا عظيما ، كأنه فنه الذى نشأ عليه ٠ يصفه جعفر بن حرب(٩٥) ، وهو من عيون المتكلمين والمتبحرين فى علم الكلام بقوله(٩٦) :

« ٠٠ أين كنا من هذا الرجل ، فوالله ما رايت مثله » ، كان القاسم منقطع النظير ، بل كان من علماء الاسلام ذوى الشان(٩٧) ، يصفه بعض الشعراء بقوله :(٩٨)

ولو أنه نادى المنادى بمكة بخيف منى فيمن تضم المواسم
من السيد السباق فى كل غاية لقال جميع الناس لاشك قاسم

وترك القاسم الرسى تراثا ضخما من المؤلفات والرسائل فى علم الكلام ، تناول فيها الكثير من مناحى الفكر الاسلامى ، الذى التزم فيه بالقرآن والنظريات الدينية للاسلام ، مما ميزه عن الفكر الفلسفى وجعله ثمرة للفكر القرآنى(٩٩) ، نذكر منها : الدليل الكبير فى الرد على الفلاسفة(١٠٠) ، والدليل الصغير(١٠١) ، كتاب العدل والتوحيد(١٠٢) ، والرد على ابن المقفع ، والرد على المجبرة وتاويل العرش والكرسى فى الرد على المشبهة(١٠٣) ، وكتاب الرد على النصارى ، وكتاب الخمسة اصول وهو اقدم كتاب فى عقائد الزيدية(١٠٤) ٠

ويبدو ان القاسم الف الكثير من مصنفاته اثناء اقامته فى مصر ، فقد الف كتاب الرد على الملحد ، الذى كان يبحث فيه عن شخص قبطى اسمه (سلمون)(١٠٥) كذلك استطاع القاسم باجتهاداته وآرائه أن يكون مذهبا نسب اليه يعرف بالقاسمية(١٠٦) ، كان متوسطا بين مذهب جده زيد بن على ومذهب حفيده من بعده الهادى الى الحق يحيى بن الحسن؛ تارة يوافق السلف ، وتارة يوافق الخلف(١٠٧) ٠

وأما نظرية القاسم فى الامامة فهى عنده « من أفرض الفرائض

واوكدها لأن جميع الفرائض لا تقـــوم الا بها »(١٠٨) ، ويحددها ويحصرها فى موضع مخصوص(١٠٩) ، وهم أبناء الحسن والحسين طبقا لمبادىء الزيدية . وأدخل القاسم تعديلات على مبدأ الخروج الذى ظل معلما يميز بين الزيدية وغيرها من فرق الشيعة . وجعـــل من الزيدية خوارج الشيعة(١١٠) ، فقد كيف القاسم مبدأ الخروج مع وضعه كامام لم يخرج . ولم يقد ثورة مسلحة ضد خلفاء بنى العباس وحوله الى هجرة فردية عن طريق قطع الفرد علاقاته مع الحكام الظلمة(١١١) .

ومما يجدر ذكره أن آراء القاسم الكلامية تقترب من الفقه اكثر مما تقترب من الفلسفة ، وهذا ما يميز الزيدية بعامة عن المعتزلة(١١٢) ، هذا الى أن افكار القاسم اكتسبت أهمية كبيرة لا لكونها أول دليل على التلاقى بين الزيدية والمعتزلة فحسب ، بل لأنها الى جانب ذلك بمثابة توثيق للفكر المعتزلى نفسه(١١٣) .

وفى الوقت الذى عرفت الدعوة الزيدية طريقها الى مصر فى أوائل العصر العباسى ، وكان علماء الاسلام قد شرعوا فى تدوين الحديث والفقه والتفسير منذ سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م(١١٤) .

وكان من بين هؤلاء العلماء كوكبة من علمـــاء مصر ومحـــدثيها وفقهائها ، نذكــــر منهم ـ عبد اللــه بن لهيعة المصرى ـ (ت ١٧٤هـ/ ٧٩٠م)(١١٥) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ/٧٩١م)(١١٦) وعبد الله بن وهب بن مسلم المصرى (ت ١٩٧هـ/٨١٢م)(١١٧) . وفى هذا التاريخ قام علماء الزيدية بتدوين فقه الزيدية وحديثهم حول مجموع الامام زيد، الذى يعتبر أقدم مرجع فقهى فى تاريخ المذاهب الاسلامية(١١٨) . يقول يحيى بن الحسين(١١٩): « وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون فى حفظهم ويروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » .

وهكذا يمكن القول أن ظهور الفقه الزيدى تزامن مع ظهور المذاهب السنية فى العصر العباسى . وكان من الطبيعى أن تتاثر مصر بجانب الزيدية بمذاهب أهل السنة التى تاثرت بها وأثرت فيها ، مثل مذهـــب شيخ الراى أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م)(١٢٠).

ويذكر أن الامام ابا حنيفة التقى بالامام زيد بن على فى الكوفة ، وكان من رجـــاله(١٢١) ، « وكان ابو حنيفة على بيعته ومـــن جمـــلة شيعته »(١٢٢) ، وعندما سئل كيف جاء اليه هذا العلم قال : « كنت فى معدن العلم ، ولازمت شيخا من شيوخه » أى الامام زيد(١٢٣) .

ويصف الشهرستانى(١٢٤) الزيدية بقوله : « .. وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة الا فى مســائل يوافقون فيهـا الشـــافعى رحمه الله » .

لعل هذا يفسر هذا القول بان الزيدية معتزلة فى الأصول ، وأحناف فى الفروع ، لما بينهما من ارتباط وثيق .

اما ثانى مذاهب أهل السنة ، وهو مذهب الامـــام مالك بن أنس الاصبحى (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)(١٢٥) فان هذا الامام ساند الامام الزيدى محمد بن عبد الله النفس الزكية فى خـــروجه على الخليفة المنصـــور العباسى ، وافتى لأهل المدينة عندما سألوه عما اذا كان أبو جعفر له بيعة فى رقابهم بقوله :«انما بايعتم مكرهين،وليس على مكره يمين»(١٢٦).

وعلى الرغم من أن مذهب أبى حنيفة يعتبر اقدم المذاهب الا أن مذهب مالك كانت له الأولوية فى دخول مصر ، والانتشار فيها ، اذ قدم كثير من أصحاب مالك الى مصر(١٢٧) .

أما ثالث هذه المذاهب فهو مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعى، الذى أتى الى مصر فى سنة ١٩٨هـ/٨١٣م ، وكون بها مذهبه ، وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م(١٢٨) وكانت اقامته ووفاته بمصر سببا فى ذيوع مذهبه وانتشاره فيها . وكان الشافعى مولعا بحب آل البيت ، يؤثر عنه قوله فى حبهم(١٢٩) :

ان كان رفضـــا حب آل محمـــد فليشـــهد الثقـــلان أنى رافضى

ثم يأتى رابع هذاه المذاهب هو مذهب الامام احمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٨٥م) ولم يكن له ذيوع كبير فى مصر الاسلامية(١٣٠) .

ومن الواضح أن المذهب الزيدى ، كان فيه الاختيار من المذاهب السنية كثيرا ، كما انه واسع الرحاب ، الامر الذى أدى الى نمائه وتلاقيه مع فقه بقية الائمة(١٣١) . لذلك صار هذا المذهب بمثابة حديقة غناء تلتقى فيها أشكال الفقه الاسلامى المختلفة ، وأغراسه المتباينة ، والمذهب كالماء الجارى يحمل من الأرض التى يمر بها خواصها ، فيحمل من أهل كل بلد عرفه وعاداته ، وتقاليده وأفكاره(١٣٢) .

وعن انتشار المذهب الزيدى فى مصر ، تحفظ لنا طبقات الزيدية وصفا لأحد قضاة مصر وكبار محدثيها عبد الله بن لهيعة انه « .. كان من أوعية العلم ، .. وكان يروى من حفظه ، وصحف حديثه ، وكان مفرطا فى التشيع »(١٣٣) . ومن قبله كان غوث بن سليمان الحضرمى الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد النفس الزكية واتهم بايوائه. هذا فضلا عن أن العلويين فى مصر كانوا على مذهب زيد بن على ، لأنه مذهب آل البيت الذى نهل منه الامام أبو حنيفة النعمان.ولا غرو فى ذلك فمعظم الثورات الزيدية كان يساندها الفقهاء ، حتى سميت ثوراتهم ثورات الفقهاء وأهل العلم ، ومن هنا يمكن القول أن المذهب الزيدى هو أقرب مذاهب الشيعة الى أهل السنة حتى اعتبر خامس مذاهب السنة .

وتشير الدراسات الحديثة(١٣٤) الى أن المذاهب التى لاتعد من مذاهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج ، وغيرها من المذاهب ، لم يكن لها أثرها فى مصر الا فى ظروف سياسية معينة ، اذ لم يقبل المصريون عليها ، ولم تعمر طويلا فى وادى النيل .

ومن المرجح أن المذهب الزيدى انتشر فى مصر منذ دخول الدعوة الزيدية فى مصر سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، وحتى قدوم القاسم الرسى اليها ، وان ظل بعد ذلك محصورا فى نطاق ضيق ، اذا قورن بمذاهب أهل السنة لاستتار معتنقيه بمذهب أبى حنيفة أو الشافعى « .. ومن الزيدية أخلاط فى أمصار السنة ، يستترون بمذهب أبى حنيفة ، لأن أبا حنيفة كان من رجال زيد بن على »(١٣٥) . ولأن المذهب الزيدى مذهب ثورى ينطوى على أفكار سياسية ، ولدواعى الأمن وخوفا من بطش العباسيين

واضطهادهم ، كان اصحاب هذا المذهب يدخلون تحت المذهب الحنفى أو الشافعى . يقول الاستاذ الشـــيخ أبو زهرة(١٣٦) : « وأحيانا يبدو المذهب الزيدى فى لباس مذهب آخر حتى ليتوهم الناس أنهم من أهل ذلك المذهب » . اضف الى ذلك بعد الزمان بين معتنقيه وبين الامام زيد ، وانقطاعهم فى الأرض مما جعلهم غير ظاهرين فى مصر .

★ ★ ★

الهـــــوامش

(١) راجع ترجمته عند : الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة (١٩٦٠ - ١٩٦٩م) جـ٧ ،ص ١٦٠ - ١٧٣ ، الاصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت٣٥٦/ ٩٦٧م) : مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ ص١٢٧ - ١٥١، ابن حزم ، أبو محمد على بن حزم الأندلسى الظاهرى (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م) : جمهرة انساب العرب ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥٦ .

(٢) الحاكم الجشمى ، أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى (ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ، جـ ١ ، ورقة ٥ ، نشوان الحميرى أبو سعيد (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصـــطفى ، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٢٢٨ . THE Encyclopaedia of Islam, Art (Zaidia)

(٣) الحسنى ، أبو العباس أحمد بن الحسن (ت ٣٥٢هـ/٩٦٣م) : المصابيح ، مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٨١) ورقة ٦٩ ، الهارونى ، أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هـــارون (ت٤١١هـ/ ١٠٢٠م) : كتاب فى نصرة مذاهب الزيدية ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، ١٥٦٧ علم الكلام ، ميكروفيلم رقم (٢٢٥) ورقة ١٧٢ ، نشوان الحميرى : الحور العين، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت٧٠٩) : الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية ، القـــاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٧ ، المقريزى ، تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية ، القاهرة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٣٩ ، الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): تاريخ الاسلام ، وطبقات المشاهير والاعلام ، القـــاهرة ١٣٦٩هـ ، جـ٥ ، ص ٧٥ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ، الأصـــفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ١٤١ . الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٥ ، ص٧٤ .

(٧) المحلى ، الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) : الحدائق

الوردية فى مناقب الائمة الزيدية ، صورة بالاوفست المخطوطة ، الجزء الأول والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ ، جـ١ ، ص ١٤٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٤٠، يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢٦ ٠

(٨) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٦م) : الاخبار الطوال، بغداد ١٩٥٩ ، ص ٣٤٥ ، المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ١٤٨ ٠

(٩) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ ، جـ٣ ، ص ٢١٧ ٠

(١٠) الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت١٩٠٨ ، ص٨١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ،ص٤٣٦٠

(١١) ابن ظهيرة ، أبو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ ـ ٨٨٥هـ) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٠٣ ٠

(١٢) تقع هذه المنطقة الى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، وعليها أسس العباسيون مدينة العسكر ثانية عواصم مصر الاسلامية (المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩) ٠

(١٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٤) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٥) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٦) راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، جـ١ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

(١٧) المسجد الموجود حاليا يعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى اذ جدده وأعاد معظم مبانيه عثمان أغا مستحفظان ٠ (سعاد ماهر : مساجد مصر ، جـ١ ، ص ١٠٦) ٠

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٤٠ ٠

(١٩) نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٤٠ ٠

(٢٠) محمد أبو زهرة : الامام زيد ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ ٠

(٢١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ١٢٨ ٠

(٢٢) الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) : الملل والنحل ، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ، جـ١ ، ص ٢٠٣ ٠

ويشكك أبو زهرة في أن زيدا درس على واصل ، لأن واصلا يخطىء على بن أبى طالب فى حربه مع أصحاب الجمل ومع معاوية ، ولأن زيدا وواصلا كانا من سن واحدة ، وان كان أبو زهرة لا ينفى امكان أن يتجادلا مجادلة الأنداد . (أبو زهرة: الامام زيد ، ص ٤٠ ـ ٤١) .

(٢٣) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ورقة ٧١ ؟ .

(٢٤) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ٦٥ ؟ ،المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٥٢ .

(٢٥) الحاكم الجشمى : شرح عيون المسائل ، جـ١ ، ورقة ٧ .

(٢٦) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ٦٢ ؟ .

(٢٧) أبو زهرة : الامام ، ص ٤٨٩ .

(٢٨) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٢٠ .

(٢٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨١٣ ـ ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب ، جـ١ . ص ٣٤٩ ، المقريزى : الخطط، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ لم يحدد كل من المصدرين تاريخا محددا لقدوم على بن محمد الى مصر فى ولاية حميد بن قحطبة الطائى . (رمضان ١٢ ذو القعدة ١٤٤هـ/٧٦٠ ـ٧٦١م) ، نفس المصدرين والمرجع أنه قدمها أوائل سنة ١٤٤هـ .

(٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٨ .

(٣١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ .

(٣٢) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ .

(٣٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦١ .

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٢ .

(٣٥) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت ١٩٧٠ ، جـ٢ ، ص ٢٨ ، ٣٩ .

(*) عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى الغافقى المصرى ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، تولى قضاء مصر مستهل سنة ١٥٥هـ/٧٧١م من قبل أبى جعفر المنصور ، وهو أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة وأول القضاة الذين حضروا فى طلب الهلال ، وظل عبد الله بن لهيعة على قضاء مصر الى شهر ربيع الآخر سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م ، وتوفى بمصر يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ١٧٤هـ/أكتوبر ٩٧٠م ، (الكندى: الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ، ص٣٨ـ٣٩).

(٣٦) يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : الطبقات الزهر فى أعيان العصر ، ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ورقة ٦٦ ٠

(٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، وقارن المقريزى : الخطط ،جـ١ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ حيث توجد بعض الاختلافات فى الرواية ٠

(٣٨) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٧٠ ، المحلى : الحـــدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٦٦ ٠

(٣٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ،ص٣٠٧ ٠

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٢ ، ص ١ ٠

(٤١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ،ص٢٣٨٠

(*) الصدف : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين اخره فاء ، والنسبة اليه صدفى بالتحريك ، قبيلة من كندة ولها بقية فى حضرموت ، حازت فضـــــل السبق بالهجرة والجهاد أيام الفتح الاسلامى ، وشهدت الصدف فتح مصر ، وسجل عمرو بن العاص دورها فى مهاجمة حصن بابليون فى رجزه المشهور : يوم لهمدان ويوم للصدف ٠

(الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (٣٢٤هـ/٩٤٥م) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الاكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٦٦ ، حاشية رقم ١ ، ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩هـ) : الانتصار بواسطة عقد الامصار ، بولاق ١٩٨٣ ، جـ٤ ، ص ٤ ٠

(٤٢) الكندى الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ ٠

(٤٣) نفس المصدر ، ص ١١٢ ٠

(٤٤) نفس المصدر ، ص ١١٣ ـ ١١٥ ، عبد الله خورشيد البرى : القبـــائل العربية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٦٨ ٠

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ١ ٠

(٤٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٢ ٠

(٤٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ، عبد الله خورشـــيد : القبـــائل العربية ، ص ١٦٤ ٠

(٤٨) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ٠

(٤٩) نفس المصدر : ص ١١٤ ٠

(٥٠) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٦٥ ٠

(٥١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٥ ، المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص٣٣٩.

(*) لقب المنصور الحق بالخليفة أبى جعفر بعد انتصاره على النفس الزكية .

(٥٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٥٣) نفس المصدر ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص ٣٣٨ .

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، حـ٢ ، ص ٢ .

(٥٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ .

(٥٦) المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص ٤١٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٠٣ ، راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر ، حـ١ ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٥٧) سعاد ماهر : مساجد مصر ، جـ١ ، ص ١١٤ .

(٥٨) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٥٩) المدلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٧٥ . الحسنى : المصابيح ، ورقة ٨٩ .

(٦٠) فخ : بالخاء المعجمة من فوق ، من فجاج مكة ، بينه وبين مكة ثلاثة أميال، وقيل ستة أميال ، وبفخ كانت وقعة الحسين بن على . (الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ/١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧) .

(٦١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص٤٣١ . ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٨٣. جـ٤ ، ص ٢٣ .

(٦٢) السلاوى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، جـ١ ، ص ١٥٣ .

(٦٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٣١ .

(٦٥) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٥٤ .

(٦٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ، ص ١٩٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٢٤ .

(٦٧) المدلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ وراجع السلاوى : الاستقصا ، جـ١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧

(٦٨) المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت نحو ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشرة دى خويه ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ٢٤٤ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٦ .

(٦٩) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) : الفهرست ، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ص ٢٤٤ المحلى : الحدائق ، ج ٢ ، ص ٢ ، الحاكم الجشمى : شرح العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٧ ٠

(٧٠) الحاكم الجشمى : شرح العيون ، جـ ١ ، ورقة ٢٩ الأصفهانى : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٦ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٦ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة الزيدية) ، وراجع : ايمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٢٨ ٠

— Madelung W., Der Imam al - Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubenslhre des Zaidten,, Berlin 1965, P.87.

— Binyamin Abrahamov : Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argumnet From Design, Oriens, Journal of the International Society for Oriental Research, Brill, 1986 V., 29-30, P. 259.

(٧١) ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) : تهذيب التهذيب ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٢٦هـ ، جـ٦ ، ص ١١٨ ٠

Madelung, OP. Cit., P. 89.

(٧٢) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(٧٣) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٧٨ ٠

(٧٤) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١٠٩ ، المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ١٩٧ ٠

(٧٥) المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين طبقات الزيدية ، ورقة ١٦ ، المتوكلى ، اسماعيل بن أحمد بن على : انباء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم٢٠٢٣٨ ، ورقة٢١٠

(٧٦) المحلى : الحدائق ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ورقة ٢٦ ٠

(٧٧) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣١٠ ٠

(٧٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٩ ٠

(٧٩) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٢ ٠

(٥٧) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٤ ٠

(٥٨) طبرستان : بلاد جبلية تقع على بحر الخزر (قزوين) ، يحدها من الشرق جرجان وقوص ومن الغرب الديلم ومن الجنوب الرى وأهلها اشرف العجم (اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) : البلدان ، ليدن ١٨٩٢ ، ص ٤١ ، وفتحت طبرستان سنة ١٤٣هـ/٧٥٩م واكبر مدنها الجبـــل وبها

مستقر الولاة ، وكانوا من قبل يسكنون سارية · (الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) ·

(٥٩) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ورقة ٢١ ·

(٦٠) المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ ·

(٦١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٥٥٦ ·

Madelung, Cit., P. 93.

— Binyamin Abrahamov, Al - Kassim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate, Revue D'etudes Arabes, Leiden 1987, Tom XXX Iv PP. 82-88.

(٦٣) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ ·

(٦٤) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ·

(٦٥) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧ ·

(*) محمد بن منصور المرادى الزيدى ، أحد علماء الزيدية وفقهائها ، أخذ علومه على القاسم الرسى ، وكان يروى عن القاسم من غير واسطة ، وله من الكتب : كتاب التفسير الكبير ، وكتاب التفسير الصغير ، وكتاب أحمد بن عيسى ، وكتاب سيرة الأئمة العادلة ، وله كتب فى الاحكام ، علاوة على كتب الفقه ، توفى سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م · (راجع : ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧) ·

(٦٦) المحلى : : الحدائق ، جـ٢ ، جـ٤ ·

(٦٧) الحاكم الجشمى : العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٨ ·

(٦٨) الهارونى : نصرة المذاهب الزيدية ، ورقة ٧٢ ·

Binyamin Abrahamov, op. cit., p. 81.

(٦٩) الحاكم الجشمى : العيون جـ١ ، ورقة ٢٩ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ ٢ ، ص ٦ ·

Madelung, op. cit., p. 259.

(٧١) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٦ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة٢٢·

Binyamin, op. cit. 259.

(٧٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، وراجع : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٩٥ ·

(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ ٠

(٧٤) قفط : مدينة بشرقى النيل ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان (ابن جبير ، محمد بن أحمد الاندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ص ٦١ ، ولها سور وبينها وبين قوص أربعة أميال وفيها مزارع كثيرة البقول وأهلها شيعة ، وفيها بعض بقايا الروم (مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٨٧ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٧٧)، وهى رأس طرق القوافل التى كانت تخترق الصحراء بين وادى النيل والبحر الأحمر، (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، جـ٤ ، ص ١٧٧) ، وهى الآن احدى مدن محافظة قنا ٠

(٧٥) الادريسى ، أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م): صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ، تحقيق دوزى ، امستردام ، ١٩٦٩ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ، الحميرى : الروض ، ص ٤٧٧ ٠

(٧٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ٠

(٧٧) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩٣ ٠

(٧٨) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ ٠

(٧٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٢٣٩٠

(٨٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ٠

(٨١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ ٠

(٨٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، المقريزى : الخطط : جـ٢ ، ص ٣٣٩ ٠

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٢١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ٠

(٨٤) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١١ ٠

(*) ورد ذكره عند الكندى (أزجور التركى ، ص٢١٠ـ٢١١ بينما ورد اسمه عند المقريزى أرجون وقد أخذنا بما ورد عند المقريزى ، جـ٢ ، ص ٣٣٩) ٠

(٨٥) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ٠

(٨٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ٠

(٨٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٠٩ ـ ٥١٣ ٠

(*) كان ابن طباطبا كريما فاضلا ، صاحب رباع وضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشية ٠

(٨٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ٠

(٨٩) عبد الله خورشيد : القبائل العربية ، ص ٩٣ ٠

(٩٠) الحاكم الجشمى : شرح العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٨ ٠

(٩١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٠ ٠

(٩٢) نفس المصدر ،ورقة ٤ ٠

Binyamin, OP. Cit., P. 81.

(٩٤) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٣ ٠

(٩٥) جعفر حرب ، ويكنى أبا الفضل ، واحد دهره فى العلم والصدق والورع والزهد والعبادة ، وله كتب كثيرة فى علم الكلام ، وعده ابن المرتضى من الطبقة السابعة ، (ابن المرتضى ، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م) : طبقات المعتزلة ، تحقيق سوسنة ديفلد فلزر ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٧٢ ٠

(٩٦) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(٩٧) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٩٦ ٠

(٩٨) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ٠

(٩٩) راجع : القاسم الرسى : رسائل العدل والتوحيد ، تحقيق محمد عمارة، نشر دار الهلال ، ص ٣٠ ـ ٣٤ ، على محمد زيد: معتزلة اليمن، بيروت ١٩٨١،ص٣٢٠

(١٠٠) كتاب الدليل الكبير نشره المستشرق بنيامين ابراهما ، واردفه بتعليقات باللغة الانجليزية ، ليدن ١٩٩٠ ٠

(١٠٥) Binyamin., " Al Kasim Ibn Ibrahim,s Argument., pp. 260-261.

(١٠٢) القاسم الرسى : أصول العدل والتوحيد ، ص ٩٦ ـ ١٤٠

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ ـ ١١١ وراجع : أحمد محمود صبحى : الزيدية، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١١٥ ٠

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٧٣ ٠

(١٠٥) Medelung OP. Cit., P. 89.

(١٠٦) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ٠

(١٠٧) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٨ ٠

(١٠٨) القاسم الرسى : الامامة ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٢٤٣ ، ورقة ٨٦ ٠

Binyamin, " Al Kasim Ibn Idrahim's Theory, P. 85.

(١٠٩) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٦ ٠

(١١٠) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٣٣ .

(١١١) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٢ الى ورقة ٨٧ ، الهاروني : نصرة المذاهب الزيدية ، ورقة ٧٢ .

(١١٢) احمد صبحى : الزيدية ، ص ١٣٨ .

(١١٣) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٣٣ .

(١١٤) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٦ ، ص ٥ ـ ٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٣٥١ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ .

(١١٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان : جـ٣ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(*) ترك عبد الله بن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر اقدم مجموعة حتى الآن . وهي ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج (سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة . ص ١٨٣) .

(١١٦) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن امام أهل مصر فى الفقه والحديث . قال عنه الشافعى : « الليث بن سعد افقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » سمع علماء المصريين والحجازيين ، وروى عن عطاء بن أبى رباح وابن شهاب الزهرى (ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ٤ ، ص ١٢٧) .

(١١٧) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٦ ، ص ٥ ـ ٦ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية . ورقة ٤ .

(١١٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ . وراجع : أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٥٨ .

(١١٩) نفس المصدر ، ورقة ٤ .

(١٢٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ . ص٣٣٤ .

(١٢١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية . ورقة ٤ ، ١٠ .

(١٢٢) الشهرستانى : الملل والنحل . جـ١ . ص ٣١٢ .

(١٢٣) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٢ .

(١٢٤) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ١ ، ص ٣١٧ .

(١٢٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ٤ ، ص ١٣٧ .

(١٢٦) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٨٣ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ ١ . ص ١٦٤ .

(١٢٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ . سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة . ص ١٨٧ .

(١٢٨) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٤٤١ ٠

(١٢٩) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٤٢ ٠

(١٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ ٠

(١٣١) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٢٧ ٠

(١٣٢) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ٠

(١٣٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ورقة ٦ ٠

(١٣٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ ٠

(١٣٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ٠

(١٣٦) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ ٠

« قائمة المصادر والمراجع »

أولا : المصادر العربية :

(أ) مصادر مخطوطة :

١ - الحاكم الجشمي : أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي (ت ٤٩٤هـ/١٠٠٠م) « شرح عيون المسائل » مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٠٦) .

٢ - الحسنى : أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن الحسن (ت ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) « المصابيح » مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٨١).

٣ - القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) : « كتاب الامامة » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٤٣) .

٤ - المتوكلى : اسماعيل بن احمد بن على : « أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم (٢٠٣٣٨) .

٥ - الهارونى : أبو الحسن احمد بن الحسين بن هارون (ت٤١١هـ/ ١٠٢٠م) : « كتاب فى نصرة مذاهب الزيدية » مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٥٦٧ علم الكلام،ميكروفيلم رقم(٢٢٥).

٦ - يحيى بن الحسين : يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : « الطبقات الزهر فى أعيان العصر» ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

(ب) مصادر مطبوعة :

٧ - الأدريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م) : « صفة المغرب وأرض السودان والأندلس » من نزهة المشتاق ، تحقيق دوزى ، امستردام ١٩٦٩ .

٨ - الاصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) : « مقاتل الطالبيين » تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ .

٩ - ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جـ١ ، جـ٢ ، القاهرة ، طبعة دار الكتب (بدون تاريخ) .

١٠ - ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) : «رحلة ابن جبير» ، دار الكتاب اللبنانى ،بيروت (بدون تاريخ) .

١١ - ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨) : « تهذيب التهذيب » جـ٦ ، حيدر آباد - الدكن ، ١٣٢٦هـ .

١٢ - ابن حزم : أبو محمد بن على بن حزم الأندلسى الظاهرى (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م): « جمهرة انساب العرب » ، القاهرة ١٩٧١ .

١٣ - الحميرى محمد عبد المنعم (ت٨٨٦هـ/١٤٦١م) : « كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٠ .

١٤ - ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » جـ٤ ، بيروت ١٩٨٣ .

١٥ - ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) : « وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان » ، جـ٣ ، جـ٤، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ .

١٦ ـ ابن دقماق : ابراهيم بن محمد المصرى (ت٨٠٩هـ) : « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، ج٤ ، بولاق ١٨٩٣ .

١٧ ـ الدينورى : ابو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٦م) : « الأخبار الطوال » ، تحقيق الدكتور عبد المنعم ماجد ، بغداد ١٩٥٩ .

١٨ ـ الذهبى : شمس الدين محمد بن احمد عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » ج٥ ، ج٦ ، مكتبة القدسى ، القاهرة ١٣٦٩هـ .

١٩ ـ السلاوى : الشيخ أبو العباس احمد بن خالد الناصرى (ت١٣١٥هـ/١٨٩٧م): « الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى » الدار البيضاء ١٩٥٤م .

٢٠ ـ الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) : «الملل والنحل» ج١ ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران ، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

٢١ ـ ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن القطقى (ت ٧٠٩هـ) : « الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية » القاهرة ١٩٦٢ .

٢٢ ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) : « تاريخ الرسل والملوك » ج٧ ، ج٨ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢٣ ـ ابن ظهيرة : ابو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ ـ ٨٨٥هـ) : « الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة » تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٤ ـ القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) : « رسائل العدل والتوحيد » تحقيق محمد عمارة ، نشر دار الهلال ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٢٥ ـ الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، بيروت ١٩٠٨

٢٦ ـ المحلى : الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م): « الحدائق الوردية فى مناقب الائمة الزيدية « صورة بالأوفست للمخطوطة الجزء الأول ، والثانى فى مجلد واحد ، دمشـــق ١٩٨٥ ٠

٢٧ ـ ابن المرتضى : أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٧م) : « طبقات المعتزلة » تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ ٠

٢٨ ـ المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ج٣ ، تحقيق محمـــد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٨٢ ٠

٢٩ ـ المقريزى : تقى الدين أحمـــد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : « الخطط ـ المواعظ والاعتبار بذكـــر الخطط والآثار » ج١ ، ج٢ ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة (بدون تاريخ) ٠

٣٠ ـ مؤلف مجهول : « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصـــار » نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ ٠

٣١ ـ ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق المعـــروف بالوراق (ت٣٨٠هـ) : « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م ٠

٣٢ ـ نشوان الحميرى : أبو سعيد (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م) : الحور العين؛ تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ ٠

٣٣ ـ الهمدانى : ابو محمد الحسن بن أحمـــد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) : « صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن على الأكوع، بيروت ١٩٨٣ ٠

٣٤ ـ ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله الرومى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): « معجم البلدان » ج٨ ، بيروت ١٩٨٤ ٠

٣٥ ـ اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفـــر بن وهب بن واضح (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) : « البلدان » ليدن ، ١٨٩٢م ٠

ثانيا : المراجع الحديثة :

١ ـ أحمد محمود صبحى : « الزيدية » ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٤) ٠

٢ ـ اين فؤاد سيد : « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » (الدار المصرية اللبنـــانية ، القاهرة ١٩٨٨) ٠

٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٠

٤ ـ سعاد ماهر محمد : « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » جـ١ ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة (بدونتاريخ) ٠

٥ ـ سيدة سماعيل كاشف : « مصر فى عصر الولاة » ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ٠

٦ ـ عبد الله خورشيد البرى : « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٧ ـ على محمد زيد : « معتزلة اليمن » ، بيروت ، ١٩٨١ ٠

٨ ـ محمدمحمد ابو زهرة : « الامام زيد » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

٩ ـ محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » جـ١ ، جـ٤ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٩٥٤ ، ١٩٦٣) ٠

١٠ ـ يوليوس فلهوزن : « تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » نقله الى العربية الدكتور محمد عبدالهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

(1) Binyamin Abrahamov :

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argument From Desing". Oriens Journal of the International Society for Oriental Research, V. 29-30, Brill, 1986.

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate".

Revue D'etudes Arabes, Tome XXXIV,
Leiden, 1987.

(2) Encyclopaedia of Islam.

(3) Madelung (W.,) :

* "Der Imam Al - Qasim ibn Ibrahim die Glaubensiehre der Zaidited Berlin, 1965.

الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى

د. سليمان الرحيلى(*)

ارتبط علم التاريخ ارتباطا واضحا بعلم الحديث فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة.وتاثر التاريخ بالحديث وقتذاك من حيث المنهج ، وظهر كثير من أبوابه فى كتبه . كذلك قامت عـلاقة وثيقة بين التاريخ وعلم الفقه فى القرون التالية ، وعقل الفقهاء دراسة الفكر التاريخى سياسة ، وحضارة ، وحتى نقدا ، بكثيرا من آرائهم القيمة،وجمع عدد منهم بين دراسة التاريخ والفقه اما ضمن مؤلفاتهم فى فقـه المذاهـب وطبقاتها والسياسة الشرعية ، أو مفردا بمؤلفات مسـتقلة كان للآراء والأحكام الفقهية أثر كبير فيها .

وقد وضح هذا التلازم بين الفقه والتاريخ منذ القرن الرابع ، اذ كان لفقهاء ذلك القرن أراؤهم فى سياسة الدولة واقسام ادارتها وتقويم اعمالها والحكم أو الموقف منها ، ومن هؤلاء الماوردى فى المشرق وابن حزم فى الغرب(١) .

وهكذا حتى كان القرن السابع فتتابع ظهور عدد من الفقهاء الذين اولوا الفكر السياسى عنايتهم ، وكتبوا فى سياسة الدول وصـلاح ادارتها وما يحفظ قوتها أو يؤدى الى سقوطها ، مع التعليل لذلك وذكر العوامل المؤثرة فيه ، كما عنوا بحمـل الواقع التاريخى على الجادة الشرعية والمصالح العامة ، وتدقيق مقاصـدها فى أفعـال الدول ومؤسساتها المخالفة ، وبين نتائج الاتباع ومحاسن الحـرص على ذلك ، وعواقب المخالفة ومصائر الاستمرار فيها . ومن اوائك العلماء ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وتاج الدين السبكى ، والمالقى ، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) .وكان واحد من هؤلاء تولى القضاء فى حياته،وبذلك اثروا الفقه والتاريخ معا،

(*) أستاذ التاريخ والحضارة المشارك ـ جامعة الامام محمـد بن سـعود الاسلامية ـ الرياض .

وتركوا لنا فيهما ثروة نفيسة . والواقع أن التاريخ كان محظوظا بعناية هؤلاء . واذا كانت آراء ابن خلدون فى دراسة التاريخ وأحوال الحضارة أو ما اسماه هو العمران البشرى نالت الشهرة وجذبت الاهتمام فى العصر الحديث ، فان آراء الآخرين جديرة ايضا بالدراسة،وتستحق المزيد من عناية المؤرخين ، وعلى رأس أولئك تاج الدين السبكى .

تاج الدين السبكى :

هو أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ . ونشأ فى بيت علم ورياســـــة فى دولة سلاطين المماليك،فابوه تقى الدين على السبكى ولى منصب قاضى القضاة فى بلاد الشام لمدة طويلة(٢) .

أما هو فقد أحسن والده توجيهه وظهرت عليه عـلامات الذكاء والنجابة ، فحفظ القرآن وكثيرا من علوم الحديث والفقه والعـــربية ، وتتلمذ على يد مشاهير علماء الاسلام فى بلاد الشـــام ، حتى انه كان يتلقى عن الامام الذهبى مرتين فى اليوم ، وعن المزى (ت٧٤٢هـ) مرتين فى الاسبوع . ولم يلبث الذهبى أن عده فى الطبقة العليا بين طـــلاب العلم وقتذاك ، ووصفه لوالده بانه محدث جيد(٣) . وهكذا كان ، فقد تولى الافتاء وهو فى سن العشرين ، وتولى التـــدريس والخطابة فى الجامع الأموى فى دمشق ، بالاضافة الى وظائف أخـــرى ، حتى اذا ما ضعف والده ، وترك وظيفته ورحل الى مصر تولى ابنه تاج الدين منصبه وهو قاضى القضاة فى بلاد الشام سنة ٧٥٦م فى سلطنة الناصر محمد المملوكى الثانية . واستمر فيه حتى وفاته سنة٧٧١هـ عن عمر قليل لم يتجاوز الأربعة والأربعين عاما(٤) ، قضاها بين طلب العـــلم وولاية القضاء . وكان طوالها مثال العالم العامل الذى يحاول الاصلاح جهده ، دون أن تأخذه رهبة وال أو لومة لائم . ولهذا لم تخل حياته من حسد أو كيد له ممن ينافسونه الفضل ، أو يخافون نقـــده ومخالفة هواهم ، وعلى رأسهم نائب الشام وقتذاك الذى أمر بعزله عن منصبه سنة ٧٦٩هـ. لكنه لم يلبث أن أعيد اليه بعد قليل .

وقد عاصر عددا من المؤرخين منهم شيخه الذهبى ، وابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ) وخليل بن ايبك الصفدى (ت٧٦٤هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) .

وله عدد من المؤلفات منها : جمع الجوامع في أصـــــول الفقه ، الأشباه والنظائر الفقهية ، وتكملة شرح منهاج القــــاضى البيضاوى ، وطبقات الشافعية الكبرى ، وكتاب معيد النعم ومبيد النقم . وقد اشتمل الكتابان الاخيران على فكره التاريخى وآرائه الاصلاحية ، اذ ضمن كتاب الطبقات قاعدة جليلة سماها قاعدة فى المؤرخين(٥) . كما ضمنه ذكر بعض احداث الغزو المغولى للعالم الاسلامى على يد جنكيز خان وهولاكو وفظائع جرمه ، وهول صدمته(٦) . وقد أوجز فيها اكتفاء بما افرد من المصنفات فى اخبارها(٧) ؛ واعتمد على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى الغالب(٨) ، وكان منهجه فى ذكرها لا يختلف عنه كثيرا . أما آراؤه الاخرى فيهم فقد جاءت بايجاز فى كتابه معيد النعم . وقد ضمن هــــذا الكتاب كثيرا من آرائه فى الأحوال الادارية والاجتماعية ومدارها والغاية منها بعدا أو قربا من منهاج الشرع الحكيم فيها ، وتحقيق الصالح العام منها ، ومراعاة ما يبقيها ، واجتناب عوامل زوالها ، كالأغراض والقصور والفساد من قبل القائمين عليها . وهى آراء ومواقف عديدة لتاج الدين السبكي لا ينقصها روح العالم ، وسعة الاطلاع ، وخبر أحوال المجتمع ، ومعرفة أوضاع مؤسساته ،ومخالطة موظفيه ومعايشة عامته ، كما سيأتى.

ولم تقتصر آراؤه على وصف الوظائف والمهـن فى عصره ، وانما اشتملت علي تنظيم واصلاح لها ، يصلح لها فى كـــل وقت او مكان فى المجتمع ، فضلا عن افادتها فى معرفة تاريخ مسمياتها ، ومجال أعمالها خلال عصر المماليك وما أخذوه فى ميدانه عن غيرهم ، أو اثروا به فيما تلا عهدهم من عصور ،حتي أن بعضها ظل باقيا حتى العصر الحاضر(٩).

تتلخص موارد تاج الدين السبكى فى فكره فى تلقيه عن عدد من العلماء الأعلام ، مثل المزي (ت٧٤٢هـ) ، والذهبى (ت٧٤٨هـ) ، ووالد تاج الدين تقى الدين السبكى (ت٧٥٦هـ) . وكلهم من العلمـــاء الذين

اثروا عصرهم بالعديد من المؤلفات والآراء وحلقات الدرس . وكان لكل منهم ايضا عناية بالتاريخ واحوال الواقع المعاصر لهم وتولى اعماله مثل القضاء والتدريس ، فتاثر بهم تاج الدين السبكى وعنى بعـلوم التاريخ والاصلاح المبتغى للحياة ، ولا سيما ما يرتبط بعصره الذى عاش فيه وهو العصر المملوكى ، وقد ساعده فى ذلك ثلاثة أمور هى :

الأول : تبحره فى علم الفقه وأبوابه مما جعله يجيد مظاهر الحياة الاجتماعية ورصد الواقع التاريخى لها ، وبيان الحكم أو ما ينبغى أن يكون الحال عليه .

الثانى نبوغه فى أصول الفقه والتاليف فيه مما جعل منهجه فى آرائه واضح الترتيب قوى الحجة فى ايراده والاقناع به . وكذلك سهولة ذكر القواعد والأصول للوظائف والأعمال وتحديد الأصلاح فى وسائلها واهدافها .

أما الثالث : فهو خبرته فى أعمال الدولة وتوليه وظيفة القضـاء والتدريس لمدة طويلة مما أتاح له معايشة مختلف فئات المجتمع ، فخبر أحوالهم عن قرب مما أثرى آراءه وجعلها اكثر قبولا ، وتدل فى الغالب على انها صادرة عن عالم قرن العلم بالعمل .

أما الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى فينقسم الى قسمين :

أحدهما : فكر منهجى يختص بالشروط اللازمة للمؤرخ وارائه فى المؤرخين ومؤلفاته . وبالذات كتابه تراجم الاعلام والسير والطبقات .

والثانى : فكر يتعلق بالاصـلاح الادارى والاقتصـادى والتعليمى والاجتماعى ، وابداء الرأى فى أحوال الدولة واخبارها وما ينبغى أن تكون عليه أعمال ادارتها ووظائفها المختلفة ، ولاسيما ما كان قائما منها فى عصره ، حتى أن أحد الباحثين قرن آراءه الاصلاحية بآراء الشيخ محمد عبده فى تاريخ مصر الحديث(١٠) .

وسوف نتناول فى هذا البحث آراءه فى كـل مجال بالدراسـة والتحليل والتفصيل ، ما أمكن .

أولا ـ الفكر المنهجى :

كان لتاج الدين السبكى ميل كبير لدراسة التاريخ وولع بين بتاريخ السير والأعلام منذ‌ه . ويندرج كتابه الضخم طبقات الشافعية الكبرى تحت هذا الفن من فروع التاريخ . وقد أوفى فيه وأحكم ، وتعهده منذ صباه بالاهتمام . فلما نضج علمه واتسعت تجربته اخرجه بالتمام والاتقان ، بما يفيد الفقيه والأديب والمؤرخ(١١) ، فيجد فيه (تراجم يعز على المنقب وجدانها) ، ووصفه فى مقدمته بأنه كتاب تاريخ ، حتى ضمن مقدمته وصفا موجزا لأحداث الغزو المغولى الذى هز العالم الاسلامى ابان القرن السابع(١٢) .

وقد قرر ان الصفات الواجب توافرها فى المؤرخ مثل الصدق والعدالة والبعد عن الهوى هى مما يشترط فى بعض الوظائف المهمة الأخرى فى الدولة مثل الامامة والقضاء ، بالاضافة الى صفات أخرى يقتضيها كل مجال ويتطلبها دون آخر .

وقد أورد تاج الدين السبكى كثيرا من آرائه التاريخية من خلال التعليق والاضافة على موجز نفيس لوالده تقى الدين فى المؤرخين فى كتابه ـ أى تاج الدين ـ الطبقات الكبرى ، فضلا عن آرائه الأخرى فيهم فى كتابه القيم ، معيد النعم ومبيد النقم . اما آراء تقى الدين السبكى التاريخية فقد وصلتنا عن طريقين :

أحدهما : ابنه تاج الدين السبكى ، وقد نص على ذلك اكثر من مرة فقال : « فالرأى عندنا أن لا يقبل مدح وذم من المؤرخين الا بما اشترطه امام الأمة ، وهو الشيخ الامام الوالد رحمه الله ، حيث قال ونقلته من خطه فى مجاميعه »(١٣) .

ويقول تاج الدين : « وذكر ان كتابته لهذه الشروط ـ أى كتابة والده تقى الدين السبكى لها ـ كانت بعد أن وقف على كلام ابن معين فى الشافعى ... » الخ(١٤) .

وعنونها تاج الدين السبكى بعنوان : قاعدة فى المؤرخين ، على

غرار قاعدة اخرى كتبها فى الجرح والتعديل وسبقها بها ، واضاف اليها بعض آرائه التى كانت فى الغالب تقريضا وشرحا لآراء ابيه كما سيأتى .

الثانى : عن طريق خليل بن ايبك الصفدى فى مؤلفه الكبير : الوافى بالوفيات؛قال :«نقلت من خط الامام العلامة الحجة شيخ الاسلام قاضى القضاة تقى الدين أبى الحســن على بن عبد الكافى السـبكى الشافعى ما صورته »(١٥) ثم أورد آراءه وشروطه فى المؤرخ . كما عد المؤرخين من العلماء مثلهم مثل المفسرين والفقهاء والأصوليين والنحويين من حيث حاجة الأمة لهم ، وخطورة فساد وظيفتهم اسوة بفسـاد أى من وظائف العلماء الآخرين(١٦) .

ونظرا لأن تاج الدين الســبكى وضع عنــوانا لشروط والده فى المؤرخين سماه (قاعدة فى المؤرخين) ثم شرحها وفسر بعض مقاصدها، واوردها فى ســياق قاعدة أخرى فى الجرح والتعديل ، فان هذا أوحى بأنها له ليست لوالده لأن آراء تاج الدين فى المؤرخين لم تكن مجرد نقل لآراء والده فيهم أو تعليقا عليها ، وانما تبن لها ومنــاداة بها . حتى نسبت له كثيرا(١٧) ، بينما صلب تلك القواعد هى لوالده تقى الدين . ولهذا قان خليل بن أيبك الصفدى أوردها بنصها منسوبة الى تقى الدين السبكى ولم يشر الى آراء ابنه أو شىء من جهده البتة(١٨) . بينما أورد السخاوى (ت٩١١هـ) شواهد من آراء الاثنين(١٩) .

ومن باب الانصاف ينبغى أن يشار الى آراء كل منهما فى مناسباتها. وعندما ينسب بعضها هنا الى تاج الدين ويضاف الى آرائه فهو من باب التغليب ، لا سيما أنها عرفت كثيرا من خلال كتاب الطبقات فضلا عن شهرة اهتمام الابن بالتاريخ اكثر .

اما شروط المؤرخ عند تاج الدين نقلا عن والده تقى الدين السبكى فهى تنقسم الى مجموعتين :

● الأولى فى المنقول عنه وتشمل عدة شروط هى :أولاالصدق(٢٠)، وهى صفة مهمة ولازمة من لوازم المؤرخ ، وهى مايعبر عنه بالعــدالة والضبط التام(٢١) .

ثانيا : أن يعتمد المؤرخ اللفظ دون المعنى فيما ينقله ، وهذا بالنسبة للنصوص فى الأقوال ، لأن التعبير عنها بالمعنى قد يؤدى الى اتلاف فى الحكم المترتب عليها بين لفظ القائل وعبارة الناقل . أما ماعـدا ذلك فاشتراطه نقل اللفظ دون المعنى هو أحد مظاهر الأمانة العلميـة التى ينبغى أن يتحلى بها الراوى وما فى حكمه من وسائل ، فيكون بذلك قد ادى ما تلقاه او سمعه أو شاهده كما حـدث بالضبط ، ويترك للمؤرخين وغيرهم مهمة التفسير والتعليل والاستقراء . ولهذا اشترط فيما يكتبه هؤلاء من انفسهم المعرفة بدلالات الالفاظ وقرن ابنه تاج الدين بقوة بينها وبين العلم(٢٢) ، وهو مما يلزم المؤرخ حتى يتمـيز عن الراوى أو الأخبارى او حتى الوكالة فى العصر الحديث .

ثالثا : عدم الانقطاع بين وقت الخبر وتدوينه ، فالمعاصرة للحدث أو المترجم له أو الاقرب منه تعطى الكتابة التاريخية قيمة اكبر .

رابعا : النص على المصدر المنقول عنه وتسميته من اخذ عنهم اذا كانوا رواة(٢٣) . ولا يجزم الا بما يتحققه سندا ومتنا اذ ينبغى على المؤرخ الا يكتفى بنقل الشائع لمجرد شيوعه دون ترو وتحر ، فان ذلك فضلا عن انه اثم ومفسدة فانه يحط عمله وينفر منه العقلاء والعلماء(٢٤) .

● اما المجموعة الثانية من شروط المؤرخ عند تاج الدين : فهى شروطه فيما يكتبه المؤرخ بنفسه ولا سيما فى باب التراجم والسير ، ومنها ان يكون المؤرخ عارفا بحال المترجم له علما ودينا ، ويقتضى هذا ان يكون فى منزلة المترجم فى الناحية العلمية أو قريبا منها . والأفضل أن يكون مشاركا له فى التخصص ، وهذا شرط مهم ، وقد وصفه هو بأنه عزيز جدا . ذلك ان المؤرخ عندما يعايش الحدث أو يكون فى منزلة من يترجم له ملازما له ، تتاح له معرفته عن قرب ويستطيع أن يقومه اكثر من غيره(٢٥) .

واتبع السبكى هذا الشرط بشرط آخر فى المؤرخ لا يقل اهمية عن الشرط السابق ، هو حسن التصور للمكتوب عنه ، فيصور حاله كما هو بالضبط دون زيادة أو نقصان ، فتصور الشيء فرع عنه(٢٦) .

وعندما أورد خليل بن ايبك الصفدى شروط تقى الدين السبكى، عقب عليها بقوله : « هذه الشروط تلزم الذى يعمل تاريخا على التراجم ، أما من يعمل تاريخا على الحوادث فلا يشترط فيه ذلك ؛ لأنه ناقل الوقائع التى يتفق حدوثها فيشترط فيه أن يكون مثبتا ، عارفا بمدلولات الألفاظ، حسن التصور جيد العبارة »(٢٧) .

ورأى الصفدى هنا يظهر أنه تعليق على شرط المعرفة بحال صاحب الترجمة وحسن تصور حاله ، حتى يمكن قبوله . أما بقية الشروط كالصدق والعدالة والثقة فى المصدر أو غيره فهى شروط لازمة فى المنهج التاريخى سواء كان المكتوب به تراجم أو حوادث تاريخية .

وقد حث بدر الدين العينى - وهو أحد أعلام المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى - على هذا النوع من الكتابة ووصف ما يكتب المؤرخ بنفسه عن مشاهدة وعيان بأنه مطلب حسن ، وأمر محظوظ عليه ،وأنه لا يوازيه الا النقل عن الثقات بالنسبة لما مضى(٢٨) .

ولما كان الهوى آفة من آفات الكتابة التاريخية ، فقد نص تقى الدين السبكى على شرط التجرد من الهوى فيها حتى لا يتعصب أو يمدح من يشاء ، ويهمل أو يذم آخر ، فيطنب فى الأول ويوجز أو يترك الثانى ، أو يطنب فى عيوب المذموم ، ويقصر فى مدحه ، أو يطنب فى مدح آخر ويوجز أو يغفل عيوبه.ومثل ذلك التعصب والهوى يكون للمذهب أو الأقليم أو المدينة أو الدولة ، مما لا تخفى شواهده وآثاره فى بعض المؤلفات التاريخية .

ومن الواضح أن ما حذر منه تقى الدين السبكى وقع فيه بعض المؤرخين ، وعلى سبيل المثال فقد حابى اليعقوبى الشيعة فى تاريخه، ومالأ ابن طيفور البغدادى الدولة العباسية ، وتعصب أبو المطهر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ لمذهب المعتزلة .

كذلك نص تاج الدين السبكى على أن أداة التجرد من الهوى والتعصب هو التزام العدل والانصاف وابتغاء الحقيقة(٢٩) .

وشرط الصدق وذكر الحقيقة فى الحادثة التاريخية ؛ والبعد عن الهوى والعاطفة عند تاج الدين السبكى يجعل المنهج التاريخى يقف فى مصاف مناهج العلوم الأخرى سواء كانت شرعية مثل الحديث - كما سبقت الاشارة اليه - او تجريبية مثل العلوم والطب ، منذ أن قرر الحسن ابن الهيثم (ت٤١١هـ) أن غرض الباحث فى جميع ما يستقرؤه ويرصده هو العدل وطلب الحق لا اتباع الهوى أو الميل مع الآراء(٣٠) . فهو يتسق مع الغاية والأهداف التى تؤدى لها مناهج العلوم عند المسلمين ويسعى لها الباحث المنصف فى التاريخ وغيره .

فاذا التزم المؤرخ بكل ذلك فيما ينقل منـــه ، أو يكتب عنه ، أو يترجم له ، فان ذلك يحتاج الى أداة ناجعة ووسيلة مفيدة فى ايصـــاله للقارىء ، فكم من كاتب أعياه أسلوبه فى ايصال مراده ، وكم من جهد اضاعه سوء الأسلوب واستغلاق العباره ، ولهذا يلزم المؤرخ أن يكون حسن العبارة مجيدا لدلالات الالفاظ(٣١) .

وكان اكثر المتلقين لآراء تقى الدين السبكى وشرحها ابنه تاج الدين. ويعود هذا لقربه من والده وتأثره بثقافته ، ثم الى اهتمام تاج الدين نفسه بالتاريخ.فكتابه الطبقات كتاب تراجم وسير اعلام ، كما ضمن كتابه معيد النعم صورا من النقد التاريخى ، اذ عاب فيه المؤرخين وعـــدهم من الطبقات التى يحتاج عملهم الى تقويم ووصفهم بانهم « على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على اعراض الناس وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من صادق أو كاذب »(٣٢) .

ثم بعد ذلك يوضح فيما ينبغى أن يكون عليه المؤرخون - مثلهم مثل الطبقات الأخرى فى ايضاح المنهج السوى لها - فقال : « لابد أن يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا بحال من يترجمه ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ماقد يحمله على الغض منه »(٣٣) .

ومن الطف تعليقات تاج الدين السبكى على آراء والده أن الكتابة

التاريخية أمانة علمية خاضعة لناموس الثواب والعقاب ، فان حاد المؤرخ عن الحق مبالغة أو غمطا أو مدحا أو قدحا ، فانه يكون قد خان الأمانة ونال ما يستحقه من العقوبة العاجلة والآجلة ، والعكس صحيح(٣٤) ٠

ذلك أن الكتابة على عمومها مثلها مثل الأعمال الأخرى من حيث الأثر فى الفرد والمجتمع ، ومن ثم ضرورة توخيها للصواب من عدمه ٠

ولهذا لم يخف تاج الدين السبكى انتقاده للمؤرخين ، ووجد فى ايراد شروط والده فيهم فرصة مناسبة ٠ فقال عنهم : « ان أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ، ورفعوا أناسا ، اما لتعصب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به ، أو لغير ذلك من الأسباب »(٣٥) ٠

وفى ضوء هذه الاعتبارات، وجه نقدا لاذعا لتاريخ الذهبى، ووصفه بأنه مشحون بالتعصب ، وهو آفة قل أن يخـــلو منها تاريخ فى رأيه ٠ وربما جاء بهذا ليخفف من نقـــده الذهبى ، والا فكثـــير من المؤلفات التاريخية تخلو أو يندر فيها التعصب مثل تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير وغيرهما كثير ٠ وهذا يضطرد مع قوله بأن لا يقبل مدح أو ذم من المؤرخين الا بالشروط المذكورة من قبل ٠

ولم يحدد تاج الدين السبكى ان كان نقده يشمل كـــل المؤرخين أو خاصا بمؤرخى عصره ، ولكن ما ذكره فى صورة مثال عن تاريخ الذهبى يجعل ذلك أقرب الى مؤرخى زمانه ٠

وعلى أية حال فالجميع عنده أكثر جهلا وتعصبا من أهل الجرح والتعديل ٠ لكن قبل التسليم بذلك ، فان المقارنة بين المؤرخين واهـل الجرح والتعديل فيها نظر من حيث الشروط المطلوبة فى كل منهم ومجال عامه ٠ وقد تساهل السلف من قبل فى شروط المؤرخ ومنزلة روايته وفرقوا بين راوى الحديث وراوى التاريخ من حيث درجة العدالة والضبط ٠

وعاب ابن خـــلدون المؤرخين ، وذكــــر أن المؤرخين الحقيقيين - بميزانه - لا يتجاوزون الأنامل ، وأما ما عداهم فهو (بليد الطبع

والعقل)(٣٦)؛ واتهمهم بأنهم أساءوا التاريخ حتى صار على أيديهم واهيا ومختلطا وأصبح بحثه وانتحاله مجهلة(٣٧) .

ولا شك فى أن مؤلف السخاوى - (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) - جاء ردا على بعض من قال من أهمية دراسة التاريخ ومعرفة فوائده وعلاقته بمختلف المجالات والرفع من شأن أهل الاختصاص فيه

ومن يتتبع شدة تاج الدين السبكى وابن خلدون على المؤرخين ويمعن النظر فى فقرات كتاب الاعلان ، يدرك أن السخاوى تتبع التهم الموجهة للمؤرخين وفنذاك والرد عليها ، ولهذا جاء فى مقدمته أن اسم كتابه : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

واخيرا تتضح منزلة آراء تاج الدين السبكى واهميتها من خلال مقارنتها بآراء بعض معاصريه من المؤرخين ، ومنهم خليل بن أيبك الصفدى (ت٧٦٤هـ) ، فقد تحدث فى علم التاريخ وفائدته فى مقدمة كتابه الكبير الوافى بالوفيات . وذكر أول من صنف فيه فى الاسلام ، ثم مدد تواريخ الامم من عرب وقبط ونحوهم ، ثم أصل كلمة تاريخ وكيفية كتابة التاريخ بالسنوات والأيام كقولهم لتسع بقين من المحرم وخمس عشرة ليلة خلت(٣٨) . ومعرفة كيفية نسبة الأعلام الى القبائل والاماكن والبلدان ، وبعض ما يحتاجه المؤرخ من صور الاملاء ثم معرفة الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ والترتيب الهجائى فى تاريخ الاعلام .

ثم ذكر مجموعات من المؤلفات التاريخية وفق الاقاليم وأخرى من التواريخ العامة ، وثالثة من تواريخ الموضوعات كتواريخ الخلفاء والملوك والوزراء والقضاة والعلماء والشعراء والأطباء(٣٩) .

ومن خلال ذلك يتضح الفارق الكبير بين آراء تاج الدين السبكى وشروطه فى المؤرخ ، وبين مادونه خليل بن أيبك الصفدى فيما يلزم المؤرخ . فما ذكره الأول هى صفات ينبغى أن يتحلى بها المؤرخ فى كل حال زمان ، فصفة العدل او الصدق وذكر الحقائق والوقائع هى صفات لازمة لأى مؤرخ فى أى عصر كان .

اما ذكره الثانى فهى فوائد مما يلزم المؤرخ معرفته أى صفات فنية ودربة مهنية تساعد المؤرخ فى سبك معلوماته ، منها ما يثريها ومنهــا ما يظهرها فى صياغة لغوية صحيحة . وهى من باب الأدوات والوسائل المهمة للمؤرخ فى كتابته التاريخ ثم انها قابلة لأن يستزيد منها ، واجادد ما يستجد منها فى كل عصر .

كذلك فان الأولى تنبىء عن صدورها عن عالم يهتم بالمبادىء وادب التاريخ الذى ينبغى أن يحــكم المؤرخ وان يتحلى بمعطياته باعتباره مؤتمنا على رسالته فى هذا المجال من العلوم . اما الثانية فهى صادره عن كاتب كان له مقامه وشأنه فى ديوان الانشاء ، ولهذا جاء أثر عمله وخبرته فى بابه واضحا فى الفصول التى صدر به كتابه الوافى بالوفيات فى قواعد الكتابة الاخرى او مما تختص به عن غيرها مما يعرض للمؤرخ كثيرا اثناء كتابة وتدوين التاريخ .

اما ابن خلدون فان الأسباب المؤدية الى الكذب فى الأخبار وتزيين التاريخ عنده هى التشيع للآراء والمذاهب والثقة فى الرواة دون تعديلهم، ومجاراة أهل التجلة والمراتب والدعاية لهم او لدولهم . وسببها الحقيقى فقدان المؤرخ للشروط التى يجب ان يتحلى بها ، والتى ذكرها تاج الدين السبكى من قبل ببلاغة وايجاز ، مثل الصدق والعدالة والضبط فيه او فى روايته ، وعدم الميل للهوى أنى كانت عوامـــله . فالاثنان متفقان فى النتيجة أو الفائدة التى ينبغى ان يعيها المؤرخ نحو الأخبار والأحداث ، والقارىء فى الحكم أو الموقف من جهده او كتابته فى مطابقته للواقع صدقا او مخالفته له كذبا وما يترتب على كل وجه من نتائج .

وعلى الرغم من ان تاج الدين السبكى أوجز فى شروط المؤرخ وذكر صفات من يخالفها ، فان ابن خلدون فصـــل وعلل لذلك اكثر بما فيـــه الكفاية وحقق الغاية ، فيما ينبغى أن يكون عليه المنهج التاريخى .ويعود الاختلاف بينهما حول التفصيل والايجاز فى هذا المجال الى امرين :

أولهما : المقام الى وردت فيه تلك الآراء ، فتاج الدين السبكى وان

جاءت عنده قصدا لكنها وردت فى عـــرض كتـــاب فى طبقات المذهب الشافعى فحيز التفصيل فيها ضيق وفقا لهذا الاعتبار .

ثانيهما : يعود الى ميل ومجال علم كل منهما . فالتاج يميل اكثر الى الفقه وبيان الشروط والأحكام ، وابن خلدون يميل الى التاريخ أكثر وبيان احوال العصور والدول والأسباب فى وقوع الحوادث والافادة منها. واذا كان السخاوى ذكـــر بوضـــوح آراء تاج الدين السبكى ونقده لآراء والده(٤٠) فان ابن خلدون الذى أدرك تاج الدين السبكى لم يشر الى شىء من شروطه فى المؤرخين على الرغم من مجيئه بعـــد ظهور كتب تاج الدين السبكى .

وعلى العموم فان الفكر التاريخى عند تاج الين السبكى يشبه فى بعض الوجوه الفكر التاريخى عند ابن خلدون من حيث ضوابط دراسة التاريخ ، وقواعد النقد فيه ، وأحوال العمـــران والاجتماع البشرى ، والعوامل المؤدية الى قوة الدولة وصلاح مؤسساتها أو ســـقوطها وضعف ادارتها ، وما ينبغى أن تكون عليه الوظائف والحرف والصنائع فيها . لاسيما أن كلا منهما فقيه وله ولع بدراسة التاريخ والعيش فى عصر واحد الا أن الاخير اكثر شهرة تاريخية بدون شك .

ولا معنى لأن يتجاهل روزنتال جهـود تاج الدين السبكى وآراءه حول التاريخ وشروطه فى المؤرخ عندما كتب فى علم التاريخ عند المسلمين.

★ ★ ★

ثانيا ـ الفكر الاصلاحى :

عنى العلماء المسلمون بالاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى كثيرا خلال القرنين السادس والسابع . وكان المجال السياسى ابرزها وضوحا ، فقد حدد الشيزرى (ت٥٨٩هـ) الأسس التى تقوم عليها الدولة بأنها تتمثل فى الوزارة والرعية والقوة والمال . ووصفها بأنها فيها بمثابة الأركان للبناء(٤١) ؛ حتى ذكر ما يحفظ على الحكام صـــحتهم ويدرأ عنهم مكائد الأعداء وغوائل الأصحاب(٤٢) .

ووصف سبط بن الجوزى (ت٦٥٤هـ) كتابه بانه الجليس الصالح والأنيس الناصح للحاكم وكبار رجال دولته ، وما ينبغى لهم من السيرة وادارة الامور او استعماله من الرجال الأكفاء . والى جانب هذا فهو يزودنا بمعلومات قيمة عن طبقات المجتمع فى عصره(٤٣) .

وكانت مؤلفاتهم تختلف عن مفاهيم الوعظ وذكر المحاسن التى تضمنتها كتب مرايا الحكام والامراء مثل كتاب التاج للجاحظ من قبل أو حتى كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك الذى ألفه عبد الرحمن بن عبد الله فى القرن السادس للملك الناصر صلاح الدين .

على أن الأرجح أن تاج الدين السبكى اعتمد اكثر على مؤلفات وآراء علماء القرن الثامن سواء الذين عاصروه ، أو عاشوا قبله بقليل : وعلى رأسهم ابن تيميه (ت٧٢٨هـ) الذى قرر قاعدة المحافظة على الدين وعدم مخالفة الوظائف والأعمال لقواعده وأحكامه ، وعد ذلك من أهدافها ووظائفها الكبرى فى كتابه الهام السياسة الشرعية(٤٤) ، وهو المبدا الذى نادى به تاج الدين السبكى ، وبنى عليه كثيرا من فكره الاصلاحى. كذلك فصل كثيرا فى أعمال الوظائف الكثيرة التى أوردها ابن تيمية سردا(٤٥) ، وعد كل منهما أن ولاية القضاء بحق من أفضل القربات(٤٦) .

ويبدو أن السبكى تابعه - فيما نرجح - فى الحديث بايجاز عن غزو المغولى وهول وقعه ، وفظائع صنيعه فى العالم الاسلامى وقتذاك

كذلك تتضح اهمية كتابه واختلاف مفهومه والارتقاء بموضوعه من خلال مقارنته بمؤلف ابن رضوان المالقى (ت٧٨٣هـ) الذى اسماه الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، وتحدث فيه باسهاب عن الخلافة والوزارة والشورى والعدل والجهاد والبريد وغيرها(٤٧) مما كان دارجا عليه منهج هذا النوع من المؤلفات .

وثمة فرق بين فى المقصد والدافع فى ايضاح هذه الآراء والتاليف، بين تاج الدين السبكى وبين ابن رضوان المالقى فقد قصد الاول النقد

والاصلاح وعلاج الواقع من تلقاء نفسه ، بينما جاء تاليف الثانى بناء على تكليف أحد سلاطين بنى مرين له(٤٨) للافادة مما يذكره أو يشير به عليه ، ولا يخفى أثر وقوة وحتى استقلال آراء كل منهما تبعا لاختلاف الدوافع .

وقد أولى تاج الدين السبكى صلاح أرباب الوظائف الكبرى فى الدولة اهتماما كبيرا ، اذ ابتدأ بهم ، وقدمهم على غيرهم من حيث الاثر والمنزلة والقدوة بهم عندما يؤدون وظائفهم كما ينبغى أو عكس ذلك ، وقسمهم الى فئات وفقا للمعهود من وظائفهم فى عصره . ونص على ماينبغى أن تكون عليه كل طبقة تبعا لمسئوليتها وخطرها فى المجتمع .

ولما كانت مقاصد الأعمال الحقة هى خدمة الصالح العام ، وتحقيق مقاصد الشرع منه فانه يرى أن صاحب أى وظيفة ينبغى ألا ينشغل بمصالحه أو يوجه تلك الوظيفة لتحقيقها ، أو يسخر من يعاونه فيها لخدمتها .

ولهذا جاء نقده وتقويمه لأوضاع عصره تاما من جميع الجوانب والمستويات . ذلك انه نقد الوضع السياسى وأصحاب وظائفه ، والوضع الاقتصادى وتقويم وظائفه المالية ، والجوانب الاجتماعية وضرورة استقامة أدائها وجودة انتاجها . وبهذا شمل نقده السلم الاجتماعى من أعلى وظيفة فيه الى أدنى أخرى فى قاعدته ، فى مفهوم متكامل الغاية لاصلاح المجتمع ومؤسساته ، لكى تدوم عليه النعمة وتستديم .

أما عندما يعم الفساد والقصور بعض مؤسساته ، فالبناء والهدم لا يجتمعان ، وذلك مما يزيل النعمة ويوجب النقمة .

وقد صاغ تاج الدين السبكى عنوان كتابه معيد النعم ومبيد النقم بعناية تنبئ عن مقصده فى المنهج الذى ينبغى أن تسير عليه الأوضاع فى المجتمع فى ضوء حفظ كل ما يفيده فى مختلف المجالات ويذهب الفساد والقصور بمختلف الوانه ، وهو المعنى أو المبدأ نفسه الذى قصده امام الحرمين الجوينى عندما سمى أحد كتبه غياث الأمم فى التياث الظلم .

وفيما يلى نقده وتقويمه لبعض جوانب عصره :

أولا - السلطة العليا :

وتشمل وظائفها السلطان ونوابه والوزراء والقواد وكاتب السر وصاحب الرسائل وصاحب بيت المال ومامور الاقطاعات وصاحب البريد .

وكانت هذه الاعمال من أخطر الوظائف خلال العصور الاسلامية ، وكان لصلاحها او فسادها أثر كبير فى كيان الدول . وعلى الرغم من أن السبكى عنى منها بما كان قائما فى دولة المماليك التى عاش فيها ، بدليل استخدامه لسمياتها المعروفة وقتذاك ، مثل الدوادار والخازندار ، فانه يحاول أن يقدم ما يساعد على اصلاحها وذكر ما ينبغى أن تكون عليه . ونقد المخالف منها لذلك . وضرب الامثلة على استقامة أحوالها أو فسادها مما يبقى النعمة وآثارها على متوليها ومجتمعهم أو يبيدها .

والحكم عند تاج الدين السبكى من وظائف الوالى العام أو السلطان، وقد لخص وظائفه فى تجنيد الجنود واعداد الجيوش ، واقامة فرض الجهاد ضد الأعداء(٤٩) . وكذلك اقامة الصلوات وعمارة المساجد . وقد عاب على بعض سلاطين عصره الاكثار من ذلك فى الوقت الذى تقاعس فيه عن عمارتها بالجمع والجماعات ؛ أو انهم تسموا بها ليقال هذا جامع فلان ونحوه ، بينما هى عمرت من أموال الرعايا(٥٠) .

وقد أوجز تاج الدين السبكى فيها اكتفاء بما أورده العلماء عنها من قبله ، مثله الماوردى والفراء والغزالى وابن الجوزى كما مر من قبل . وأشار هو بوضوح الى ذلك عندما ذكر أن الفقهاء أكثروا الحديث فيها . ووصف عمله فيها بانه بحث مختصر(٥١) .

وهذا اختصار ، يقابله تفصيل فى مهام الوظائف الأخرى فى المجتمع .

ومن هذه الوظائف أنه ركز بوضوح على وظائف الحكم المحيطة بالسلطان ، فهو يعزو عوامل بقائه ونجاحه وقوته أو ضعفه وزواله الى

اخلاص أصحاب تلك الوظائف المساندة له فى كل حين من عدمه ؛ فقد حذر النواب من الاستبداد دونه والحجاب ، أو الدوادارية من الوقوف بين الرعية والسلطان والحيلولة دون وصول حاجاتهم اليه . وحث صاحب البريد على القيام بالصالح العام بعيدا عن الاستغلال له من قبل رجال الدولة فى شؤونهم الخاصة وهو ما عبر عنه بالأغراض الدنيوية(٥٢) .

وهو يتفق هذا مع المعيار الذى وضعه ابن تيمية من قبل ، والمطلوب اتباعه فى أى جهة أو مصلحة ، وهو أن يستعان فيها أو يستعمل أصلح من يجده القائم عليها(٥٣) . وأن على صاحب الأمر فيها أن يستعمل أصلح الموجودين وأن يحرص فى كل منصب أو وظيفة على أن يختار القيام بها الأمثل فالأمثل(٥٤) .

أما هو ، فمن حق الولاية - وهى من أكبر الوظائف - عنده القيام بأمور الرعية ونفع الناس ، وعدم اذاهم ، وتجنب الهوى فى ادارتهم ، حتى أنه يستوى لديه من هو صالح فى ذاته ومن هو تارك لوظيفته ، ومنشغل بملذاته عن أمور الناس فيقول : « ولو أنك تركت الناس هملا يأكل بعضهم بعضا وجلست فى دارك تصلى وتبكى على ذنوبك لكنت مسيئا على ربك »(٥٥) فالقيام بحقوق الوظيفة وتطبيق مقتضاها نحو المستفيدين منها مقدم على مايعود للذات - أى لصاحبها نفسه - حتى وان كان ذلك عبادة(٥٦) .

الوظائف العسكرية : وتشمل ناظر الجيش والسلحدار أى صاحب السلاح والجمقدار ، وهو حامل العتاد ، وحرس السلطان ، وهى وظائف عنى بها المماليك ورتبوا لها الجند كلا فى مجاله . ويلحق بها وظائف أخرى مثل أمير علم وهو القائم على الطبول والرايات . والسبكى كثيرا ما يوضح طبيعة عمل الوظائف التى يذكرها(٥٧) .

وقد بكت على كثير من هؤلاء ممن يدعى أن أعجميته التركية لا تمكنه من معرفة المبادىء الاسلامية والتطبيق العملى لها فى صدر الاسلام أو فى بعض الفترات اللاحقة(٥٨) .

ولما اشتملت عليه الادارة العسكرية فى عصره من فساد وجهل وبطش بالناس فقد نقدها السبكى كثيرا ، فمرة يصف القواد بالجهل والعصبية ، وأخرى يعيب عليهم احتجان الأموال وامتلاك القناطير المقنطرة منها ، وارتكابهم المنكرات وانشغالهم بالحصول عليها عن وظائفهم الأساسية(٥٩) .

الحرف والصناعات :

ذكر السبكى أكثر من عشرين حرفة شائعة فى المجتمع ، وذكر كثيرا من أوجه أعمالها ، ودورها فى الحياة العامة . وهو من العلماء القلائل الذين عنوا بهذه المهن ، ونادوا بتنظيمها ، والاهتمام بها ، والرقابة عليها ، وتحسين مستواها ، ورفع وعيها ، ليجنى المجتمع من وراء ذلك عملا متقنا ونتاجا مفيدا ، فهى تسهم فى كثير من الصناعات والخدمات التى لا غنى له عنها .

وتعد آراؤه فى أصحاب الحرف والصناعات دستورًا مهما، لا من حيث انواعها فى عصره والحال الذى كانت عليه ، وانما من حيث حملهم على مراعاة الأمانة والاخلاص فيها من حيث المطلب الشرعى ومقتضى العرف المهنى والاتقان فيها . والاول لسلامة الهدف وتحقيق الغاية الكفائية فيها . والثانى أداء حق المهنة والاختصاص فيها . وقد زاد من قبولها حسن التوجيه والرفق بهذه الطبقة مقارنة بموقفه ونقده لأصحاب الوظائف السلطانية .

وقد دافع عن الفلاحين مثلا فقال : « والفلاح حر لا يد لآدمى عليه ، وهو أمير نفسه »(٦٠) ، وقد حذر من تدخل الادارة العسكرية فى أمور الزراعة والزام الفلاحين ما لا يطيقون . وفى ذلك تعطيل لخبرتهم واشغال لأولئك – أى العسكر – بما ليس من عملهم ، وفيه ترك لوظيفتهم الأساسية . ولازال تدخل تلك الادارات فى أمور الزراعة مضرا باقتصاد الأوطان حتى فى العصر الحديث .

أهداف مؤسسات المجتمع :

يوضح تاج الدين السبكى هدف مؤسسات المجتمع باختلاف مجالاتها، بأنه خدمة الصالح العام ، وتحقيق مطالب الناس فى بابه ، واحتساب الأجر والثواب فى القيام به ، ومخالفة زوال الفوائد والمصالح المترتبة عليه .

وفى المقابل يحذر من انحراف أغراض تلك المؤسسات الى تحقيق المصالح الخاصة والأغراض الدنيوية للقائمين عليها ، ومن ثم تعطل نشاطها وانقطاع فوائدها وحلول النقمة والعقاب عاجلا أو آجلا .

وهو كثيرا ما يذكر الصورة الصحيحة لعمل كل ادارة ومهام كل وظيفة ، ويتبع ذلك أيضا بأوجه القصور بل والانحراف والفساد فى أدائها ، ويضرب عليه الأمثلة من عصره كما سيأتى .

والعمل هو الأساس الذى بنى عليه اراءه فى أحوال المجتمع ومعايش الناس ، ولهذا عنى كثيرا بقيمة العمل مهما دنا وتواضع شأنه أو اعتباره فى المجتمع ، طالما أغنى صاحبه عن السؤال ونحوه ؛ وأداه وفق مقتضاه الشرعى والمهنى فى أمثاله ، فهو أسعد حالا ومالا من أعمال أكبر منه فيها معصية الشارع وتلف لأهلها أو المجتمع . فالأول مهىء للنفع والبقاء والثانى مؤذن بالفساد والزوال(٦١) .

كذلك عد المسئولية الذاتية فى العمل أنى كان مجاله مسئولية فردية من حيث التبعية فى العقاب والثواب ، وما يترتب عليها من آثار ونتائج فى المجتمع . لا يغير من ذلك ارضاء وال ، أو طاعة مدير ، وفقا لمبدأ أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد حث فى الوظائف الكبيرة نواب السلطان مثلا على مراجعته اذا ما أصدر ما يخالف الشرع أو ما يلغى أو يصادم مصلحة عامة ، وأن يكون هذا المفهوم حاضرا لدى كل أصحاب الوظائف والمهن . ولهذا يرى استواء الكافة فيه من شرائح المجتمع ، حتى أن الساقى لا يجوز أن يقدم لمخدومه أو فى رواد محله ما يحرم تقديمه أو تداوله . فالأصول عنده مراعاة قواعد الشرع وما يحفظ على الناس صحتهم(٦٢) ، دون مجاراة لأحد أو تحقيق مصلحة ذاتية عاجلة.

ويدل ذكره للوظائف الصغرى فى المجتمع على عدة مفاهيم ، منها علو قيمة العمـــــل ، ومنزلة صاحبه مهما كان ، ومنها أنها ضرورة من ضرورات المجتمع والحياة فيه ، ومنها أن الحاجة لها قائمـــة فى أى مجتمع مثل أى الوظائف الكبرى فيه ، مع التسليم بالتفاوت فيها من حيث الاهمية والآثار . ومنها أن مؤسسات المجتمع مهما علت او دنت لابد من شرط الصلاح والاخلاص فيها حتى لا يكون هناك تصادم بين انشطتها ونتائج أعمالها ، لمـــا لهـــذه الوظائف من اثر فى القاعـــدة الاجتماعية ، أو الراى العام ، يغفل عنه بعض المفكرين أو يولون الوظائف الكبرى فى المجتمع اهتماما أكبر منه . وحتى لا يكون هناك ارتقاء فى جوانب فيه ، وقصور أو انحطاط فى أخرى .

لهذا كله فان من شروط الوظيفة الكبرى فى المجتمع عنده معرفة حدود عملها وميادينه والا فلا يزاحم عليها من هـــو اكفا منه وادرى بمسئولياتها(٦٣) .

وقد عاب على بعض الأتراك فى عهده تصديهم لبعض الوظائف التى تتعلق بمصائر الناس دون معرفة حدودها والواجب فيها(٦٤) .

وعلل امام الحرمين الجوينى لذلك من قبل بقوله : « انما ينسل عن ضبط الشرع من لم يحط بمحاســنه ، ولم يطـــلع على خفـــاياه ومكامنه »(٦٥) .

واذا كان معاصره ابن جماعة عرض قواعد الحكم والوظائف الكبرى فى الدولة الاسلامية ، كالامامة والوزارة والقضاء والجهـــاد وفـــروعها وأحكامها من ناحية السياسة الشرعية(٦٦) ، فان تاج الدين السبكى فى ذكره كان أعم من حيث شموله لكثير من جوانب الحياة . ثم انه أكثر قربا من الواقع المعاصر له ، وتنظيمه ونقد بعض أوضاعه . لهذا حاول تقويم ادارات الدولة بعدا ، او قربا ، تطبيقا ، أو تركا لمفهوم العمل وحـــق ادائه ، وفق القواعد والأحكام المنظمة له فى الاسلام . وقد استوت عنده فى ذلك الأعمال الكبيرة كالادارات العسكرية والمالية والقضاء ، والحرف الصغيرة كالبنائين وسائسى الخيل وحتى الاسكافية .

هذا الى ان فكرة العمل عنده سامية تحتكم الى الاحكام والقواعد الاسلامية فى مجاله ، وهى الاحكام والمبادىء التى تتخذ من خدمة الصالح العام وسد حاجة المجتمع فى كل مجال ، وبذل غاية الجهد فى ذلك ، معيارا عاما للعمل . ثم تربط بين ما يتحقق من فوائده للجميع فى الدنيا والثواب عليه فى الآخـــرة ، وتبعا لذلك يكون بقاؤه باتباعهـا وزواله بمجانبتها .

وهكذا فالرقابة عليه ذاتية من قبـــل صاحبه ان كان يعرف تلك الاحكام أو من قبل جهة تختص بذلك . من حيث الهدف والجهد والمستوى الذى ينبغى أن يكون عليه .

فالعمل هنا له غايتان متلازمتان دينية ودنيوية لا يمكن أن تنفصلا؛ ولهذا فان فكره عنه بعيد عن مفهوم خلق العمل وشرف المهنة التى تنادى بها بعض مدارس الفكر الحديث .

رعاية العـلم والعلماء :

ومن ابرز آراء تاج الدين الفكرية الاهتمام بالعلم ورعاية أهله ، فذلك علامة ارتقاء نهوض الامم ، والحرص على هذا المنهج والاستمرار عليه علامة من علائم بقاء النعم ، ودوام الاستقرار عنده . فالعلم لو لم يطلب الا لذاته ولعلو منزلته فى الحياة لكفى صحبه همة ونبلا ، فضلا عن أن يطلب لاقامة الحياة على اسسه واصلاح أحوالها ، وتعليمه الناس، ومحاولة أداء صنائعهم ، ومعايشتهم ، وفق مفاهيمه .

ونادى بأن يكون العلم غاية للسلطة ، وأن تكون علاقتها به قائمة على التلازم والتطبيق الحقيقى له،ففى ذلك بقاء لها وقوة . ومن ثم حث أهل السلطة فى عصره على احترام العلماء وتقديرهم ، فهم حملة العلم ومنائر وجوده ؛ والا تصدق فيهم وشاية أو دسيسة بسهولة(٦٧) . حتى ان ابن تيمية قبله نص على أن اولى الأمر فى الدولة هم الأمراء والعلماء وذكر أن كلا منهم ركن فى صلاح أحوالها(٦٨) .

واعتبر الذيل من العلماء ، أو تحقيرهم أو عـــدم رعاية علمهـــم وتشجيعه والافادة منه أو من حملته فى وظائف الدولة ، من الجهـــل بمكان . ومن مظاهر ذلك أيضا الاستخفاف بهم والتقتـــير عليهم ، أو استكثار أرزاقهم . وقد عاب الاوضاع فى دولة عصره ضمنا عندما أشار الى أن مرتب أكبر فقيه هو دون رزق اقل مملوك فيها(٦٩) .

كذلك عاب على ولاة عصره اتخاذهم الحراس والأموال والاطباء فى كل منشط ، فى حين لا يتخذون أحدا من العلماء ينير لهم سبل الحياه وما ذلك الا لأن أمر أبدانهم عندهم أهم من أمر معاشهم ومعادهم(٧٠) .

وكان تاج الدين السبكى منصفا فى آرائه ، فحتى العلماء - وهو واحد منهم - عاب على بعضـــهم الاشتغال بالاختـلاف حـــول الفروع والتعصب للمذاهب ، والانحراف فى المناظرات فيما بينهم ، وتركوا كثيرا من عظائم الأمور فى الحياة مهملة دون أن يؤمر بها ، كما تركوا كثـيرا من المحرمات تؤتى دون ان ينهى عنها(٧١) ؛ وباب الدعوة دون طرق ، وتركوا مسلمين جددا من اهل الذمة أو غيرهم دون رعاية وتعهد(٧٢) .

وكثيرا ما يحدد السبكى واجبات كل ظفية ، ويحد قواعد العمل فى مجالها دون تداخل مع غيـــرها ، بل انه يوضح فى بعض الأحيان ماطرا على مفهومها فى عصره من تحديد او تغيير ؛ فهو يقـــول عن الوزير : « وهو اليوم اسم لمن ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع الى السلطان وبيت المال »(٨٣) .

كذلك لم يقف عند بيان مهام كل وظيفة وحدود عملها وانما اهتم بالعقاب المترتب على الانحراف أو القصور فى القيام بها ، وذكر أنواعه ودرجاته ، كأن يعزل فاعله أو يضرب أو يطاف به فى الأسواق(٧٤) .

وتاج الدين السبكى لم يكن مشرعا باعتباره فقيها بالمعنى الحديث لهذا المصطلح فحسب ، وانما كان رجل دولة من الطراز الأول ، فعندما ننظر الى رأيه فى موضوع أو جانب من علاقات الدولة الخارجية نجد فيه صدق التفكير وبعد النظر وصلاح تطبيقه الى اليوم . يقول عن مهام رئيس

المراسم : « المهمندار اسم لمن يقوم بأمور قصاد الملوك ورسلهم ، فمن حقه أن يعتمد مصلحة الاسلام ، ويرهب القصاد ، ويوهمهم قوة المسلمين وشدة بأسهم ، وعظيم سطوتهم ، واتفاق كلمتهم ، وقيامهم فى حوزة الدين ... وحفظ النظام ، وأن ينهى أمور القصـــاد الى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة . (وأن يقدر) من يتعين عليه المبادرة الى اكرامه ومن يتعين عليه الكف عن اعظامه بحسب ما تقتضيه الحال . ومن الحق على الملك ونوابه الاحتفال عند حضور قصاد الملوك ، واظهار القوة وحسن الملبس وكثرة الجيش ، واستعدادهم على الوجه الشرعى»(٧٥) .

وهكذا فان آراء تاج الدين السبكى الاصلاحية تتسق مع الوحدة فى النظام الاسلامى ، وموقفه من ادارة الحياة ومؤسساتها المختلفة، والصيغة النظامية التى تتميز بها شريعته ، ومطالبتها بأن يكون التطبيق العملى وفقها أنى واين كان القائم به . فالموظف صغيرا كان أم كبـــيرا مكاف بالقيام بالمصالح العامة باختلاف ميادينها ، وتعهدها بالرعاية والاتقان ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما فوق قدرته يعذر فيه . كما أن مظاهر عنايته بمختلف الوظائف والطبقات بما فيها الصغرى ، ومفهومه الشامل للاصلاح وقربه من الواقع تجعل آراءه أدق واكثر قبولا .

★ ★ ★

الخاتمـــة :

وبعد ، فمما لا شك فيه أن السبكى عاش فى صـــميم الحياة فى عصره ، وعرك مختلف جوانبها ، وخبر مستوى الأداء ، وأوجه القصور، وأنواع الأهداف والمقاصد ، والقرب فيها من قواعـــد الشرع ، ومقتضى الوفاء بحق كل عمل من عدمه ، وساهم بنصيب فكرى عظيم مستقرا من الواقع العملى .

اما أهل زمانه فان تاج الدين السبكى قصدهم مع غيرهم ، وخصهم بأنهم لن يصلوا الى مقام الاصلاح الذى ينشده ، ولكن لعلهم على الأقل يرجعون أو يقصرون عما هم فيه(٧٦) .

كل ذلك بعد أن استقرأ أحداث التاريخ ، ووقف على مشاكل عصره وقدح فكره فى نقدها ، وتقديم الحلول لها .

والسبكى فى فكره التاريخى الاصـــلاحى لا ينبع من مثاليـات أو جدليات فلسفية على غرار كثير من الفلاسفة واصحاب المدن الفاضلة من قبله ، وانما يقوم فكره على ثلاثة أسس واضحة هى :

الأول : حكم العمل وموقعه من المبادىء التى تحكم المجتمع ، اذ من حق اى مجتمع أن تكون الأعمال فيه موافقة ومنسجمة مع مبادىء شريعته او قانونه ، وهذا امكن لقبول المجتمع لهــا وانجح لنشــاطها ومردودها المادى فيه .

والثانى : الاخلاص فيه واتقانه كما يجب وبذل الجهد فيه دائما للوصول الى مستويات افضل سواء غلب عليه الطابع الوظيفى أم المهنى .

والثالث : الاعتماد فى التقويم على الواقع التاريخى ونقـد القائم منه من وظائف أو اعمال وبيان مظاهر القصور ، ومطامح الارتقاء ، والعوامل والوسائل المؤدية الى كل مستوى ، وذكر القرائن والنظائر له من ماضى المجتمع نفسه أو من المجتمعات الأخرى .

ولهذا ، فان آراءه تمثل صفحة أخرى من أصالة الفقـــه السياسى والادارى عند المسلمين ، وبعده عن التبعية الفارسية أو اليونانية وأثر الطبقية والفلسفة فيهما . كما انها تمثل احد مظاهر نضج علم السياسة أو علم الاجتماع السياسى فى مصر والشام خلال القرن الثامن وهو القـرن الذى شهد نضوجه فى المغرب على يد ابن خلدون .

الهـــوامش

(١) من مؤلفات ابن حزم فى هذا الباب كتاب السياسة .

(٢) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٠٦ .

(٣) الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٤) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٠٦ .

(٥) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص ٢٢ .

(٦) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٥ .

(٧) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٢ .

(٨) ابن الأثير ، جـ٩ ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

(٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(١٠) محمد الصادق حسين : البيت السبكى ، ص ٤٢ .

وقد ظهر كتاب البيت السبكى منذ ٤٨ عاما تحدث فيه مؤلفه عن نسب البيت السبكى والتعريف بأعلامه وأوضاع مصر فى عهد المماليك . واقتباسات من كتاب معيد النعم . ومجموع صفحاته ٩١ صفحة .

(١١) تاج الدين السبكى : طبقـــات الشـــافعية الـكبرى ، جـ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ٣٢٩ ، ٣٤٢ .

(١٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٥ .

(١٣) تاج الدين السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٢ ، ص ٢ .

(١٤) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٣ .

(١٥) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٦ .

(١٦) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٧٥ .

(١٧) أخرج الشيخ عبد الفتاح أبو غدة مجموعا محققا ضمنه قاعـــدة فى المؤرخين لتاج الدين السبكى ، وقد حوى المجموع بالاضافة الى قاعدة له فى الجرح والتعديل ، وكذلك المتكلمون فى الرجال للسخاوى ، كذلك ذكر من يعتمـد قوله فى الجرح والتعديل للذهبى . كما ضم لها ما أورده عن المؤرخين فى كتابه معيد النعم وكلها جاءت فى حدود صفحتين عدا التعليقات والهوامش .

(١٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٧٦ ـ ٤٧ .

(١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

(٢٠) تاج الدين السبكي : الطبقات ، جـ١ ، ص ٢٣ ٠

(٢١) السخاوى : الاعلان ، ص ١١٤ ـ ١٢٧ ٠

(٢٢) الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٤ ٠

(٢٣) تاج الدين السبكي : الطبقات ، جـ١ ، ص ٢٣ ٠

(٢٤) السخاوى : الاعلان ، ص ١٢٦ ٠

(٢٥) تاج الدين السبكي : الطبقات ، ص ٢٣ ٠

(٢٦) نفســـه ٠

(٢٧) الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٤٧ ٠

(٢٨) السخاوى : الاعلان ، ص ٩٩ ٠

(٢٩) تاج الدين السبكي : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٤ ٠

(٣٠) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ص ٢٤٧ ٠

(٣١) تاج الدين السبكي : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٣ ٠

(٣٢) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٧٤ ٠

(٣٣) نفســه ٠

(٣٤) تاج الدين السبكي : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

(٣٥) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢ ٠

(٣٦) المقدمة ، صص ٤ ـ ٥ ٠

(٣٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٨ ٠

(٣٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٢٠

(٣٩) المصدر السابق ، جـ١ ،ص ٥١ ـ ٥٢ ٠

(٤٠) الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ ٠

(٤١) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ٢٠٠ ـ ٢٢٣ ٠

(٤٢) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥ ٠

(٤٣) سبط بن الجوزى : الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص ٦٣ ،٧٢، ١٣١٠

(٤٤) ص ٤ ، ٦ ٠

(٤٥) السياسة الشرعية ، ص ٥ ٠

(٤٦) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ١١ ، تاج الدين السبكي : معيـــد النعم ، ص ٥٨ ٠

(٤٧) ابن رضوان المالقى : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، ص ٥٦ ، ٢٠٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ٠

(٤) المصدر السابق ، ص ٥١ ٠

(٤٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ١٦ ٠

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ ٠

(٥١) المصدر السابق ، ص ٢ ٠

(٥٢) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٣٢ ٠

(٥٣) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٤ ، ٥ ٠

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٨ ٠

(٥٥) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ١٤ ٠

(٥٦) نفســـه ٠

(٥٧) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٢٣ ـ ٣٧ ٠

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٤١ ٠

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ ٠

(٦٠) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٣٤ ٠

(٦١) تاج الدين السبكى : معيد ، ص ١٤٥ ٠

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢١ ـ ٢٣ ، ٣٨ ٠

(٦٣) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم . ص ٤٢ ٠

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٤١ ٠

(٦٥) غياث الأمم ، ص ١٧٠ ٠

(٦٦) ابن جماعة : تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاســـلام ، ص ٥١ ـ ٥٣ ، ٧٥ ـ ٧٧ ، ٨٨ ٠

(٦٧) تاج الدين السبكى : معيد النعم ،ص ٤٨ ٠

(٦٨) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٨٩ ٠

(٦٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٤٩ ٠

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢ ٠

(٧١) المصدر السابق ، ص ٧٦ ٠

(٧٢) نفســـه ٠

(٧٣) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٢٧ ٠

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ ٠

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢ ٠

(٧٦) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٠ ٠

المصادر والمراجع

— ابن الأثير : عز الدين على بن محمد :
الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥م .

— تاج الدين السبكى : ابو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى :
- طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحى ، مطبعة البابى عيسى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٤م .
معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على النجار وزميايه .
جماعة الأزهر للنشر والتاليف ، القاهرة ١٩٤٨م .

— ابن تيمية : تقى الدين أحمد بن عبد الحليم :
السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية . المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— ابن جماعة : بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله .
تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام ، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد ، ط٣ ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٨م .

— الجوينى : امام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله :
غياث الامم فى التياث الظلم ، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم وزميله ، دار الدعوة ، الاسكندرية ، (د.ت) .

— ابن حجر : شيخ الاسلام أحمد بن حجر العسقلانى :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة (د.ت) .

— ابن خلدون : عبد الرحمن :
المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (د.ت) .

— ابن رضوان المالقى : ابو القاسم :
الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق د. على سامى النشار ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٤م .

— سبط الجوزى : يوسف قزاو بن عبد الله :
الجليس الصالح والأنيس الناصح ، تحقيق فواز صالح فواز ، دار رياض الريس ، لندن ، ١٩٧٧م .

- السخاوى : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :
الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق فرانزروزنثال ، ترجمة د. صالح العلى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .

- الشيزرى : عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر :
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، تحقيق على عبد الله الموسى ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ١٩٨٧م .

- الصفدى : خليل بن أيبك :
كتاب الوافى بالوافيات ، باعتنـــاء هملوت ريتر ، ط٢ ، نشــر فرانزشتايذر ، فسبادن ١٩٦٢م .

- ابن قاضى شهبة : أبو بكر بن أحمد بن محمد :
طبقات الشافعية ، باعتناء د. الحافظ خان ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٧م .

- محمد الصادق حسين :
البيت السبكى ، دار الكاتب المصرى ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

- النشــار : على سامى :
مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ط٣ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م .

رسالة صلاح الدين الأيوبى الى بلدوين الرابع
ملك بيت المقـــدس
(٥٦٩هـ = ١١٧٤م)

د. عادل عبد الحافظ حمزة(*)

أورد القلقشندى نص رسالة أرسلها «صلاح الدين الأيوبى» (٥٦٩هـ/١١٧٤م – ٥٨٩هـ/١١٩٣م) سلطان الدولة الأيوبية الى الملك « بلدوين الرابع » (١١٧٤م/٥٦٩هـ – ١١٨٥م/٥٨٠هـ) ملك بيت المقدس ،يعزيه فى وفاة والده الملك « عمورى الأول – (أماريك الأول) (١١٦٣م/٥٥٨هـ – ١١٧٤م/٥٦٩هـ) ويهنئه – فى الوقت ذاته – بجلوسه على عرش مملكة بيت المقدس ، والرسالة من انشاء « القاضى الفاضل » ونصها هو :

« أما بعد : خص الله الملك العظيم حافظ بيت المقـدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحـــظ الزائد والتوفيق الوارد ، وهناه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فان كتابنا صادر اليه عنـــد ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق،والنعى الذى وددنا ان قائله غير صادق بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزيا بما يجب فيه العزاء ، ومتأسفا لفقـــــده الذى عظمت به الأرزاء . الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعـــل ولده الوارث ، وأنسى المصاب بأن حفظ به النصاب ووهبه النعمتين الملك والشباب ، فهنيئا له ما حاز وسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لو جاز. ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا بإقامة العزاء

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد – كلية الآداب – جامعة المنيا .

من لسانه ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووده الذى هـــو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، ولبات الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية .. ومحبة ثبت عقدها فى الحيـــاة والوفاة ، وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى الدين من المخالفات فليسترسل الينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل ، والله يديم تعميرة ، ويحـــرس تأميره ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويلهمـــه تصـــديق ظن الصديق »(١) .

هذا هو نص الرسالة كما ذكرها القلقشندى .

وبدراسة هذه الرسالة يبدو أن السلطان « صـــلاح الدين » حرص على أن يظهر أنه حزن حزنا شديدا لوفاة « عمورى » الأول ملك بيت المقدس ، وعبر عن هذا الحزن بعبارات قوية مثل « والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق » و « متأسفا نفقده الذى عظمت به الأرزاء » و«كيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه » و « ليعلم أنا كنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية » . وفى الوقت نفسه أظهر صلاح الدين سعادته بتولية « بلدوين الرابع » مكان والده الملك « عمورى الأول » حيث يقول « الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث » وعبر صلاح الدين عن مشاعره نحو الملك الجديد بأن تعهد بأنه « سيصادق من يصادقه الملك الجديد « بلدوين الرابع » ويحافظ على « وده الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا » .

وربما قيل أن هذه الرسالة تعبر عن مهارة صلاح الدين فى مجال علاقاته السياسية مع الصليبيين،فالحرب خدعة والمعاملات السياسية مع الأعداء تتطلب قدرا من الذكاء والمراوغة بحيث يظهر الانسان لعدوه غير ما يبطن . وبالرجوع الى مصادر تاريخ تلك الحقبة أو الحلقة ندرك أن

صلاح الدين كان لايمكن أن يغفر للملك «عموري الأول» الصليبي ملك بيت المقدس ، تطلعه الى السيطرة على « مصر » منذ تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ١١٦٣م/٥٥٨هـ ، عندما اشتد النزاع بين «شاور» و « ضرغام » على كرسي الوزارة في مصر(٢) ، وكيف أن الملك «عموري الأول» حاصر بقواته « أسد الدين شيركوه » - عم صـــلاح الدين - في بلبيس لمدة ثلاثة أشهر سنة ١١٦٣م/٥٥٩هـ(٣) ، ولم يرفع « عموري الأول » الحصار الا بعد أن كثف نور الدين محمود هجماته على الصليبيين في الشام(٤) ، بل ان « صلاح الدين نفسه عانى من حصار الصليبيين له في الاسكندرية لمدة اربعة أشهر عندما كان قائدا في جيش « أسد الدين شيركوه » بمصر سنة ١١٦٦م/٥٦٢هـ ، ولم يرفع الصليبيون الحصار عنه الا بعد مفاوضات طويلة تمت بين « أسد الدين شيركوه » والصليبيين ، فضلا عن ضغط « نور الدين محمود » عليهم بالشام(٥) .

وما أن تولى « صلاح الدين » الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد خلفا لعمه « أسد الدين شـــيركوه » في جمادى الآخـــر ٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م(٦) ، حتى بدأ يهاجم الصليبيين - قوات مملكة بيت المقدس - على حدود مصر ، ففتح ايله سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، وهاجمهم في عسقلان والرملة(٧) وصدهم ابان مشاركتهم البيزنطيين في الهجوم البحري والبري على مصر(٨) وأحبط في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م دور الصليبيين في المؤامرة الكبرى التي اشترك فيها الملك « عموري الأول » نفسه والحشيشية ووليم النورماني وعناصر من الداخل كانت تهدف الى القضـــاء على « صـــلاح الدين(٩) . وقد عدد « صلاح الدين » العناصر التي شاركت في هذه المؤامرة - وذكر منهم الصليبيين - في الرسالة التي أرسلها الى الخليفة العباسي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م(١٠) .

وفي هذه الأجواء مات الملك « عموري الأول » في ١١ من يوليو ١١٧٤م/ ٩ من ذي الحجة ٥٦٩هـ(١١) وذلك بعـــــد وفاة « نور الدين محمود » بحوالي ستة وخمسين يوما تقريبا ، وذلك في المرحلة التي اخذ صلاح الدين يتطلع لأن يرث سيده نور الدين في دولته بالشام ومصر . وكان صلاح الدين يدرك جيدا أن طموحاته ستصدم بمقاومة شديدة من

جانب مملكة بيت المقدس الصليبية ، واذا فان صلاح الدين حرص على اخفاء نواياه من جهة وخديعة بلدوين الرابع(١٢) ملك بيت المقـــدس الجديد من جهة أخرى ٠

وربما كان مصدر ارتياح صلاح الدين أن ملك بيت المقدس الجديد - بلدوين الرابع - كان مريضا ، صغير السن ، غير متمرس فى فنـــون الحرب والقتال ، مما يعطى فرصة لصلاح الدين ليوحد المسلمين فى الشام والجزيرة ومصر تحت زعامته ، وبذلك يعيد بناء الجبهة الاسلامية تمهيدا لتوجيه ضربات مباشرة ضد الصليبيين ٠

ولكن « بلدوين الرابع » لم يلبث عقب توليه الحكم أن مد نشاطه العسكرى ضد « صلاح الدين » ، فهدد دمشق سنة ١١٧٥م/٥٧٠هـ ، كما حاول منع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب،بمشاركة «ريموندالثالث» امير طرابلس الصليبى وعلى اقليم البقاع الذى كان « تورانشاه » أخو « صلاح الدين » يرابط لدفع خطر الصليبيين عنه(١٣) ٠

وعندما اخـذ صـلاح الدين يهاجـــم الصليبيين فى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م(١٤) ، انتهز الصليبييون فرصة تقدم « صلاح الدين » بجيشه فى اتجاه القدس تاركا بعض قواته لمحاصرة عسقلان فى جمادى الآخرة ٥٧٣هـ/١١٢٧م ، وانقضوا عليه ٠ وقد شارك الملك « بلدوين الرابع » بنفسه فى هذا الهجوم ، الذى انتهى بهـــزيمة جيش « صلاح الدين » جنوبى شرق الرملة٠وقد اطلق بعض المؤرخين علىهذه المعركة اسم معركة « تل الجزر »(١٥) ولم يكتف الملك « بلدوين الرابع » بذلك بل حاول استغلال الحملة الفلمنكية ليوجهها ضـــد مصر بقيادة فيليب الالزاسى » الذى كان يزور بيت المقدس آنذاك ، لكن الأخير رفض واكتفى بشـــن اغــارات على حمــــاه وحمص فى نوفمبر ١١٧٧م/جمادى الآخـــرة ٥٧٣هـ(١٦) ٠

ثم كان أن عاد « صلاح الدين » الى مصر بعد هزيمته فى معركة تل الجزر ليعيد تنظيم قواته ، حتى اذا ما اتم ذلك توجه الى الشام فى شعبان ٥٧٣هـ/١١٧٨م(١٧) ، حيث انزل الهـــزيمة بالصليبيين فى مرج

عيون(١٨) ، كما خرب حصن بيت الأحزان فى ربيع الأول ٥٧٥هـ/يونيه ١١٧٩م ، الذى بناه الصليبيون ، وكان قد طالبهم بهـــدمه ، فرفضوا وطلبوا منه تعويضا كبيرا مقابل ذلك(١٩) . وهكذا لم يهدأ الحال بين « صلاح الدين » و « بلدوين الرابع » حتى تم عقد الصلح بين الجانبين لمدة سنتين اعتبارا من سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م(٢٠) .

ويلاحظ أنه بالرغم من هذا الصلح فان بعض الأمـــراء الصليبيين قاموا بأعمال عسكرية ضد المسلمين منهم « رينالد دى شاتيون » (أرناط) الذى هاجم القوافل الاسلامية فى بلاد الشام فى سنة ١١٨٠م/٥٧٥-٥٧٦هـ، كما اعد اسطولا فى البحر الأحمر سنة ١١٨٢م/٥٧٧ - ٥٧٨هـ واستولى على ايله التى كان « صـــــلاح الدين » قد استردها من قبل كما ســـبق ذكره(٢١) .

يضاف الى ذلك بعض المعارك المدنية التى دارت عندئذ بين صلاح الدين وبلدوين الرابع خلال عام ٥٧٧ - ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، اذ حاصر صلاح الدين بيروت برا وبحرا فى ربيع الثانى ٥٧٨هـ/أغسطس ١١٨٢م ، فأمر بلدوين الرابع باعداد الأسطول الصليبى فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من حصار صلاح الدين(٢٢) .كذلك أراد صلاح الدين أن ينتقم من أرناط - رينالد دى شاتيون - فاتفق مع أخيه العادل الأيوبى بمصر على محاصرة امارة الكرك الصليبية التابعة لهذا الأمير الصليبى . وبالفعل بدأ صـــلاح الدين يحاصرها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، غير أنه لم يستمر فى هذه العملية بسبب ما بلغه من قدوم القوات الصليبية ومعها بلدوين الرابع ملك بيت المقدس محمولا فى محفة لشدة مرضه آنذاك ، فرفع صلاح الدين الحصار عن الكرك فى نفس العام لأنه لم يكن عندئذ على استعداد تام للقيام بعمل عسكرى كبير ، والدخول فى حرب مباشرة ضد الصليبيين حيث ان ذلك سابق لأوانه عندئذ(٢٣) . ومع ذلك فقد حاول صلاح الدين مرة أخرى حصار امارة الكرك فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/صيف ١١٨٤م ، غير أنه لم يحقق غرضه لقوة تحصينها ، فاقلع عنها واتجه الى دمشق بعد أن ارسل سرية لمهاجمة اقليمى الجليل ونابلس الصليبيين(٢٤) .

ومما سبق يمكن القول ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لم يتأثر برسالة صلاح الدين،ولم يتزحزح عن سياسة والده العدائية،ولم يكف عن هجماته ضد المسلمين الا بعد أن اشتد عليه المرض ولازم الفراش فى أوائل عام ١١٨٣م(٢٥) . وكان ان توفى فى مارس ١١٨٥م وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، بعد أن قام بدوره فى شجاعة نادرة ضد صلاح الدين طوال فترة حكمه(٢٦) (١١٧٤ - ١١٨٥) .

وقد تولى مملكة بيت المقدس بعده بلدوين الخامس فى الوقت الذى ساءت أحـوال المملـكة الصليبية من جانب وازدادت هجمات رينالد دى شاتيون الصليبى صاحب الكرك على القوافل الاسلامية من جانب آخر ، وذلك فى أواخر سنة ١١٨٦م/٥٨٢هـ ، الأمر الذى أدى بصلاح الدين الى توجيه ضربته الى الصليبيين فى حطين فى يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٤ من يولية ١١٨٧م .

وفى هذه الأجواء أرسل صلاح الدين رسالته الى بلدوين الرابع معزيا اياه فى وفاة أبيه ، مهنئا بقيامه فى حكم المملكة الصليبية فى بيت المقـدس .

★ ★ ★

وأيا ما كان الأمر فان السؤال الأول الذى يفرض نفسه حول هذه الرسالة التى أوردها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، هو : هل ورد لهذه الرسالة ذكر فى بقية المصادر المعاصرة فى الشرق أو فى الغرب ؟

الواقع انه بالاطلاع على المصادر المعاصرة والمراجع الحـديثة لم نحصل على أية اشارة الى هذه الرسالة . وكان احرى بوليم الصورى ليس بصفته سجلا الأحداث فحسب ، بل بحكم عمله فى ديوان المراسلات وخاصة فى نهاية عهد عمورى الأول ، كان أحرى به أن يشير الى هذه الرسالة لما لها من اهمية ولما حوته من عبارات وكلمات منسوبة الى صلاح الدين تفيض بالود والمسالمة . ولكن هذا لم يحدث ، ولم يرد للرسالة ذكر فى سجلات مملكة بيت المقدس الصليبية .

واذا تركنا المصادر الغربية جانبا ورجعنا الى المصادر العربية التى عاصرت تلك الحقبة بصفة عامة وحياة صلاح الدين بصفة خاصة ، ثم المصادر اللاحقة بها بفترة ليست طويلة ، نجد أن هناك عددا لا بأس به يشير الى ما حدث فى مملكة بيت المقدس من موت ملك وقيام آخر ولكن دون ادنى اشارة الى رسالة صلاح الدين التى نحن بصددها . ومن هذه المصـــادر :

١ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ولم يذكر عن وفاة عمورى الأول الا العبارة الآتية فى حوادث عام ٥٦٩هـ «وفيها هلك ملك الفرنج مرى لعنه الله ، وأظنه ملك عسقلان ونحوها من البلاد ، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية لولا فضل الله ورحمته بعبـــاده المؤمنين » وذكر أيضا « أن مرى ملك الفرنج ـ لعنه الله ـ مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة ، فلما توفى خلف ابنا مجذوما عاجـــزا عن تدبير الملك فمملكة الفرنج صورة لا معنى لها » .

٢ ـ وهناك سيرة صلاح الدين المسماة بـ « النوادر الســـلطانية والمحاسن اليوسفية » التى ألفها بهاء الدين ابن شداد (شداد جده لأمه). وقد التحق بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وسجل فى هذا الكتاب بعض الجوانب العامة من حياة صلاح الدين منذ وصوله الى مصر أول مرة مع أسد الدين شيركوه حتى وفاته(٢٧) .

٣ ـ كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان « لشـــمس الدين بن المظفر بن قزاو غلى التركى وهو سبط الشيخ جمال الدين الجـــوزى ، المعروف بـ (سبط ابن الجوزى) المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م . وقد تناول جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الأيوبية . وليست به اشارة الى هذه الرســـالة .

٤ ـ كتاب « الروضتين فى أخبـــار الدولتين » و « الذيل على الروضتين » لمؤلفهما شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن المعروف بأبى

شامه المتوفى سالة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ، وقد كتب كثيرا عن الدولة الأيوبية ولكنه لم يذكـــر عن وفاة عمورى الا العبـــارة الآتية « ورد كتاب من الداروم(٢٨) يذكر انه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة (٥٦٩هـ/ ١١ يولية ١١٧٤م) هلك مرى ملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسمه مشتقا واقدمه على نار تلظى لا يصلاها الا الأشقى »(٢٩) .

هذا فضلا عن عدد آخر من المصادر التى عالجت تاريخ صلاح الدين وبنى أيوب فى تلك الحقبة منها :

٥ - مخطوطة « الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب» الجزء الثانى لأبى سعيد ابى الحسن على بن موسى المغربى المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م .

٦ - وكتاب « البرق الشامى » من تاليف الأصفهانى ، واختصره الفتح بن على البندارى تحت اسم « سنا البرق الشـــامى »(٣٠) وهو يتنـــاول من سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م الى سـنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فى تاريخ الدولة الأيوبية .

٧ - و « المختصر فى أخبار البشر » تاليف عماد الدين اسماعيل أبى الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، فقد تعرض للدولة الأيوبية زمن صلاح الدين .

٨ - وكتاب « وفيات الأعيان وأنباء ابنـــاء الزمان » لأبى العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م(٣١) .

٩ - أما قاضى القضاة مجير الدين الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م ، فقد الف كتابين أحدهما « شفاء القلوب فى مناقب بنى ايوب» والآخر « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

والشىء الذى يسترعى الانتباه هو أن كافة هـــذه المصادر لم يرد بها ذكر لرسالة صلاح الدين التى اوردها القلقشندى .

وهنا نواجه سؤالا آخر هو : لماذا لم تشر المصادر الغربية والعربية الى تلك الرسالة التى يذكرها القلقشندى دون غيره من المعاصرين .واذا كانت المصادر العربية لم يرد بها ذكر أو اشارة لهذه الرسالة ، فهل أمر صلاح الدين بعدم تسجيلها لأنها مرسلة الى الملك الصليبى بلدوين الرابع ونظرا لما تحويه من عبارات الود تجاه الكيان الصليبى ببلاد الشام ؟ واذا كان هذا صحيحا فلماذا أوردت بعض هذه المصادر المراسلات التى كانت بين الملك الأرمنى(٣٢) والامبراطور البيزنطى(٣٣) من جانب وصلاح الدين من جانب آخر ؟ واذا كانت هذه المصادر العربية قد امتنعت بالفعل عن تسجيل هذه الرسالة بناء على رغبة صلاح الدين فلماذا لم تشر اليها المصادر الصليبية وخاصة سجلات مملكة بيت المقدس ، ووليم الصورى الذى كان يتولى ديوان الانشاء فى المملكة الصليبية ببيت المقـــدس فى الفترة (من ١١٧٠ _ الى _ ١١٧٤م)(٣٤) ثم مجموعات الحـــروب الصليبية التى أوردت تقريبا أغلب ما كتب عن الحروب الصليبية .

واذا كانت هذه الرسالة صحيحة ، فمن أين استقاها القلقشندى وهو الذى ولى رئاسة ديوان الانشاء فى دولة سلاطين المماليك بعـــد قرنين تقريبا من تاريخ تلك الرسالة على أيام صلاح الدين ؟

★ ★ ★

الواقع ان انفراد القلقشندى بذكر هـــذه الرسالة فى كتابه صبح الأعشى ، مع اعراض من ســبقه وخلفـــه من المؤرخين عن نقلهـــا أو الأخذ بها يجعلنا نشك فى صحتها ، وخاصة بعد أن لمسنا ما فاضت به من مشاعر ودية مبالغ فيها تجاه الصليبيين مما لا يتفق وروح العصر . واذا كانت هذه الرسالة تعلوها مسحة من اسلوب القاضى الفاضل ، فاننا لا نستبعد أن يكون واضع الرسالة قد تعمد ذلك بمهارة ليزيل عنها الشكوك ، ويضمن الصاق الرسالة بصلاح الدين .

ان التاريخ يعتمد على الحقائق والأدلة والبراهين والرؤية المنطقية الصادقة وليس على مجرد العبارات الانشائية التى تنسب الى فرد أيا كانت مكانته ، والتى يعوزها الدليل والبرهان . علينا أن نذكر ان صلاح الدين

كان له خصوم ، اما من اتباع الدولة الفاطمية وبقاياها واما من اتباع نور الدين محمود وأسرته . ولا نستبعد أن يكون واحد من هذا الفريق أو ذاك قد دس هذه الرسالة على سيرة صـــلاح الدين ليتشفى من ذلك البطل الذى اتصف بصدق الايمان وقوة العقيدة والحرص على كل ما فيه كرامة الاسلام والمسلمين .

الهــوامش

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشــا . القاهرة ١٩١٤ ، جـ٧ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ·

وانظر : المخطوط « صبح الأعشى فى صناعة الانشــا ورقة رقم ١١٧ ، ١١٨ ، الجزء الرابع ، المجلد الاول ، دار الكتب المصرية رقم ١٨٨٨٠ ز ميكروفيلم رقم ٢٤٣١٤

(٢) أنظر : سعيد عاشــور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠ ص ١٢ ـ ١٤ ·

(٣) ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب تحقيق : ســعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، جـ٧ ، ص ٢٧ ·

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ، جـ١١ ص١٢١، وأبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين لبنان ١٨٧١م . جـ١ ، ص ١٣٢ ، وسبط ابن الجوزى مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان الهند ١٩٥١م ، ق٢ ، جـ٨ ، ص ٢٤٦ · وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، جـ٢ . ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦ · وستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٨م ـ ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ٥٩٥ ·

(٥) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ · وابن أيبك الدوادارى : مصدر سابق جـ٧ ، ص ٢٨ ، وابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ · وانظر : ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب ورقة ٠٧، وابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، بيروت ١٩٧٠م ، جـ٢ ، ص ١١١ · وابن كثير : البداية والنهاية بيروت ، ١٩٦٦م ، جـ١٢ ، ص ٢٥٢ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٠٦ ·

(٦) ابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٣٧ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٦٠ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٦٨٣ ·

(٧) ابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٤٧ · وسبط ابن الجوزى : مصدر سابق ق١ . جـ٨ ، ص ٢٨٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، تحقيق رمضان ششن ، بيروت ، ١٩٧١م ، ق١ ، ص ١٠٨ ·

عسقلان : من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها عروس الشام استولى عليها الصليبيون فى جمــادى الآخـــرة ٥٤٨هـ/سبتمبر ١١٥٣م · انظر ياقوت الحموى : معجـــم البلدان ، بيـــروت ، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ ، جـ٢ ، ص ٤١ ·

ـ الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين انظر : ياقوت الحموى : نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٨٨ ٠

(٩) ابراهيم الحنبلى : مصدر سابق ورقم ٢٢ ٠ وابن الوردى : مصدر سابق جـ ٢ ، ص ١٢٨ ٠ وابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق : محىالدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ جـ٦ ، ص ١٦٥ ٠ والبندارى : مصدر سابق ق١ ، ص ١٦٩ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٠٥ ـ ٧٠٧ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٥٠ ٠

(١٠) أبو شامة : مصدر سابق جـ١ ، ص ٢٤٣ ٠

(١١) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٤٦ ٠ وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٠٧ ٠

(١٢) سعيد عاشور : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٧٠٨ ٠

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٢٠ ـ ٧٢٢ ٠

(١٤) ابن الوردى : مصدر سابق جـ٢ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(١٥) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٢٧٣ ، وابن شـــــداد : النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٥٢ ٠ وستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٧٢ ٠

(١٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٤ ـ ٧٢٦ ٠

(١٧) Riemoud (M) : Notice sur La vie de Saladin, Sultand' Egypte et Syria, Journal Asiatique, Tome 5, pp. 226:237.

(١٨) مرج عيون : بسواحل الشام : انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٥ ، ص ١٠١ ٠

(١٩) شاهنشاه بن أيوب : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، ورقة ٩ ١ ، ٩ب ٠ وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١١ ٠

ابن الوردى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٣٥ ، وابن كثير : مصدر سابق ، جـ١٢ ، ص ٣٠٢ ، وانظر : سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٥ ٠

(٢٠) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٧٩ ـ ٦٨٠ ٠ وسعيد عاشور: مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٥ ٠

(٢١) ابن الوردى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٤٠ ، وابن كثير : مصدر سابق، جـ١٢ ، ص ٣١١ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٣٥ ـ ٣٧ ٠

(٢٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٦ ٠

(٢٣) ابن شداد : مصدر سابق ، ص ٦٢ ٠ وابن كثير مصدر سابق ، جـ١٢ ص ٣١٤ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١١ ـ ٧١٢ ٠

(٢٤) ابن الاثير : مصدر سابق ، جـ١١ ، ص ٢٠٦ وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١٤ ٠

الجليل : تقع على ساحل الشام بين حمص ودمشق ، انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ٠

نابلس : تقع بفلسطين ، بينها وبين بيت المقـــدس عشرة فراسخ ٠ انظر : ياقوت الحموى : مصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ٢٤٨ ٠

(٢٥) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٩٨ : ٦٩٩ ، ٧٠٢ : ٧٠٣ ٠

(٢٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١٠ ٠

(٢٧) حقق هذا الكتاب جمال الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

(٢٨) الداروم : قلعة بعد غزة فى طريق القادم الى مصر ، بينها وبين البحر مقدار فرسخ ، وقد خربها صلاح الدين عنـــدما ملك الســاحل سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨ ـ ١١٨٩م ٠ انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٤٢٤ ٠

(٢٩) ابو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٢٣٤ ٠

(٣٠) حقق القسم الأول من هذا الكتاب رمضان ششن ونشر فى بيروت ١٩٧١م٠

(٣١) الجزء السادس من هذا الكتاب حققه محمد محى الدين عبد الحميد ونشر فى القاهرة سنة ١٩٤٨م ٠

(٣٢) ابن شداد : مصدر سابق ، ص ١٢٦ ٠

CF : Rohricht (R.) : Op. Clt., No. 694, p. 185.

(٣٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ، ص ١٢٢ ٠ وسعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٩٤ ـ ٧٩٥ ، ونظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٠٢ ٠

CF : Brand (Charles-M) : The Byzantines and Saladin (VV85-1192), Speculum V. 37, America, 1962, pp. 168.

(٣٤) انظر : عمر كمال توفيق : مرجع سابق ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ٠

(٣٥) لمزيد من المقارنة انظر :

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، جـ٧ ، ص ١١٨ ، جـ٨ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر ٠

مصادر ومراجع البحث :

أولا : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

- ابن الأثير : (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الملقب بالجزرى) ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م .
الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ١٨٧٣م .

- أحمد عزت عبد الكريم :
مقدمة كتاب «أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى»،الجمعية المصرية التاريخية القاهرة ، ١٩٧٣م .

- ابن أيبك الدوادارى : ت ٧٣٣هـ/١٣٢١م
كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب « تحقيق سعيد عاشور » ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

- البندارى : (قوام الدين الفتح بن على)
سنا البرق الشامى ، القسم الأول تحقيق/رمضان ششن ، وهو مختصر البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٧١م .

- سبط ابن‌الجوزى : (شمس الدين ابن المظفر يوسف بن قرا وغلى التركى) ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧م .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، الجزء الثامن ، الهند ١٩٥١م .

- الحنبلى : (قاضى القضاة أبو اليمن مجير الدين الحنبلى) ت ٩٢٨هـ/١٥١٩م
- الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل جزآن ، بيروت ١٩٧٣م.
- شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب .

— ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م ٠
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٠
- المجلد الثانى ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩م ٠
- الجزء السادس ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م ٠

— ستيفن رنسيمان :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ، ٦٨ - ١٩٦٩م ٠

— سعيد عاشور :
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م ٠
- الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٧٦م ٠
- أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى ، مقال فى كتاب أبو العباس القلقشندى ، الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م ٠

— أبو شامة : (شهاب الدين ابن محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى الشافعى) ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ٠
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، بيروت ، ١٨٧١م ٠

— ابن شداد : (بهاء الدين) ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ٠
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ٠

— شاهنشاه بن أيوب : (الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه) ت ٦١٧هـ/٢٠ - ١٢٢١م ٠
مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، حققه حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨م ٠

عبد القادر أحمد طليمات :
وثائق القلقشندى ، مقال فى كتاب « ابو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— عمر كمـــال توفيق :
الدبلوماسية الاســـلامية والعـــلاقات الســـلمية مع الصليبيين ، الاسكندرية ، ١٩٨٦م .

— قـــدرى قلعجى :
صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ، ١٩٦٦م .

— القلقشندى : (أبو العباس) ت ٨٢١هـ/١٤١٨م .
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٤م .
ومخطوط بدار الكتب المصرية ، الجزء الرابع ، المجلد الأول رقم ١٨٨٨٠ز ميكروفيلم /٢٤٣١٤ .

— ابن كثير : (الحافظ الدمشقى) ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م .
البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م .

— محمد عبد الله عنان :
مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتـــابه صبح الأعشى » الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— محمد كامل الفقى :
الأدب فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٦م.

— محمد ماهر حمادة :
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى . (٤٨٩-١٢٠٦هـ/١٠٩٦ - ١٤٠٤م) بيروت ، ١٩٧٩م .

— المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م ·
السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ·

— نظير حسان سعداوى :
- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة، ١٩٥٧م ·
- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ، ١٩٦١م ·

— ابن الوردى : (زين الدين على) ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ·
- تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى، بيروت ، ١٩٧٠م ·

— ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م
- معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٧م·

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

— Archer (T. A.) :
The Crusades The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1919.

— Brand (C. M.) :
The Byzantines and Saladin (1185-1192), Speculum, V. 37, America, 1962.

— Conder (C. R.) :
The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.

— Duggan (A) :
The Story of the Crusades (1097-1291), London, 1963.

— Ehrenkreutz (A. S.) :

Saladin, Speculum, V. 49, New York, 1972.

— Jean (M.) and Brial (J.) :

Recueil Des Historiens Des Gaules et De La France, Paris, 1888.

— King (E. J.) :

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

— Michaud (J. F.) :

Histoire des Croisades, T. 2-3, Paris, 1816-1822.

— Poole (S.L.) :

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, New York, 1898, 9162.

... Reinaud (M.) ·

Notice sur la vie de Saladin Sultan d'Egypte et Syrie, Journal Asiatique. T, 5, Paris, 1824.

— Rohricht (R.) :

Regesta Regni Hiersoloy Mitani (1091-1291) Berelin 1892.

— Setton (K. M.) :

A History of the Crusades, V. 1, New York, 1955, V. 2, London, 1962.

— Stevenson (W. B.) :

The Crusaders in the East, Beirut, 1969.

— Thatcher (O. J.) and McNeal (E. H.) :

A Source Book for Medieval History, America, 1905.

— Vinsofs (G.) :

Itinerary of Richard I and Others to the Holyland, London, 1848, New York, 1969.

— William of Tyre.

A History of Deeds Done Beyond the Sea, V. 1-2, Translated and Annotated by Babcock (E.A.), New York, 1943.

فتح الرياض وموقف القوى الكبرى منه

د. حيـــاة محمد البســام(*)

أحوال نجد قبل قيام الدولة السعودية الأولى :

كانت بلاد نجد خاصة والجزيرة العربية عامة قبل قيام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية الدينية فى القرن الثانى عشر الهجرة تعج بالخلافات السياسية ؛ اذ كان القـــوى ينقض على الضعيف ، دون وجود قانون يحكم البلاد . أما الوعى باحكام الدين فكان ضعيفا ، مما أدى الى انتشار الخرافات والاوهام التى أساءت الى الدين الاسلامى . وهكذا بدا أن الوضع فى هذه المنطقة يحتاج الى اصلاح دينى وسياسى فقيض الله لها ذلك المصـــلح الدينى الذى انبرى للقضـــاء على هـذه الخرافات ، وعمل على توحيد البلاد تحت اسم دولة يكون هدفها اقامة شرع الله . أما عن هذا المصلح ـ وهو الشيخ محمد بن عبـــد الوهاب ـ فقد نشأ وتربى فى بيت دين وعلم ، اذ كان جده ســـليمان قاضـيا فى العيينة ، وأبوه رجل علم ، ومن هذا المنطلق برز الشيخ ليدعو أبناء بلده الى العودة لدين السلف الصالح . وكانت هذه الدعوة بعد عودته من رحلاته العلمية بين نجد والحجاز والعراق والاحساء(١) .

والواقع ان دعوة الشيخ محمـــد بن عبـــد الوهاب كانت دينيـة اجتماعية ، مما جعله يصطدم بالكثيرين من المعارضين له ، فى البصرة وحريملاء والعيينة ، ولكن الله قيض له فى امارة العيينة أميرها (عثمان ابن معمر) الذى ساعده وسانده بالجهر فى دعوته الدينية الاصلاحية ؛ فخرج معه وقاما بهدم ما وضع على القبور من أنصاب وقباب ، ودمرا معاقل الشرك المنتشرة فى تلك المنطقة ؛ مما جعل خبره ينتشر فى أنحاء البلاد النجدية فازداد أعداؤه . وهكذا حتى وصل خبره الى امير الاحساء فى ذلك الوقت وكان يدعى سليمان بن محمد ابن عريعر ـ من بنى خالد

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك عبد العزيز .

حكام الاحساء ذوى النفوذ القوى والسلطة النافذة فى غالبية بلاد نجد - فأرسل ذلك الحاكم خطابا الى أمير العيينة عثمان بن معمر يأمره بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولكن عثمان الذى تربطه بالشيخ صداقة قديمة أطلعه على هذه الرسالة وطلب منه مغادرة العيينة ، فغادرها فى عام ١٧٤٥م/١١٥٨هـ متجها الى الدرعية التى يحكمها محمد بن سعود(٢) .

وكان أن استقبل أمير الدرعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب استقبالا حسنا وسانده فى نشر دعوته الاصلاحية ، وبذلك غدت الدرعية مركزا لطلاب العلم الذين يأتون من مختلف البلاد النجدية لطلب العلم على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وعندما ازدهرت الدرعية اقتصاديا مكنها ذلك من مد سلطانها على باقى أنحاء نجد وتوحيدها تحت لواء كلمة التوحيد ، ورفع راية الجهاد من أجل اعلاء كلمة الحق ومناصرة دين الاسلام . وكانت هذه هى الشعارات التى رسمت لخطة التوسع للدولة السعودية ، فدارت معارك طاحنة بين الأمير محمد بن سعود يسانده الشيخ محمد ، وبين أمير الرياض دهام بن دواس . وكان النصر حليف محمد بن سعود ، الذى استطاع انزال الهزيمة بخصمه وضم الرياض والوشم وسدير الى الدرعية . ويعتبر هذا النصر نواة لتأسيس الدولة السعودية الأولى ، حيث واصل محمد بن سعود جهاده حتى ضم غالبية مناطق نجد(٣) .

وقد أراد زعيم بنى خالد حاكم الاحساء ويدعى عريعر بن دجين أن يضرب هذه الدعوة فى مهدها فحاول تثبيط عزم زعيم الدرعية ، ولكنه فشل فى ذلك مما زاد من حماسة جنود الدرعية ، وعلى رأسهم زعيمهم محمد بن سعود . لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، بل واجه دعوة الشيخ وقيام هذه الدولة الفتية خصم عنيد فى الحجاز هو شريف مكة المكرمة ، ويدعى غالب بن مساعد ، الذى أظهر العداء بعد أن خاف على سلطانه من امتداد نفوذ الدعوة ، مما جعله يقف فى وجهها . وكانت الدعوة قد استطاعت أن تعصف بنفوذ بنى خالد فى الاحساء وتضمه تحت حكمها وتكوين دولة مستقلة تضم نجد والاحساء . وبعد ذلك تطلعت

لتخليص الحجاز من ظلم الشريف غالب ، فزحفت جنود الدولة السعودية واستطاعت أن تضم الحجاز بعد أن منى الشريف بهزيمة ساحقة(٤) ٠

وهكذا فرضت الدولة السعودية سلطانها على الحجاز وصارت تهيمن على الأماكن المقدسة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، مما جعل الدولة العثمانية تشعر باهتزاز مكانتها الدينية فى نظر العالم الاسلامى ٠ وقد رأت الدولة العثمانية فى الدولة السعودية خطرا يهدد هيبتها فى نظر المسلمين ؛ لذا قررت استعادة مكانتها فى شبه الجزيرة العربية فارسلت جيوشها ، أو ما أسمته الحملة الأولى ، تحت قيادة طوسون باشا ابن محمد على ؛ ولكن هذه الحملة تكبدت خسائر فادحة وقتل فيها طوسون ، فاتبعتها بحملة ثانية تحت قيادة ابراهيم باشا الذى دخل نجد ودمرها وأحدث بها الخراب ، وخاصة الدرعية (عاصمة آل سعود) التى خربها ودمرها تدميرا ، ثم غادرها بعد أن وضع عليها واليا من قبله(٥) ٠

ولا شك فى ان سقوط الدرعية يعنى سقوط الدولة السعودية الأولى ، ولكن ذلك لم يكن معناه أنتهاء هذه الدولة ، وانما كان بمثابة غيابها لفترة وجيزة عن الساحة السياسية حيث أن ذكراها لم تغب عن نفوس الكثير من النجديين الذين أحبوا افراد هذه الأسرة وما قامت به من مساعدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٠ ومن جهة أخرى فان آراء وتعاليم هذه الدعوة ظلت راسخة فى أذهانهم ، يضاف الى ذلك المخاوف من تزايد أطماع الدول الأجنبية فى سواحل الخليج ، وبخاصة النفوذ البريطانى الذى أخذ ينتشر على السواحل العربية ٠

وسرعان ما عادت الأسرة السعودية الى الظهور على مسرح الأحداث السياسية على يد أحد ابنائها ـ ويدعى تركى بن عبد الله ـ الذى يعتبر المؤسس الأول لهذه الدولة ٠ وقد اتخذ من الرياض عاصمة له بعد تدمير الدرعية على يد جنود ابراهيم باشا ٠ ثم خلفه فى الملك ابنه فيصل الذى يعتبر المؤسس الثانى للدولة(٦) ٠

وسرعان ما ازدهرت الدولة السعودية الثانية واسترجعت ما ضاع منها من أملاك ، وعندئذ بدأ الخطر يلوح بظهور قوة جديدة منافسة لقوة

آل سعود هى قوة آل الرشيد فى حائل ، وخاصة بعد أن ألقى القبض على فيصل بن تركى وأرسل الى مصر . وكانت تلك الحقبة الزمنية مرحلة توقف للدولة السعودية الثانية ، ولكنها عادت الظهور مرة أخرى بقيادة فيصل بن تركى نفسه الذى حكم البلاد مرة أخرى ويسط سلطانه عليها حتى وصل الى الحجاز وعسير . ولم تستقر الامور بعد وفاته الا فترة وجيزة ، اذ دب الخلاف بين أولاده مما جعل ابن الرشيد فى حائل- وهو الذى كان يتحين الفرصة - ينقض على حكم آل سعود ويسيطر على نجد برمتها . وكان أن خرج الامام عبد الرحمن بن فيصل « والد الملك عبد العزيز » ترافقه اسرته من الرياض الى منطقة الخليج بعد أن جال فى الصحراء مدة من الزمن ثم استقر بالكويت حيث لقى هو واسرته الترحاب من حكام هذه المنطقة من آل الصباح(٧) .

وقد بقى عبد العزيز فى الكويت فترة ،يتطلع الى حكم أجداده الذى سلب منهم ، حتى صمم على استعادته وأحياء الدولة السعودية الثالثة تحت راية التوحيد ، وتم له ذلك فأسس المملكة العربية السعودية .

نشأة عبد العزيز وتربيته :

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبد الله آل سعود فى مدينة الرياض بقصر الامارة المعروف بالصفاة فى التاسع عشر من ذى الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠م . وكان مولده فى أسرة حاكمة محبة للعلم ، هيات له أسباب التعليم فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن كاملا ، ثم أخذ يتدرب على ممارسة الفروسية بكل ضروبها من ركوب الخيل وفنون القتال واستعمال آلات الحرب حتى أجادها وهو مازال صبيا . يضاف الى ذلك ماعرف به عبد العزيز من حدة الطبع وشدة الذكاء ، وحب الحركة ، وتطلع للزعامة منذ طفولته(١) .

وقد شهد عبد العزيز بن عبد الرحمن الخلاف الذى دب بين أفراد أسرته قبل رحيلهم الى الكويت ، وعاصر الظروف الصعبة التى مرت بها الأسرة ، وعاش شطرا من حياته فى كل من البحرين والكويت ، فى

حين رأى بلاده (نجد) وقد سيطر عليها آل الرشيد مما جعله يزداد تصميما على الاستعداد القتال(٢) .

وفى ذلك الوقت أخذ آل الرشيد يحكمون سيطرتهم على نجد تحت قيادة عبد العزيز بن متعب بن الرشيد ، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى . وتم ذلك بمساندة الدولة العثمانية التى كانت المهيمنة على العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . ثم كان أن أخذ عبد العزيز بن الرشيد يتطلع الى الكويت طامعا فى أن تكون له حدود ساحلية تطل على هذا الممر الهام الذى يعتبر شريان الحياة وهمزة الوصـــل بين الشرق والغرب ؛ اذ كانت بلاده من البلاد الداخلية التى تفتقر الى سواحل لتغذية نشاطها الاقتصادى . ومن هذا المنطلق فكر ابن الرشيد فى ضم الكويت الى أملاكه ؛ ولكن هذا لم يكن بالأمر اليسير ، خاصة بعد أن تضامنت قبائل المنتفك مع امير الكويت مبارك آل الصباح لصد هجوم ابن الرشيد. وقد ساندت هذه القبيلة ـ المنتفك ـ قبائل أخرى منها آل مرة ومطير وعجمان(٣).

وما أن حل عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) حتى بدأت المواجهة الحقيقية بين الطرفين المتنازعين (مبارك وابن الرشيد) ، فشن ابن الرشـــيد هجوما على أطراف الكويت ، واستطاع مبارك صد ذلك الهجوم ، وأخذ فى تشجيع الصبى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، الذى كان يراوده الأمل فى استرجاع حكم أجداده . وعندما اشتبك عبد العزيز بن الرشيد مع مبارك حاكم الكويت فى معـــركة الطريق ، انتهز عبد العزيز بن عبد الرحمن الفرصة ـ وهى انشغال قوات ابن الرشيد فى تلك المعركة ـ وسار بأعوانه ، بعد أن أخذ موافقة مبارك ، لفتح الرياض . ولكن ابن الرشيد استطاع أن يهزم قوات مبارك اذ أنزل بهم هـــزيمة ساحقة ، هم ومن ساعدهم ، واسترد أرضـهم وفرض عليهم ضرائب باهظة ونزع أســـلحة أهلهـا(٤) .

فتح الرياض :

والواقع ان عبد العزيز كان يعد نفسه لفتح الرياض واسترجاع ملك

الأجداد منذ نعومة أظفاره . وقد وجد الفرصة مواتية بعد موقعة الصريف التى كانت بين ابن الرشيد ومبارك آل الصباح ، والتى انتهت بهزيمة مبارك ، مما ساعد ابن الرشيد على بسط نفوذه على البلاد النجـــدية بأسرها واحكام سلطانه عليها(١) .

وقد رأينا كيف أن عبد العزيز بن عبد الرحمن انتهز فرصة انشغال عبد العزيز بن الرشيد فى معـــركته مع مبارك ومحاولاته لضم الكويت تحت نفوذه ، وسعى لتنفيذ ما كان يصبو اليه ، بعد ان اقنع مبارك بأن يسير بجيشه لمحاربة خصمه ابن الرشيد وفتح جبهة ثانية أمامه ، مما يؤدى الى تشتت قواته وضعف مقاومته .

ونالت هذه الخطة استحسان امير الكويت وشجع عبد العزيز على ذلك ، فسار الأخير بجيشه من الشوكى حتى وصل بعد يومين الى أسوار الرياض . وحين وصوله اليها تصدت له حاميتها التى كانت بقيـــادة عبد الرحمن بن ضبعان . لكن عبد العـــزيز استطاع أن يدخل الرياض بقواته مما اضطر الحامية الى الاحتماء بحصـــنها المعـــروف باســـم المصمك(٢) .

وكان ان استنجد عبد العزيز بن الرشيد بالدولة العثمانية لترسل له قوات مساندة حتى يستطيع احتلال الكويت ، فاستجابت له وارسلت احدى سفنها لهذا الغرض . ولـــكن بريطانيا التى كانت ترقب الموقف أجبرت السفينة العثمانية على الانسحاب تنفيذا لاتفاقية الحماية(٣) .

وبعد تحصن الحامية فى المصمك وصل خبر انهزام الشيخ مبارك أمام ابن الرشيد الى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فاضطر عبد العزيز للانسحاب من الرياض بعد ان مكث بها حوالى اربعة اشهر . لكن خروجه هذه المرة كان مؤقتا حيث أخذ يعد العدة للفتح الأكبر لهـــذه المدينة . يضاف الى ذلك ان هذه الحملة اكسبت عبد العـــزيز خبرة فى طـــرق الصحراء وما بها من صعاب لأنه عاش فى صحراء النفود المعروفة بقسوتها وشدة حرارتها أياما(٤) .

وعلى الرغم من فشل هـــذه المحاولة لفتح الرياض ، وانسحاب عبد العزيز ، الا ان ذلك كان حافزا لهذا الشاب الطموح القيام بمحاولة أخرى، بعد ان رسم لها خطة محكمة . ذلك أنه عرف الرياض وأحس بما يكنه أهلها لأسرته من محبة ، فعاود المحاولة مرة أخرى فى عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) . وكانت خطته تلك المرة تستهدف ضرب القبائل التى تدين لابن الرشيد بالولاء ، حتى يضمن التفاف غالبية القبائل فى تلك المنطقة حوله . وقد اعد لذلك جيشا مكونا من أربعين جملا وثلاثين بندقية وبعض العتاد . وسار بهذا الجيش نحو هدفه بعد ان انضمت اليه بعض القبائل مثل عجمان وسبيع وآل مرة مما دعم جيشه . ثم واصل السير فى صحراء الدهناء فضرب قبائل قحطان ومطير ونال منهم ما شد عزمه . وفى ذلك الحين كان ابن الرشيد يحارب من أجـــل ضم الكويت ، وكانت قواته متمركزة على أطراف تلك المنطقة ، ولم يعر ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن اى اهتمام بعد أن فشل فى حملته الاولى(٥) .

ولم يلبث ان أحس عبد العزيز بن الرشـــيد بخطورة ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فأخذ فى تهديد القبائل التى والت خصمه حتى استطاع ان يخرج بعضا منهم عن طاعة عبد العزيز خوفا من بطش ابن الرشيد . ولم يكتف بذلك ، بل تقدم بشـــكوى الى الدولة العثمانية وشرح لها الخطر الذى يهدده من تحركات عبد العزيز ، مما دفع بالدولة الى ايقاف المعونة التى كانت تأتيه من الاحساء(٦) .

لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن لم يكترث بما فرضـته عليه الدولة العثمانية من عقوبات ، بل واصل سيره الى الرياض حتى وصـــل الى منطقة تبعد عن هدفه حوالى سبعة كيلو مترات . وهناك بقى بها اياما يعد جنده ومساعديه لهذا الفتح . أما خطته فقامت على ان يدخل الرياض بعدد بسيط من الرجال قدر عددهم بحوالى أربعين رجلا ، حتى لا يشعر به أحد . وسار بهؤلاء حتى وصل الى سور الرياض ، وهناك أبقى ثلاثا وثلاثين من رجاله خارج السور ، وأخذ معه سبعة رجال تسلق معهم سور المدينة حتى وصلوا الى منزل رجل يكن لآل سعود المحبة ، فمد لهم يد العون والمساعدة ، وعرف عبد العزيز وأخفاه فى منزله . وفى الليل

استطاع ان يخرج متسللا الى منزل أمير الرياض من قبل آل الرشيد ويدعى عجلان ؛ وكان عجلان هذا لا ينام فى منزله بل يذهب للمبيت فى المصمك الذى لا يبعد عن منزله الا حوالى مائة متر تقريبا(٧) .

وبقى عبد العزيز بن عبد الرحمن فى منزل عجلان الى شروق الشمس ، وبعدها بقليل خرج عجلان من باب المصمك ومعه عدد من جنوده غير المسلحين وسار يتفقد الخيل ، وما هى الا لحظات حتى كان عبد العزيز ورفاقه يصوبون اليه أفواه بنادقهم من الفتحات الموجودة فى جدران القصر ، فأحس عجلان بحركة غير عادية تحيط به ، وحاول العودة الى المصمك للاحتماء به . وفى هذه اللحظة انطلق عبد العزيز ومن معه نحوه واغلقوا الباب فى وجهه وتسلل بعضهم الى داخل المصمك. ولكن عجلان استطاع الخلاص من قبضة عبد العزيز ودخل المصمك وأخذ يركض محاولا الصعود الى الطابق الثانى . ولكن لم يتمكن من ذلك وكان عبد الله ابن جلوى يلاحقه الى أن ضربه بسيفه وقتله(٨) .

هكذا قتل عجلان ومعظم اعوانه ، واستسلم الباقون لعبد العزيز . وقد أخذ رفاق عبد العزيز فى مطاردة الفارين من أعوان عجلان ، فلاذ الكثير منهم بالفرار حتى وصلوا الى دار آل سويلم حيث استسلموا . هذا فى حين ترك عبد العزيز أخاه محمدا مع من بقى من الرجال فى محاصرة الحصن حتى استسلموا له ؛ وكان ذلك فى شهر شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢م(٩) .

وبعد هذه المعركة استسلمت الرياض لعبد العزيز بعد أن أمن الجميع على أرواحهم وأموالهم . وكان أن اعلن فى الرياض أن حكم هذه المدينة عاد للمرة الثانية الى آل سعود ، واعتبر يوم الخامس من شهر شوال ١٣١٣هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٠٢م يوما مشهودا فى تاريخ هذه المدينة . وقد خرج اليه أهالى الرياض فرحين بهذا النصر ، ومهنئين بعودة الحكم الى أسرة آل سعود الذى اشتهر حكمها بنشر الأمن والعدل فى أرجاء البلاد ، وخاصة بعدما قاسى اهالى الرياض الكثير من ظلم عجلان واعوانه(١٠) .

ولا شك فى ان عودة الرياض الى الحظيرة السعودية يعد حدثا تاريخيا كبيرا ، لفت انظار العالم لهذه المنطقة وبخاصة الدولة العثمانية المهيمنة عندئذ على العالم الاسلامى عامة والعالم العربى خاصة . وقد اخذت الدولة العثمانية تسترجع ما قام به أسلاف عبد العزيز من مد نفوذهم على غالبية أقاليم شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، حتى دخلت الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت سلطانهم ، مما هز مكانة الدولة العثمانية الدينية . لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر وتحاول مد يد العون لابن الرشيد الذى لم يهتم كثيرا لهذا الحدث ، اذ كان همه الأكبر ضم الكويت الى أملاكه . لذلك تمركز فى منطقة حفر الباطن ينتظر المدد من الدولة العثمانية الحامية له غير مهتم بما يدور حوله من أحداث فى الرياض . وربما اعتقد أن استرجاع الرياض سيكون أمرا سهلا بعد ضم الكويت لما لهذه المنطقة من أهمية كبيرة(١١).

وفى هذه الأثناء أرسل عبد العزيز بن عبد الرحمن الىوالده والشيخ مبارك فى الكويت يعلمهما بما من الله عليه من نعمة النصر ، وأن هذا يعود بعد فضل الله الى ما أمداه به من تشجيع وعون ، حتى استطاع أن يقوم بهذا العمل . وطلب من والده العودة الى الرياض ليتسلم حكمه الذى انتزع منه . ولكن الامام عبد الرحمن رفض هذا المنصب وتنازل عنه لابنه البطل عبد العزيز الذى قبل هذه المهمة الصعبة برحابة صدر(١٢) .

وكان ان اخذ عبد العزيز ينظم شئون حكمه فى الرياض ويوسع رقعة ممتلكاته ، فبسط سلطانه على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج ، حتى وصل الى وادى الدواسر . وكان ينظم شئون كل منطقة يفتحها ويجعل فى كل منطقة دانت له بالطاعة جيشا معدا للدفاع عنها وعن أهلها من غزوات ابن الرشيد المتوقعة(١٣) .

وأخيرا انتبه ابن الرشيد الى خطورة ما يحدث فى الرياض ، فاعد جيشا كبيرا لاستعادتها ، واعد خطة لهذا الغرض محورها فرض حصار اقتصادى على تلك المنطقة باكملها.لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن

فطن الى ما كان يهدف اليه عبد العزيز الرشيد ، فعمد هو الآخر الى حيلة تجعل ابن الرشيد يكون فى حيرة من أمره . فاشاع انه ينوى التوجه بفرقة من جيشه جنوبا ، مما جعل ابن الرشيد يخشى ذلك ، ويغير خطته لمنع عبد العزيز من التوسع جنوبا ، فاتجه هو بجيشه جنوبا . وعندئذ سار عبد العزيز بجيشه نحو الشمال مما أوقع ابن الرشيد فى حصار اقتصادى حيث استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن أن يقطع عليه طريق المواصلات والمدد . واخيرا اشتبك الطرفان فى معركة كان النصر فيها حليف عبد العزيز بن عبد الرحمن . وقد تكبد ابن الرشيد خسائر فادحة فى هذه المعركة مما اضطره الى الانسحاب من الدلم الى السليمة ، ولكن عبد العزيز لحق به وانزل به هزيمة أخرى قضت على ما بقى لديه من أمل(١٤) .

وبعد هذه الهزيمة الساحقة تأكد لابن الرشيد أنه ليس باستطاعته استرجاع الرياض ، فشرع فى تحصين ما بقى تحت يده من مدن نجدية . ذلك أن عبد العزيز كان قد بسط سلطانه على نواحى نجد الجنوبية مما دفع ابن الرشيد الى تحصين الوشم ، وسدير والمجمعة مخافة أن يشن عليها عبد العزيز هجوما ، ثم يضمها الى ملكه(١٥) .

أما ابن الرشيد فقد اتجه الى مدينة شقراء حيث ضمن وقوف أهلها الى جانبه ، ثم انتقل الى القصيم يتفقد أحوال أهلها هناك ويحاول معرفة موقف أهلها حيال هذه الأوضاع الطارئة بعد انتشار خبر استرجاع الرياض وعودتها الى حكم آل سعود ،مما جعل باقى المدن النجدية تنتظر الفرج على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن ، والخلاص من حكم آل الرشيد بسبب ما أصابهم من بلاء ومحن طوال فترة حكم آل الرشيد للبلاد(١٦) .

وما أن رأت القبائل والمدن النجدية اختلال ميزان القوى فى تلك المنطقة ورجوحه لصالح عبد العزيز الذى استطاع خلال فترة زمنية قصيرة وبجيش قليل العدة والعتاد أن يحكم نجد ويسيطر علىعاصمتها الرياض، بعد أن كان منذ وقت قصير لاجئا فى الكويت لا حول له ولا قوة ، حتى اخذت تنضم اليه وتدخل طاعته .

موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

لا شك فى ان ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن بهذه القوة السريعة اثار مخاوف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على المنطقة والحامية لابن الرشيد فى نجد . وقد رأت الدولة العثمانية فى استرجاع السعوديين الرياض نذيرا بظهور الدعوة السلفية مرة اخرى ، وخاصة بعد نجاح تلك الدعوة فى ضم غالبية البلاد تحت سلطانها وبالأخص الاماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فضلا عن بعض اقاليم الخليج مثل البحرين . لذلك رأت الدولة العثمانية فى عودة عبد العزيز بن عبد الرحمن تجديدا لمخاوفها . يضاف الى ذلك أن ظهوره واستقلاله بمناطق نجد ربما شكل مثلا يحتذى من قبل الدول العربية الأخرى . وفى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعانى من الضعف الذى أخذ ينتشر فى اجزائها المترامية ، بعد أن عمت الفوضى والاضطرابات كل جزء منها ، فظهرت العنصريات التى ساعدت على التفكك ، وانتشر الضعف الاقتصادى ودب الخور فى أوصالها وفصائل جيشها . وظهر هذا بوضوح فى حالة الجند العثمانى الموجودين فى منطقة القصيم ، اذ وصلت بهم الحال الى أن يبيع الجندى سلاحه من أجل اقمة العيش . يضف الى ذلك انسلاخ كثير من ولايات الدولة واستقلالها ، مثل اليمن التى انسلخت عن الدولة العثمانية بعد ثورة الامام يحيى بن حميد الدين عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٤م) ، وكذلك بعض دول الخليج التى ارتبطت مع بريطانيا بمعاهدات لحماية نفسها ، دون استشارة الدولة ، مما كان له أثره فى موقف الدولة من فتح الرياض(١) .

ورغم كل ماسبق فقد أحس العثمانيون بالخطر الذى يهددهم من جراء تزايد قوى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فارادوا أن يحدوا من هذا النفوذ ومن هذه القوة عن طريق تعزيز قوة ابن الرشيد ضده ، مخافة امتداد نفوذه الى منطقة الاحساء والاتصال بالانجليز . لذلك ارسلت الدولة العثمانية لابن الرشيد جيشا مزودا بالعدة والعتاد لمساندته ضد خصمه ، واسترجاع ما ضاع له من أملاك . وكان أن انضم هذا الجيش العثمانى لجيش ابن الرشيد ، واشتبكا مع عبد العزيز بن عبد الرحمن فى معركة كبيرة عرفت باسم البكيرية ، وكان ذلك فى عام ١٩٠٤م/

١٣٢٢هـ ، حيث خطط عبد العزيز لضربة قاضية ضد خصمه ، فقرر تطويق الجيش العثمانى الرشيدى، حتى يوقعه فى شرك أعده له،فالتحم الفريقان فى معركة ضارية كانت فيها خسائر الفريقين جسيمة ، ولكن النصر فى النهاية كان حليف قوات عبد العزيز(٢) .

وبعد هذا الفشل الذريع الذى منيت به القــوات العثمانية غيرت الدولة سياستها ، فأخذت فى التودد لابن سعود والتخلى عن ابن الرشيد، وعملت على التقرب من عبد العزيز صاحب القوة الجديدة فى المنطقة ؛ بعد أن أدرك السلطان عبد الحميد أنه من الصواب كسب ود عبد العزيز، وخاصة بعد ان تمكن الانجليز من احتلال عدن . يضـــاف الى ذلك أن الانجليز عمدوا الى ربط شيوخ مناطق الخليج بمعاهدات حماية ؛ لذا رأى السلطان العثمانى فى عبد العزيز المنقـــد فى هـذه المنطقة ، وأنه يستطيع بكسبه اياه الى جانبه ترقيع هيكل الدولة الذى بدأ يتصدع . وكان ان اعترفت الدولة العثمانية بما تحت يد عبد العزيز من ارض ، شريطة ان تضع الدولة العثمانية لها فى نجد مستشارين وقوات . ولكن عبدالعزيز وحكومته لم يقبلوا ذلك العرض(٣) .

ولم تيأس الدولة العثمانية ، وانما أخذت تكرر محاولاتها لضـــم عبدالعزيز الىصفها وعقد اتفاق معه بحيث تكون لها الكلمة العليافى نجد. لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن رفض ذلك الاتجاه بتشجيع من والده الامام عبد الرحمن ، وهو ذلك السياسى المحنك صاحب النظرة السياسية الفاحصة ، الذى استطاع أن يعرف ما تهـــدف اليه الدولة العثمانية من وراء هذا الاتفاق . لذلك طلب من ولده ان يرفضه ، مما جعل الحرب تستأنف من جديد بين عبد العزيز وابن الرشيد ؛ فدارت معارك كثيرة كان النصر فيها بجانب عبد العزيز حتى انتهت بمعركة روضة مهنا عام ١٩٠٦م/١٣٢٤هـ وهى المعركة التى قتل فيها عبد العزيز بن الرشيد . وبموت ابن الرشيد استطاع عبد العزيز التخلص من معول الهدم الذى سلطته الدولة العثمانية لعرقلة مسيرته فاستطاع استرجاع ملك أجداده .

★ ★ ★

أما القوة الثانية فى الخليج التى كانت ترقب الموقف حيال فتح الرياض فهى بريطانيا ، التى حرصت على أن تكون على دارية بتطور الأحداث فى هذه المنطقة . ولا شك فى أن بريطانيا كانت تخفى مخاوفها من تجدد الدولة السعودية للمرة الثالثة ، وهى التى ظلت تذكر المحاولتين السابقتين لاقامة الدولة السعودية الأولى والثانية ، وما كانتا تستمتعان به من نفوذ ومحبة فى نفوس اهالى منطقة الخليج . كذلك عملت بريطانيا على الوقوف فى وجه أى قوة تظهر فى المنطقة بعد أن مرت بتجربة القواسم الذين اقلقوا راحتها . لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر ؛ حيث أن سياستها حالت بينها وبين التدخل فى الشئون الداخلية لأهالى المنطقة . وكان اهتمامها ونشاطها منحصرا فى السواحل فقط . وجاء ذلك فى الوقت الذى أخذ نفوذ هذا الشاب الطموح - عبد العزيز - يمتد الى السواحل فى المنطقة الشرقية من بلاده(٤).

وشاءت الظروف أن ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن على مسرح الأحداث - والذى تمثل فى فتح الرياض واسترجاع ملك اجداده - صادف انشغال بريطانيا بأمور كثيرة هامة ، منها انشغالها فى صد أطماع الدول الاوروبية عن منطقة الخليج . وكان اهتمام بريطانيا بعدن يفوق اهتمامها بباقى المناطق ؛ لأن هذه المنطقة كانت أهم ميناء لها فى جنوب غرب الجزيرة العربية . وقد حاولت بريطانيا شراء هذا الميناء فى مطلع القرن التاسع عشر من سلطان لحج ولكنه رفض طلبها هذا ، فما كان منها الا أن احتلته فى سنة ١٨٣٩م الموافق ١٢٥٥هـ ، ومن ثم فقد حرصت على بقائه فى قبضتها لأنها اعتبرت عدن قاعدة اساسية لها(٥).

والواقع ان بريطانيا شغلت عندئذ بعقد معاهدات الحماية مع مشايخ القبائل الخليجية ، وبالأخص مع القبائل القاطنة حول عدن مثل العبدلى والفضلى والعقرب والحوشى والعلوى ، ويافع السفلى . وكانت تستهدف من وراء هذه المعاهدات الوقوف فى وجه التقدم العثمانى ، الى جانب مشاكلها الأخرى فى أوروبا . وكل هذه المشاكل جعلت بريطانيا فى شغل شاغل عما يدور داخل الجزيرة العربية من احداث وبالأخص عن فتح الرياض .

وهكذا أخذت بريطانيا تجدد محاولاتها للتودد لهذا الفاتح الجديد، وذلك لاحياء العلاقات الودية القديمة التى كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الاولى ، وخاصة أنه لم يتعـرض القبائل التى تربطها بها معاهدات حماية( ) .

الخاتمـــة :

وبعد ، فلعلنا قد توصلنا فى هذا البحث الى النتائج التالية :

أن بلاد نجد كانت قبل قيام الدولة السـعودية الأولى تعيش فى فوضى واضطراب، اذ تسلط عليها الحكام الأقوياء أمثال بنى خالد فى الأحساء وفرضوا كلمتهم على أمراء المناطق الصغيرة . وبعد حلف الدرعية الذى تم بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب بداية ظهور أول دولة ذات كيان سياسى منظم فى نجد ، وهو الكيان الذى امتد الى باقى المناطق المجاورة مثل الأحساء والحجاز .

وقد أوضحنا أن حملات محمد على باشا والتى كانت بقيادة ابراهيم باشا لم تقض على الأسرة السعودية الا لوقت محدد فى حين بقيت ذكراها راسخة فى نفوس أبناء نجد . وكانوا يتحينون الفرصة لظهور أحد أفراد هذه الأسرة للالتفاف حوله .

وكان ظهور تركى بن عبد الله مؤشرا لعودة هذه الأسرة الى مسرح الأحداث السياسية ، فالتف حوله أبناء نجد وعادت الدولة الى الظهور فى طور جديد .

وبعد حملات ابراهيم باشا على نجد واختفاء الدور السعودى عن مسرح الأحداث ظهرت المطامع الأوروبية فى منطقة الخليج . وقد تبين لنا أن عودة الدولة السـعودية الثانية فى طورها الجـديد كان قويا كسابقتها ، اذ بسطت سلطانها على شبه الجزيرة العربية برمتها .

أما عبد العزيز بن عبد الرحمن فقد عاصر مرحلة ضـعف الدولة السعودية الثانية وانهيارها ، حتى انتهت باستيلاء آل الرشيد على الحكم

وخروج الامام عبد الرحمن وافراد اسرته ومعهم عبد العزيز الى منطقة الخليج ، فاتجهوا للبحـــرين واستقروا بها بعض الوقت ثم انتقلوا الى الى الكويت التى قضى بها عبد العزيز فترة من طفولته .

كذلك اوضحنا ان عبد العزيز بن عبد الرحمن تربى تربية حربية، وتعلم فنون القتال ، وتدرب على استعمال الكثير من الأسلحة الحربية منذ صغره .

وقد تبين لنا أن عبد العزيز انتهز فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته الفاشلة لضم الكويت ، ودخل الرياض لأول مرة ، وبقى بهـــا قرابة الأربعة أشهر ، ثم انسحب منها .

وكانت محاولة عبد العزيز الأولى فى فتح الرياض درسا تلقاه فى معرفة الطرق المؤدية لهذه المدينة ، والصعاب التى تعترض طريقه فى الصحراء . يضاف الى ذلك معـــرفته بما يكنه أهلها من محبة لأسرته واستعدادهم للالتفاف حوله .

وقد توصلنا الى أن عبد العزيز بن الرشيد انزل العقاب الشـــديد بأهالى وقبائل المناطق التى ساعدت مبارك فى معركة الطريف التى كان فيها النصر حليف ابن الرشيد ، ففرض عليهم عقوبات صارمة منها انه قرر ضرائب باهظة عليهم ونزع أسلحتهم .

وبعد فتح الرياض الأول أخذ عبد العزيز بن عبد الرحمن يعد العدة للمواجهة مع ابن الرشيد ، فانتهز فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته لضم الكويت ودخل الرياض بعدد قليل من الرجال ، واستطاع أن يقتل أميرها من قبل آل الرشـيد (المدعو عجلان) بعد أن لجأ الأخير الى المصـمك .

ومن الواضح أن ابن الرشيد لم يعر دخول عبد العزيز الرياض أى اهتمام ، وظن أن الأمر سهلا وان بامكانه استرجاع الرياض بيسر حين عودته . ولم يعلم أن عبد العزيز أخذ فى تحصين هذه المنطقة وضـــم اليه بعض المناطق القريبة منها .

وقد حاول ابن الرشيد الاستنجاد بالدولة العثمانية لأخذ الكويت فاستجابت له وأرسلت سفنها لنجدته ومساعدته ، لكن السفن البريطانية تصدت لهـــا ، وذلك بموجب معاهدات الحماية التى عقدتها بريطانيا مع الكويت .

واتضح لنا أن ابن الرشيد أحس بخطر عبد العزيز بن عبد الرحمن بعد فوات الأوان ، فأخذ فى تهديد القبائل التى انضمت اليـــه ، حتى استطاع أن يخرج بعضها عن طاعة عبد العزيز وذلك خوفا من بطشه .

كذلك تبين لنا أن العقـــوبات الاقتصادية التى فرضـــتها الدولة العثمانية على الرياض لم تثن عبد العزيز عن مواصلة جهوده لاسترجاع حكم أسرته .

وقد حاول عبد العزيز ترسية قواعد حكمه بأن بســـط نفوذه على على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج الى أن وصل الى وادى الدواسر . وحرص على أن ينظم شئون هذه المناطق المفتوحة ويكون فى كل واحدة منها جيشا من اهلها للدفاع عنها .

وأوضحنا أن ميزان القوى فى نجد اختل لفترة زمنية معينة بعد فتح الرياض . ومن ثم رجحت كفته مع عبد العـــزيز بن عبد الرحمن الذى استطاع فى وقت قصير أن يبسط نفوذه على عدد كبير من المناطق التابعة للرياض .

وكان ظهور عبد العزيز بهـــــذه القوة التى مكنته خـــــلال مدة قصيرة من بسط سلطانه على الكثير من المنطق النجدية أمرا اثار مخاوف الدولة العثمانية ، التى استرجعت ما لهذه الأسرة من أمجاد عظيمة طوال الفترتين السابقتين التى حكمت خلالهما شـــبه الجزيرة العربية وبعض دول الخليج .

وتزامن فتح الرياض مع الضعف الذى سرى فى أوصـــال الدولة العثمانية وجعلها محط أطماع الدول الأوروبية بسبب انتشار الفوضى والاضطراب بين أجزائها المترامية .

وقد حاولت الدولة العثمانية ضـــم عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فساومته على الاعتراف بما لديه من أراض مقابل تعيين مستشارين وقوات تابعة لها فى منطقة نجد . لكن طلبها هـذا رفض بعـــد استشارة والده عبد الرحمن ، اذ تبين أن الدولة العثمانية تهدف لارضاخ عبد العزيز لسلطانها .

ويتضح أن بريطانيا لم تتدخل فى الصراع الدائر بمنطقة نجد ؛ لأن سياستها فى هذه المناطق اتسمت بعدم التدخل فى الشئون الداخلية ، وكان جل اهتمامها مركزا على السواحل التى تســيطر عليها بما عقدته مع حكامها من معاهدات حماية .

وقد اخذت بريطانيا ترقب الموقف بحذر وتراقب تحركات عبدالعزيز ابن عبد الرحمن ، وكانت تحاول عـــدم اقترابه من ســـواحل الخليج ، لأن ذلك قد يعيد للأذهان ما قام به اســـلافه حكام الدولة الســـعودية الأولى وجيرانهم القواســـم من قوة هـــددت المصالح البريطانية فى تلك المنطقة .

وتوصلنا الى ان بريطانيا كانت تسعى لعدم ظهور قوة عربية تهدد مصالحها فى المنطقة وتضم تحت لوائها باقى حكام الخليج التى تسيطر عليهـــم .

ومن الواضح ان فتح الرياض وظهور عبد العـــزيز على مسرح الأحداث تزامن مع انشغال بريطانيا بعقـــد معاهدات حماية مع مشايخ القبائل الخليجية التى اســـتهدفت من وراء العمـــل الوقوف فى وجه التقدم العثمانى .

ولكن بريطانيا لم تهمل مراقبة تحركات عبد العزيز ، وكذلك لم تخف خوفها من ظهوره كقوة عربية مستقلة قد تحذو حذوها باقى دول الخليج .

ولذلك حاولت بريطانيا كسب عبدالعزيز الىجانبها لاحياء العلاقات القديمة التى كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى .

الهـــوامش

(أ) التمهيـــد :

(١) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط١ ، ص ٧ - ٨ ، البســام ، عبد الله ، علماء نجد خلال ستة قرون ، ج٢ ، ص٨٩٦ .

(٢) الفرايية ، عبد الكريم ، قيام الدولة السعودية العربية ، ص ٤٤ ، العريفان، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٠٧ . رسالة دكتوراه .

(٣) خزعل ، حسين خلف ، تاريخ الجزيرة فى عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٦١ ، العثيمين ، عبد الله ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٦٠ .

(٤) موزل . (تاريخ الدولة السعودية) مجلة العرب ، ج٣ - ٤ ، س ١١ ، ص ٢١٥ . سبتمبر - اكتوبر ١٩٧٦م . جمعة . محمد كمال ، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية ، ص ٤٧ ، عطار ، أحمد ، محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٢٤ ، ابن عيسى ، ابراهيم . تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، ص ١٢٥ .

(٥) عسه ، أحمد ، معجزة فوق الرمال ، ص ٢٣ .

(٦) الرشيد ، ضاوى ، نبذة تاريخية عن نجد ، ص ١٢٦ ، درويش ،مديحة . تاريخ الدولة السعودية ، ص ٥٨ ، الزركلى ، خير الدين ، شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، ج١ ، ص ٤٦ .

(٧) المانع ، محمد ، توحيد المملكة ، ص ٣٦ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، بعض حوادث نجد ، ص ١٩٦ ، بلنت ، الليدى آن ، رحلة الى بلاد نجد ، ص ٢٢٢ .
Alvin, J. Coltrell : The Persian Gulf States, P. 57.

(ب) نشــأة عبد العزيز وتربيته :

(١) الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ١٧ .

(٢) الدريب ، سعود ، الملك عبد العزيز ، ص ٩ .

(٣) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١١٢ .
Phil by, H. Saudi Arabia, P. 238.

(٤) المختار ، صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج٢ ، ص ٢٧ ، الخترش ، فتوح ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٥٧ ، الزركلى،

خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢٢ ، الجاسر ، حمد ، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، ص ١١٥ ·

Philby, H : Saudi Arabia, P. 239.

(ج) فتـــح الرياض :

(١) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٢٠ ·

(٢) الزركلى : خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢٢ ·

(٣) القلعجى ، قدرى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٩ ·

(٤) حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٢٠ ·

(٥) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٨٤ ، كشك ، محمد جلال ، السعوديون والحل الاسلامى ، ص ٢٧٦ ·

(٦) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٢١ ، المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٤ ، العريذان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ·

(٧) العريذان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٧ ·

(٨) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود ، ص ٩

(٩) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود ، ص ٩ ·

(١٠) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٢٤ ، البـــديوى ، محمد منير ، المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ص ١٢٠ ، المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٦ ·

(١١) الحيدرى ، ابراهيم ، عنوان المجد فى أحوال بغداد والبصرة ونجد ، ص ٨٥ ، الزمل عبد الله ، الملحمة الشعبية ، ص٦٤ ، الجمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخى الدولة السعودية ، ص ١٣٨ ·

(١٢) العريذان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٩ ، الخترش ، فتوح ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٦٧ ·

(١٣) المختار صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج٢ ، ص ٤٦ الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٣٠ ·

Armstrong, G : Lord of Arabia, P. 65.

(١٤) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٢ ·

(١٥) آل عبد المحسن ، تذكرة أولى النهى والعرفان ، ج٢ ، ص ٥٠ ، رحمو ، محمد ابراهيم ، أضواء حول الاستراتيجية العسكرية ، ص ٧٠ ، ابراهيم ، سيد

محمد ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٨٧ ، الريحاني ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١٣٢ ، فيلبي ، عبد الله ، تاريخ المملكة العربية السعودية ص١٩ .

(١٦) جمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخي ، ص ١٣٩ .

(١٧) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٥٧ .

(١٨) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٥٢ .

(د) موقف القوى الكبرى في الخليج من فتح الرياض :

(١) حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص ١٤٠ ، داوود ، محمود ، الخليج العربي ، ص ١٤٦ .

(٢) درويش ، مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٨١ .

(٣) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٣٢ .

(٤) داوود ، محمود ، الخليج العربي ، ص ١٤٦ .

(٥) سالم ، مصطفى ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٧ ، العريذان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٢٤ ، داوود ، محمود ، الخليج العربي ، ص١٤٦ .

6 — 1. O. No. 7 Dated on The 11th of January 1906, From Government of India Foreign Department To : His Majesty, S. Secrtary of State.R. 15, 1:556 For India.

قائمة المراجـع

١ - ابراهيم ، سيد محمد :
تاريخ المملكة العربية السعودية ، الرياض : ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٢ - ابن بشر ، عثمان النجدى :
عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ١ ، الرياض ، بدون تاريخ .

٣ - البديوى ، محمد منير :
المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٤ - البسـام ، عبد الله :
علماء نجد خلال ستة قرون ، مكة المكرمة ، ١٣٩٨ .

٥ - عيسى ، ابراهيم :
تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، الرياض ، بدون تاريخ.

٦ - الجاسـر ، حمـد :
مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، مصر ، ١٣٨٦هـ .

٧ - جمعة ، ابراهيم :
الأطلس التاريخى الدولة السعودية ، بدون تاريخ .

٨ - جمعة ، محمد كمال :
انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خـارج الجـزيرة ، الرياض ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٩ - حمزة ، فـؤاد :
البلاد العربية السـعودية ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

١٠ - الحميرى ، ابراهيم :
عنوان المجد فى أحوال بغداد ، والبصرة ، ونجد ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١١ ـ **الخترش ، فتوح :**
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ١٨٩٠هـ/١٩٢١م ، الكويت ، بدون تاريخ .

١٢ ـ **خزعل ، حسين خلف :**
تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

١٣ ـ **داوود ، محمود :**
الخليج العربى والعلاقات الدوليـــة ، ١٨٩٠م/١٩١٤م ، جـ١ ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٤ ـ **درويش ، مديحة :**
تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القـــرن العشرين ، الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٥ ـ **الدريب ، ســعود :**
الملك عبد العزيز ووضع قواعد التنظيم القضــائى فى المملـكة ، جدة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

١٦ ـ **آل عبد المحسن ، ابراهيم :**
تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان ، الرياض ، بدون تاريخ .

١٧ ـ **رحمو ، محمد ابراهيم :**
أضواء على الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز فى حروبه، الطبعة الثانية ، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

١٨ ـ **الرشـيد ، ضاوى :**
نبذة تاريخية عن نجد ، الظهران ، بدون تاريخ .

١٩ ـ **الزامل ، عبد اللـه العلى :**
الملحمة الشعبية فى تأسيس الملك عبد العـزيز آل سعود للمملـكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٣٩١هـ/١٩٧٩م .

٢٠ - الزركلى ، خير الدين :
شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، جـ٢ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ .

٢١ - سالم ، مصطفى :
تكوين اليمن الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٢٢ - عسه ، أحمد :
معجزة فوق الرمال ، ابنان ، ١٩٦٥م .

٢٣ - عطار ، أحمد :
الشيخ محمد بن عبد الوهاب - حياته وفكره ، الرياض ، بدون تاريخ .

٢٥ - العقاد ، صلاح :
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٢٦ - الغرايبة ، عبد الكريم :
قيام الدولة السعودية العربية ، معهد البحوث والدراسات ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤م .

٢٧ - فلبى ، عبد الله :
تاريخ المملكة العربية السعودية ، أو الذكرى العربية الذهبية ، ترجمة مصطفى كامل فايد ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م .

٢٨ - القلعجى ، قدرى :
الخليج العربى ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

٢٩ - كشك ، محمد :
السعوديون والحل الاسلامى ،لندن ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٣٠ - مختار ، صلاح الدين :
تاريخ المملكة العربية السعودية/ماضيها وحاضرها ، جـ٢ ،بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

٣١ ـ المانع ، محمـــد :
اسود آل سعود ، بدون تاريخ .

وثائق أجنبيـــة :

1 — I. O. No. 7 Dated, 11 January 1906, From Government Of India Foreign Department To:His Majesty's Secrtary of State For India, R 15, 1:556.

مراجع أجنبيـــة :

1 — ALVIN, J. COTTRELL.
The Persian Gulf States.
United States Of America, 1980.

2 — ARMSTRONG.H.E.
Lord Of Arabia, Ibn Saud, London, 1934.

3 — PHILBY.J.
Saudi Arabia.
Lebanon Book Shop.
Beirut, 1968.

الدوريات :

١ ـ مجلة العرب ، جـ٣ ـ ٤ السـنة الحادية عشر ، رمضان وشـــوال ١٣٩٦هـ ، سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٦ . ترجمة كتاب المستشرق لويس موزل ، تاريخ السعودية .

أضـــواء جديدة على بعض
منشآت امراء المماليك فى القرنين السابع والثامن الهجـرة
(الثالث عشر والرابع عشر الميلاد)
منشآت الأمير الجاولى وسلار بمصر والشام

د٠ عبد الله كامل موسى عبده(*)

مقـــــدمة :

يتصف عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام بالثراء الكبير ، مما انعكست صورته فى الحياتين الاجتماعية والفنيـــة ، بوجـــه خاص ، والحضارية بوجه عام ٠ ومازالت بعض المنشآت الأثرية التى ترجع الى ذلك العصر قائمة على ارض مصر والشام تعبر عن روعة الفن وجماله من جهة ، وثراء سلاطين المماليك وامرائهم من جهة أخرى ٠

ومن هذه المنشات ما يرتبط باسمى اثنين من كبار امراء المماليك ـ هما الأمير الجاولى والأمير سلار ـ ، وهى منشآت متعددة لم تحظ حتى الآن بقدر كاف من عناية الباحثين ٠ وفى هذا البحث نلقى مزيدا من الأضواء الجديدة على منشات هذين الاميرين ٠

ولعله من المناسب فى هذه المقدمة ان نوضح أن الأميرين الجاولى وسلار ارتبطا سويا برباط وثيق من الصـــــداقة ، حتى أنهمـــا دفنا فى ضريحين متلاصقين ، الأمر الذى جعلنا نجمع بينهما فى هذه الدراسة ، بوصفهما يمثلان كيانا واحدا فى حلقة واحدة من حلقات التاريخ ٠

هذا ، ويشتمل البحث على الجوانب الآتية :

أولا : ترجمة للأميرين معا حتى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م وهى السنة التى نفى فيها الجاولى الى دمشق ٠ ذلك أنه من الصعب الفصل بينهما

(*) قسم الآثار الاسلامية ـ كلية الآداب بقنا ـ جامعة جنوب الوادى ٠

خلال الفترة التاريخية التى امتدت من عهد السلطان العادل كتبغا وحتى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م)، حيث ارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا .

ثانيا : أعمال الجاولى وسلار المعمارية بمصر وبلاد الشام ، وهى الأعمال التى لم تحظ بالقاء قدر كاف من الضوء عليها من قبل الباحثين، كما سبق أن أشرنا .

ثالثا : دراسة أثرية للمنشاة الدينية التى شـيدت بالكبش والتى اقترنت بهذين الأميرين فى ضوء عـدم العثور على وثيقة تثبت هـذه النسبة ، فضلا عن أن النصوص التاريخية المدونة على جدران هذه المنشاة لم تنسبها الى احدهما ، وقد تناولت هذه الدراسة الخاصة بالمنشاة مايلى:

اولا مناقشة الآراء حول منشئها .

ثانيا : مناقشة الآراء حول تسـميتها وماهية الوظيفة التى كانت تؤديهـا .

ثالثا : دراسة تحليلية للواجهة والتخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية .

الجاولى وسـلار :

أما عن الجاولى فهو سـنجر بن عبد اللـه الجاولى الأمير الكبير علم الدين أبو سـعيد(١) الشـافعى(٢) الملـكى(٣) الناصرى(٤) المنصورى(٥) . ولد بآمد(٦) فى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، ثم صار من مماليك الأمير جاول أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس فعرف بالجاولى نسبة اليه ، وقد عرف والده بالمشد ، ثم انتقل الى بيت المنصور قلاوون فعرف بالمنصورى(٧) .

خرج الجاولى فى عهد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ٦٨٧ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م الى الكرك(٨) واستقر فى جملة البحرية بها الى أيام السلطان العـادل زين الدين كتبغا ٦٩٣ - ٦٩٦هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٧م ، ثم قدم الى مصر فى عهده بحال زرى ، فسلمه السلطان الى

مملوكه بشخاص ليكون نائبه بالحوائجخاناه(٩) ، ثم اقامه على الخوشخانة السلطانية(١٠) .

وقد صحب الجاولى فى ذلك الوقت سلار بن عبد الله الأمير سيف الدين الملكى الناصرى المنصورى(١١) . وكان الأمير سلار تركى الجنس،وكان أبوه أمير شكار (امير الصيد)(١٢) عند صاحب الروم.فلما غزا الملك الظاهر بيبرس التتار والروم كان سلار ممن اسر فاشتراه قلاوون واعطاه لولده الصالح صالح . وبعد موت الصالح عاد الى ملك المنصور قلاوون ثانيا وصار من أعيان مماليكه ، ثم صار فى خدمة السلطان الاشرف خليل من جملة أعيان الأمراء الى ان قتل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م(١٣) .

وفى سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ - ٦٩٨هـ/١٢٩٧ - ١٢٩٩م استقر الرأى على نزول الخليفة العباسى من القلعة الى مناظر الكبش(١٤) ، وابعاد الملك الناصر محمد الى الكرك.وكان سلار من الأمراء الذين اشترطوا على لاجين أن يكون كأحدهم ولا ينفرد برأى عنهم ولا يسلط يد أحد من مماليكه ؛ فلما تسلطن رتب سلار استادارا(١٥) .

ثم كان ان اتفق الأمراء على اعادة الملك الناصر محمد من الكرك فكانت سلطنته الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م . وقد توجه من القاهرة بطلبه الأمير الحاج ال ملك والأمير الجاولى ، وذلك بعد قتل السلطان لاجين . وولى السلطان الناصر الأمير سلار نيابة السلطنة(١٦) ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى جمادى الأولى منها ولى الأمير سيف الدين سلار المنصورى نيابة السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى بحكم قتله »(١٧) .

مما تقدم يتضح أن بداية صحبة الجاولى لسلار كانت فى سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا ، وقد توطدت هذه الصداقة فى سلطنة الناصر محمد الثانية . وترتب على ذلك ان صار الجاولى يدخل على الملك الناصر ويخرج ويراعى مصالحه فى امر الطعام ويتقرب اليه ، حتى صار استادارا(١٨) .

ويتضح ذلك من النص التاسيسى لضريح سلار والذى ينص على انه كان يشغل وظيفة « نائب السلطنة المعظمة » ، كمـــا يتضح من النص التاسيسى لضريح الجاولى انه كان يشغل وظيفة « استادار العالية » ، وذلك فى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية ، وكـــل من النصين مؤرخ بتاريخ سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ٠

وفيما يتعلق بالجانب الاثرى ، فان سلطنة الملك الناصر محمد الثانية فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م شهدت الفراغ من عمارة منشاة دينية على قدر كبير الاهمية من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، اقترنت بهذين الأميرين : علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى ٠ وقد أدى ذلك الى خلاف فى الراى حول نسبتها الى أى منهما ٠ كذلك حدث خلاف حول تسميتها ، وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها ، اذ نعتت بعدة مسميات فذكرت فى المصادر التاريخية والاثرية فى قائمة المدارس والخانقاوات والمساجد ، الأمر الذى سنتعرض له لاحقا بالبحث والدراسة ٠

أعمـــال ســـلار :

نهض الأمير سلار فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وذلك عقب زلزلة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م بعمارة جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر ، والجامع الأزهر ، والجامع العمرى بمصر ٠ يقول المقريزى فيما يتعلق بجامع عمرو مانصه « وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر ، فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين ابن خطاب فهدم الحد البحرى من سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية واعاده على ما كان عليـــه »(١٩) ، اما فيما يتعلق بالجامع الأزهر فقد أورد ما نصه « وتولى الأمير ســـلار عمارة الجامع الأزهر »(٢٠) ، وفى ذلك يذكـــر بدر الدين العينى « وتصدى الأمير سيف الدين سلار لعمارة الجامع الأزهر واصلاحه واصلاح ماذنته واصلاح الواجهة التى وقعت ، وجدد فيه جميع أماكنه ، وبلطه وبيضه ، وانفق عليه نفقات كثيرة ، وكان الأمير شمس الدين سنقر الاعسر مشاركة له فى الجامع الأزهر(٢١)» ٠

كذلك أورد العينى فيما يتعلق بالجامع العمرى ما نصه « اصلح

الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ما هدم من الجامع العمرى بمصر وصرف عليه مالا جزيلا »(٢٢) .

وقد شهدت سلطنة الملك الناصر محمـــد الثانية فى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م نزاعا كبيرا بين الأميرين بيبرس وسلار بسبب خلاف وقع بين كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة وصديق سلار الأمير الجاولى ، حيث قام بيبرس فى نصرة كاتبه وقام سلار فى نصرة صاحبه . وكادت الفتنة أن تقع بينهما ، ولكنهما استدركا أمرها خوفا من الملك الناصر ، وخرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل الى قاعة الصاحب بها ، فى حين أمسك بيبرس الأمير الجاولى وصادره ثم نفاه الى دمشق على امرة طبلخاناه(٢٣) ، وولى مكانه استادارا الأمير ايدمر الخطيرى. وبعد وصول الجاولى الى الشام بمدة انعم عليه باقطاع وامرة(٢٤) .

على أن السلطان الناصر محمد لم يلبث ان ضاق بالحجر عليه من قبل الأميرين بيبرس وسلار ، فخرج فى شوال ٧٠٨هـ/١٣٠٨م الى الكرك بعد أن تظاهر بتوجهه الى الحجاز الشريف.وهناك استقر بقلعتها مقيما وأعرض عن الملك (٢٥) .

وكان أن رأى الأمراء تولية الأمير سلار عرش السلطنة ، ولكنه اعتذر خوفا من بيبرس ، فوقع اختيارهم على بيبرس وبايعوه بالسلطنة فى عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ، وعين سلار نائبا للسلطنة . ومن مآثر سلار فى هذا العام بناء خان بحمراء بيســـان(٢٦) ، وهو ما أشار اليه ابن حبيب بقوله « وفيها بنى الأمير سيف الدين سلار المنصورى خانا بحمراء بيسان وحصل به رفق كثير للمسافرين »(٢٧) .

ومن ناحية أخرى ، فان نفوذ الناصر محمد أخذ يزداد أثناء اقامته بالكرك حتى صارت الأمور ممهدة له لاسترداد عرشه فى مصر وعندئذ خرج من دمشق فى رمضان ٧٠٩هـ/١٢٩٩م ودخل مصر حيث استقبل استقبالا حافلا شارك فيه سلار وبقية الأمـــراء ، وبذلك بدأت سلطنته الثالثـــة (٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م) . وكان سلار قد كتب الى الملك الناصر بنزول بيبرس عن الملك وسير بذلك اصلم الدوادار ، ثم خرج سلار للقائه،

وقدم سماطا جليلا بلغت النفقة عليه اثنى عشر الف درهم(٢٨) .

كذلك قدم سلار للملك الناصر عدة من المماليك والخيول والجمال وثياب القماش ما قيمته مائتا الف درهم ، فقبل السلطان شيئا ورد الباقى . وطلب سلار الاعفاء من الامرة والنيابة وان ينعم عليه بالشوبك(٢٩) فاجيب الى ذلك . ولما فرغ السلطان من امر بيبرس واصحابه ولم يبق عنده من يخشاه سوى سلار ، كتب اليه كتابا بحضوره فاعتذر سلار ، ثم أرسل السلطان الأميرين بيبرس الدوادار وسنجر الجاولى لاحضاره ، فوعدهما ان يحضر وكتب بذلك ، وبعد ان استشار سلار أصحابه توجه الى مصر فقبض عليه وسجن بقلعة الجبل(٣٠) ، حيث توفى بعد قليل ، فى ربيع الآخر سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م ، وقيل فى العشرين من جمادى الآخرة(٣١) .

واغلب الظن انه توفى فى ربيع الآخر ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى سلخ ربيع الآخر منها قبض على الأمير سلار»(٣٢) . وكان سلار ذا حشمة ورياسة ، اقترح أشياء من الملابس كثيرة مثل السلارى وغيره(٣٣) . ومن جملة صدقاته أنه بعث الى مكة فى عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م فى البحر عشرة آلاف أردب قمح ففرقت فى اهل مكة . وكذا فعل بالمدينة . وكان فارسا اذا لعب الكرة لا يرى فى ثيابه عرق . وكذا فى الرمح . وله اليد البيضاء فى قتال التتار . وكان رنكه(٣٤) ابيض واسود(٣٥) .

وقد اذن السلطان للجاولى أن يتولى خزانة سلار وجنازته ودفنه فدفن بتربته عند الكبش ، واخذ السلطان ما كان له من الرزق(٣٦) وغيرها واضاف ذلك لخاص السلطان(٣٧) .

أعمال الجاولى فى الشام :

اما عن الجاولى فلم يزل بدمشق منذ نفاه بيبرس الى أن تحرك الناصر محمد من الكرك ، ولم يكن له فى سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس حل ولا عقد ولذلك قدم مع الناصر محمد الى مصر حيث ولاه وظيفة شد الدواوين(٣٨) .

وقد ظل الجاولى بمصر حتى ولاه الملك الناصر نيـــابة غزة فى جمادى الأولى ٧١١هـ/١٣١١م وأضاف اليه الســـاحل والقـــدس وبلد الخليل(٣٩) وجبل نابلس(٤٠) كما اعطاه اقطاعا كبيرا ، بحيث كان للواحد من مماليكه اقطاع بعمل عشرين الفا وخمسة وعشرين الفا(٤١)٠

وكانت غزة تارة تكون نيابة وتارة تكون تقدمة عسكر ، ومقدم العسكر بها يراجع نائب الشام فى أموره ٠ وقد أورد القلقشندى نسخة تقليد بنيابة غزة كتب به للأمير علم الدين الجاولى من انشـــاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ، كما أورد نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة(٤٢) ٠

وقد شهدت غزة نهضة عمرانية كبيرة فى عهد الجاولى ، بل أنه يمكن القول ان الجاولى يعد من خيرة النواب الذين تولوا غزة خـــلال العصر المملوكى، فقد أورد ابن حبيب ما نصه «ولى نيابة غزة عدة سنين، ومدنها ومضرها ، وعمـــر بها جامعـــا محكما ، ومدرســـة الشافعية وبيمارستانا ، وقصرا للنيابة ، وحماما انيقا ، وخانا للسبيل ، وله أوقاف غير ذلك ، وبر ومعروف(٤٣)» ، وكان أن شهدت مدينة غزة فى عهد الجاولى ازدهارا كبيرا فى منشآتها الدينية والمدنية والحربية ٠ وتميزت هذه المنشآت بالروعة والفخامة ٠ وقد أورد ابن بطوطة ــ وهو معاصر ــ وصفا رائعا لمدينة غزة ، فقال ما نصه « ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة ، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر ، متسعة الأقطار ، كثـــيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن(٤٤)» ٠

كذلك شهدت بقية المدن التى اضيفت للجاولى ازدهارا كبيرا ، فقد أورد ابن بطوطة عند زيارته الخليل « وهى مدينة صغيرة المساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، فى بطن واد ، ومسجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت(٤٥)» ٠

أما بيت المقدس فقد قال عنها « ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله ﷺ تسليما ، ومعرجه الى السماء ، والبلد كبيرة منيفة بالصخر المنحوت(٤٦) » .

كذلك قال عن الرملة ما نصه « ثم سافرت منها (عسقلان) الى مدينة الرملة وهى فلسطين ، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض(٤٧) » . ثم قال عن نابلس « ثم خرجت منها (الرملة) الى مدينة نابلس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب الى دمشق وغيرها ... والمسجد الجامع فى نهاية الاتقان والحسن ، وفى وسطه بركة ماء عذب(٤٨) » .

وقد تميزت عمائر الجاولى بالروعة والفخامة ، اورد ابن بطوطة وصفا رائعا للجامع الجاولى بغزة ، فقال « والمسجد الذى تقام به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجاولى ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض(٤٩) » .

ويقع هذا الجامع فى الطرف الجنوبى الشرقى لمدينة غزة . وقد أمدنا القاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذا المسجد ، حيث يقول « وبظاهر السور السليمانى من جهة الشرق مسجد فى غاية الحسن ،وبين السور السليمانى وهذا المسجد الدهليز وهو معقود مستطيل عليه الابهة والوقار ، والذى عمر هذا الدهليز والمسجد الأمير أبو سعيد الجاولى ناظر الحرمين الشريفين (حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس) ونائب السلطنة ،فعرف هذا المسجد بالجاولية وهو من العجائب(٥٠) » .

وقد ورد فى الأنس الجليل ان الابتداء فى عمارة هذا المسجد كان فى ربيع الآخر ٧١٨هـ/١٣١٨م وكان الفراغ من العمارة فى ربيع الآخر ٧٢٠هـ/١٣٢٠م ، وقد نقش فى جداره ان سنجر عمر ذلك الجامع من خالص ماله ، ولم ينفق عليه شيئا من مال الحرمين(٥١) . وأغلب الظن

ان الجامع بنى فى عام ٧١٤هـ/١٣١٤م ، حيث عثر على النص التاسيسى منقوشا على حجر نقل الى الجامع الشمعة(٥٢) بحى الزيتون بغزة،ضمن الأحجار التى نقلت اليه بعد تهدم الجامع الجاولى • ويحمل هذا النقش تاريخ انشاء الجامع ، الا انه غير مكتمل ، حيث ورد ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين • أمر بانشاء هذا الجامع المبارك ابتغاء مرضات الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة، أعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة سنة اربعة ••• »(٥٣) •

ولما كانت ولاية الجاولى قد بدأت بغزة فى جمادى الأولى عام ٧١١هـ/١٣١١م وانتهت فى الثامن عشر من شعبان سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م فمن المرجح أن تاريخ انشاء الجامع كان فى ذى الحجة سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م •

أورد القاضى مجير الدين عن هيئة المسجد أنه قطع فى جبل • قيل ان مكانه كان مقبرة يهود ثم قطعه الجاولى وجوفه ، وشيد السقف والقبة• وهو مرتفع على اثنتى عشرة سارية قائمة فى وسطه ، وفرش أرض المسجد وحيطانه وسواريه بالرخام ، وعمل شبابيك حديد على آخره من جهة الغرب • اما فيما يتعلق بذرع المسجد فقد ذكر ان هذا المسجد طوله من القبلة بشام ثلاثة وأربعون ذراعا وعرضه شرقا بغرب خمسة وعشرون ذراعا بذراع العمل(٥٤) •

كذلك انشا الجوالى بغزة مدرسة الشافعية تقدم ذكرها ، ومن المرجح انها شيدته على غرار مدرسته بقلعة الكبش وانشا بها بيمارستانا ووقف عليه عن الملك الناصر محمد أوقافا جليلة(٥٥) ، وجعل النظر فيه لنواب غزة ، وكان قسما منه مخصصا لمداواة أصحاب الأمراض العصبية • وظل هذا البيمارستان عامرا حتى عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م حيث خرب خلال الحملة الفرنسية(٥٦) •

ومن مآثر الجاولى بغزة انه عمر قصرا للنيابة ، وحماما أنيقا ، وخانا للسبيل(٥٧) ، والميدان ؛ كما شيد جامعا ببلد الخليل عليه السلام، وشيد جامعا فى لد(٥٨) من عمل الرملة(٥٩) . كذلك شيد خانا بقاقون(٦٠) ، وخانا بقرية الكثيب ، والقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وقد تميزت عمائره بالروعة والفخامة ، يقول المقريزى ما نصه«وسائر عمائره ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة»(٦١) . ومن مآثره أيضا ما أورده ابن حبيب فى حوادث عام ٧١٣هـ/١٣١٣م « فيها رسم السلطان ايده الله باجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام الى القدس الشريف ، فامتثل ما رسم به وباشر اجراءه وما يحتاج اليه من العمارة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، واهتم به واجتهد فيه الى أن وصل الماء الى بيت المقدس ، وارتفق الناس به »(٦٢) .

وقد قيل عن هذه العمارة :

طوبى لملك ليس يحصر أجره
اجرى القناة بارض بيت المقدس
روى الورى وعن الحيا اغناهم
واليهم أهدى حياة الأنفس(٦٣)

وفى تلك السنة أيضا ندب السلطان الأمير علم الدين سنجر الجاولى لعمل الروك بدمشق(٦٤) .

★ ★ ★

وقد ظل الأمير الجاولى يباشر نيابة غزة حتى ساءت الأحوال بينه وبين الأمير تنكز نائب الشام بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها ؛ أراد تنكز أن يبتاعها منه فأبى عليه ، فكتب فيه الى الملك الناصر محمد فامسكه فى ١٨ شعبان ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واعتقله نحوا من ثمان سنين. وقيل امسكه بسبب انه لما راك البلاد الشامية اختار لمماليكه خيار الاقطاعات فلم يعجب تنكز . ثم لما أمر الناصر امراء البلاد كلها اختار أن يكون تنكز واسطة بينهم وبين الناصر ، فغضب الجاولى ، ونم

عليه بعض مماليكه بانه يريد أن يهرب الى اليمن ، فارسل الناصر محمد من قبض عليه(٦٥) .

ثم أطلق الملك الناصر سراح الجاولى فى عـــام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م ، وقيل فى عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م واعطاه امرة اربعين ، ثم اعطاه بعد مدة امرة مائة وقدمه على الف ، وجعله من أمراء المشورة . وفى ذلك يقول ابن حبيب عن الجاولى « أحد امراء المشورة الذين يجلسون فى حضرة السلطان ، كان كبيرا جليلا ، اثيرا اثيلا ، مدبرا مشيرا ، عارفا لسياسة الملك ، خبيرا سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وأفتى وصنف ، واجتمع باهل العلم واحسن اليهم(٦٦) »، وقد قضى الجاولى فترة اعتقاله بنسخ القرآن وكتب الحديث(٦٧).

ولم يزل الجاولى من أمراء المشورة الى ان توفى الملك الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٤١هـ/١٣٤١م ، فتولى غسله ودفنه . وكان الجاولى قد أشار عليه أن يعهد بالملك الى أحد أولاده ، فأجاب الى ذلك وجعل ابنه أبا بكر سلطانا(٦٨) .

وفى عهد الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد ٧٤٣ -٧٤٦هـ/ ١٣٤٢ - ١٣٤٥م تولى الجاولى نيابة حماه(٦٩) عوضـــا عن الأمير طاقزدمر ، فاقام بها مدة ثلاثة أشهر ، ثم نقل الى نيابة غزة ، فاقام بها نحو ثلاثة اشهر أخرى ، ثم احضره الى القاهرة ، وقـــرره على ماكان عليه ، وولى نظر البيمارستان(٧٠) بعد نائب الكرك عندما اخرج الى نيابة طرابلس (البيمارستان المنصورى) . ثم توجه لحصـــار الناصر أحمد بن الناصر محمد وهو فى الكرك ، وبالغ فى حصاره حتى تمكن من قتله وعاد الى مصر ولم يزل على حاله الى أن توفى فى منزله بالكبش يوم الخميس تاسع رمضان ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، ودفن بمدرسته وخانقاته ، وكانت جنازته حافلة الى الغاية(٧١) .

★ ★ ★

وفيما يلى دراسة لمنشآت الجاولى وسلار فى تلك الفترة المزدهرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام .

مدرسة وخانقاه سنجر الجاولى بالكبش ٧٠٣هـ/١٣٠٣م (شكل ١) (لوحة ١) :

شهدت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية فى عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م الفراغ من عمارة المدرسة الناصرية(٧٢) ببين القصرين ، كذلك شهدت ايضا فى نفس العام الفراغ من عمارة مدرسة وخانقاه الأمير الجاولى ، وهى منشأة دينية على قدر كبير من الأهمية ، اذ لعبت هذه المنشأة مع المدرسة الناصرية دورا بالغ الأهمية فى تطور العمارة الدينية من الناحيتين المعمارية والزخرفية بمصر خلال العصر المملوكى الاول من جهة ونظرا لما أثير حولها من آراء من جهة أخرى . ذلك أنها اقترنت بأميرين جليلين من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون هما الأميران علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى ، وهو الأمر الذى أثار نقاشا حول نسبتها الى اى منهما ، فضلا عن الخلاف حول تسميتها ، وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها .

اما فيما يتعلق بتاريخ انشاء هذه المنشأة فان النصوص التاسيسية التى وجدت أعلى عتب المدخل العمومى (لوحة ٢) ، وأعلى ضريح سلار ، وأعلى ضريح الجاولى تشير الى ان الانتهاء من الانشاء كان فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م بما نصه « عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وهو الأمر الذى يؤكد ان ما ذكره المقريزى من أن عمارتها تمت فى عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ليس صحيحا . وقد أشار المقريزى الى ذلك فى موضعين فذكر المدرسة الجاولية فى المدارس ، والخانقاة الجاولية فى الخانقاوات ، وقال « انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة »(٧٣) .

اما فيما يتعلق بمنشئها فقد اختلفت الآراء كذلك فى نسبتها الى أى من الأميرين الجاولى وسلار ، حيث أنه على الرغم من ان النصين التاسيسيين المدونين على الضريحين الملحقين بهذه المنشأة تضمنا ماهية المكان واسم المنشىء وألقابه ووظيفته وتاريخ الانتهاء من الانشاء ، الا ان النص التاسيسى المدون أعلى المدخل العمومى والنصوص التاريخية المدونة على جدران المنشأة ذاتها لم تتضمن اسم المنشىء ، وهو الأمر الذى جعل

الاستاذ حسن عبد الوهاب يرجح نسبة هذه المنشاة الى الأمير سلار ،على الرغم من ان معظم المصادر التاريخية تنسب هـــذه المنشاة الى الأمير الجاولى . وقد جاء ترجيح الأستاذ حســــن عبد الوهاب اعتمادا على ما ذكره المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى عند ذكره وفاة سلار ونصه (ونقل الى تربته التى على الكبش فدفن فيها»· وكذلك اعتمادا على مشكاة له يقرأ عليها ما نصه « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى اللـــه تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه »(٧٤) .

والواقع ان ما استند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب نقلا عن المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى لا يرجح ان منشئها هو سلار ، حيث ان المنشـــاة تحتوى على ضريحين متجاورين (لوحة ١) أحدهما الذى تقدم ذكره والخاص بسلار ، والآخر الملاصق له وهو خاص بالجاولى ، وقد أجمع المؤرخون على ان كلا من الأميرين دفن بتربته التى على الكبش . اما فيما يتعلق بما ورد على المشكاة من كتابات ، فهى ايضا لا ترجح نسبة المنشاة لسلار لأنه من الضرورى أن ضريح الجاولى كان يحتوى على مشكاوات مماثلة لمشكاة سلار وان لم تصل الينا·وأرجح انها كانت تحتوى على كتابات نصها « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد اللـــه الجاولى استادار العالية عفا الله عنه » ، حيث أن الضريحين شيدا فى تاريخ واحد هو عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن ما أستند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نسبة المنشاة الى الأمير سلار يمكن أن يستند اليه فى نسبة المنشاة للأمير الجاولى .

ونرجح أن منشئها هو الأمير الجاولى . وقـــد أورد المقريزى فى السلوك ما نصه « ومات الأمير علم الدين سنجر .. ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش»(٧٥) ، كما اورد فى الخطط عند ذكره المدارس « هـذه المدرسة بجوار الكبش فيما بين القاهرة ومصر ، انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى »(٧٦) ، كما أورد عند ذكره الخانقاوات « هذه الخانقاة على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش فيما بين القاهرة ومصر انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى »(٧٧).

كذلك أورد ابن حجر فى الدرر عند ذكره الجاولى ما نصه « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش »(٧٨) . كما أورد ابن تغرى بردى فى النجوم فى حوادث عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عند ذكره وفاة الجاولى « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش(٨٩) » . وأورد ابن اياس فى بدائع الزهور عند ذكره وفاة سلار ما نصه « ولما مات بالقلعة ، غسل وكفن ، ودفن فى المدرسة الجاولية ، التى عند الكبش»(٨٠) . وذكر فى موضع آخر عند ذكره وفاة الجاولى ما نصه « توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو صاحب المدرسة المعروفة به(٨١) » ، كذلك قال ابن العماد الحنبلى ما نصه « وبنى .. وخانقاه بظاهر القاهرة .. ودفن بالخانقاه التى انشاها(٨٢) » .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه فى ضوء عدم العثور على وثيقة الأمير سلار فان معظم المؤرخين الذين ذكروا وفاة الأمير سلار لم يرد فى مؤلفاتهم انه انشأ مدرسة أو خانقاه و جامع بالكبش أو أى عمارة دينية داخل مصر أو خارجها ، وهو امر غير مألوف ، لما كان عليه سلار من جاه وثراء . يقول ابن حبيب عنه ما نصه «ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية اكثر من عشر سنين ، وبلغ من التمكن ونفاذ الكلمة والاستقلال بالأمر وكثرة الاقطاعات وسعة الأموال والمتاجر وغير ذلك ما لم يبلغه نائب سلطنة قبله(٨٣) » . واذكر من بين هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال ابن شاكر الكتبى فى وفاة الوفيات(٨٤) ، وابن حبيب فى تذكرة النبيه(٨٥) ، والمقريزى فى السلوك(٨٦) ، وفى الخطط المقريزية(٨٧) ، وابن حجر فى الدرر(٨٨) ، وابن تغرى بردى فى النجوم(٨٩) ، وفى المنهل الصافى(٩٠) ، وابن اياس فى بدائع الزهور(٩١) . ومما يرجح أيضا ان منشئها هو الامير الجاولى ، أن دار الجاولى كانت بمناظر الكبش مجاورة لهذه المنشأة الدينية ، وهى الدار التى كان يسكنها . وقد كانت للجاولى دار اخرى جعلها وقفا على هذه المنشأة ، اذ يذكر المقريزى ما نصه « هذه الدار من جملة الحجر ... وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى ، وعرفت فى زماننا بقاعة البغاددة لسكنى عبد الصمد الجوهرى البغدادى بها هو

واولاده ... وهى من الدور الجليلة الا انها قد تشعثت لطول الزمن(٩٤)». وفى ضوء هذه الحقائق يتضح أن الأمير الجاولى هو الذى قام بانشاء هذه المنشأة الدينية وليس سلار .

اما دار الأمير سلار فقد كانت بخط بين القصرين بعيدة تماما عن هذه المنشاة ، اذ يذكر المقريزى عند ذكره رحبة سلار(٩٥) « ودار الأمير سلار نائب السلطنة هى أيضا من جملة الفضاء الذى بين القصرين»(٩٦)، وقد تعرضت هذه الدار لحريق فى عام ٧٢١هـ/١٣٣١م (٩٧) . يذكر الأستاذ محمد رمزى انها اندثرت ، وكانت واقعة على يسار الداخل فى درب قرمز فى المنطقة التى تحد الآن من الجنوب بدرب قرمز وكان فيه الباب ، ومن الشرق بعطفة قرمز ، ومن الشمال بشارع التمبكشية بقسم الجمالية بالقاهرة(٩٨) .

وقد كانت للأمير سلار دار أخرى ، وهى دار النيابة بالقلعة(٩٩).

ومما يرجح نسبة هذه المنشأة الى الأمير الجاولى اضافة لما تقدم ، أن هذا الأمير كان مولعا بتشييد العمائر بصفة عامة،والعمائر الدينية بصفة خاصة ، وقد أورد السبكى ما نصه « وكان رجلا فاضلا يستحضر كثيرا من نصوص الشافعى وصنف (شرح مسند الشافعى)» . جمعه من شروح الرافعى وابن الأثير وشرح مسلم للنووى ، ونقل عبارة كل واحد بنصها وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس وغيرها(١٠٠). هذا بينما اهتم الأمير سلار بجمع المال فلم يشيد سوى خان بحمراء بيسان وهو الخان الذى تقدم ذكره(١٠١) .

وارجح أن الجاولى هو الذى شيد للأمير سلار تربته التى بالكبش حتى يدفن بجواره ، واختصه بالضريح الأكبر مساحة تقديرا له واعترافا بفضله فى ترقيه خلال عهود السلطان العادل زين الدين كتبغا ، والسلطان حسام الدين لاجين ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، فقد ربطت بينهما صداقة وطيدة يدل عليها ما أورده ابن تغرى بردى ونصه « فأخذه الأمير علم الدين سنجر الجاولى باذن السلطان وتولى غسله وتجهيزه ودفنه بتربته التى انشأها بجانب مدرسته

على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون بصداقة كانت بين الجاولى وسلار قديما وحديثا(١٠٢)» .

★ ★ ★

اما عن تسمية هذه المنشاة وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها فقد نعتت بعدة مسميات فذكرت فى عداد المدارس والخانقاوات والمساجد، نظرا لعدم العثور على وثيقة تحدد وظيفتها تحديدا دقيقا . من ذلك أن المقريزى ذكرها فى المدارس فاورد ما نصه « هذه المدرسة بجوار الكبش.. انشاها الامير علم الدين سنجر الجاولى وعمل بها درسا وصوفية ولها الى هذه الايام عدة أوقاف(١٠٣)» ، كذلك ذكرها ابن حجر فاورد « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش »(١٠٤) ، أما ابن تغرى بردى فيقول « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش »(١٠٥) ، وقال ابن اياس ما نصه « ودفن فى المدرسة الجاولية(١٠٦) » ، وذكر فى موضع آخر « وهو صاحب المدرسة المعروفة به » (١٠٧) ، أما على مبرك فقد ذكرها ضمن المدارس(١٠٨) .

كذلك اطلق عليها اسم خانقاه ، فذكرها المقريزى فى الخانقاوات وأورد ما نصه « هذه الخانقاة على جبل يشكر .. وقد تقدم ذكرها فى المدارس(١٠٩) . أما ابن العماد فاورد « ... ودفن بالخانقاه التى أنشاها »(١١٠) ، اما على باشا مبارك فقد ذكرها من جملة الخانقاوات(١١١) . كذلك عرفت بالجامع فذكرها على باشا مبارك فى الجوامع ، كما أطلق عليها مدرسة وجامع ، حيث وردت فى فهرس الاثار الاسلامية بمدينة القاهرة « مدرسة ومسجد »(١١٢) ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب أن تصميم هذه المنشاة شاذ عن تصميم المساجد والمدارس فلا هو مسجد ولا هو مدرسة ، كما ان النصوص التاريخية لم تحدد ذلك، ويرى أنه اقرب الى تصميم الخوانق(١١٣) .

وأرى أن الأمير الجاولى انشاها مدرسة الشافعية وشيد على غرارها مدرسة للشافعية بغزة(١١٤) ، فقد أورد السبكى ما نصه « وعمل نيابة السلطنة بغزة عدة فبنى بها مدرسة للشافعية(١١٥) » ، كما أورد مانصه

« وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس »(١١٦) .

وقد ذكر المقريزى(١١٧) هذه المنشأة فى مواضع عديدة باسم مدرسة ، بينما لم يذكرها سوى مرة واحدة باسم خانقاة ، كما أطلق عليها كل من ابن حجر فى(١١٨) الدرر ، وابن تغرى بردى(١١٩) فى النجوم ، وابن اياس(١٢٠) فى بدائع الزهور مسمى (مدرسة) .

ومما يرجح أن الجاولى انشاها مدرسة ما أورده ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ونصه « وتوفى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الضياء المناوى الشافعى شيخ المدرسة الجاولية بالكبش »(٢١) .

وكان يدرس بهذه المدرسة الفقه الشافعى ، كما كان يدرس بمدرسته بغزة ،بجانب حضور وظيفة التصوف ، وهو الأمر الذى عبر عنه المقريزى بقوله « وعمل بها درسا وصوفية(١٢٢) » . ومن الملاحظ أن تدريس المذهب الواحد لم يقتصر على المدارس ذات الايوان الواحد مثل المدرسة البقرية(١٢٣) ، ومدرسة ايتمش(١٢٤) ، بل درس أيضا بالمنشآت ذات الايوانين كما فى جامع السنبغا البوبكرى(١٢٥) ، كما درس فى المدارس ذات الأربعة ايوانات كما فى مدرسة صرغتمش(١٢٦) . وكذلك درس المذهب الواحد فى مدارس تخطيطها من أروقة دون الصحن كما فى المدرسة الطايبرسية(١٢٧) . وهكذا نجد أن طلبة العلم اصبحوا هم الصوفية المنزلين ، وهو الأمر الذى أوضحه المقريزى وتقدم ذكره ، لذا فانه يمكن اطلاق مسمى مدرسة وخانقاه الأمير علم الدين سنجر الجاولى على هذه المنشاة ، خاصة وانه لم يكن ثمة فرق كبير بين عمارة المدرسة وعمارة الخانقاة فى تلك المرحلة .

★ ★ ★

دراسة تحليلية لمدرسة وخانقاه الجاولى

أولا : الواجهة (لوحة ١) :

تشرف مدرسة وخانقاه الجاولى على الشارع العمومى (شارع

مراسينا) من خلال واجهة حجرية بديعة فى الجهة الشمالية الشرقية ، يبلغ طولها ٢١٫٦٣ مترا ، كما يبلغ ارتفاعها حتى قمة الشرافات المسننة حوالى ١٣٫٣٤م ، وفى الطرف الأيسر يوجد المدخل العمومى . وقد قسم المعمار هذه الواجهة الى ثلاثة مستويات الأول من أسفل شيد على الصخر مباشرة ينتهى بشطف حجرى . ثم يبدأ منه المستوى الثانى الذى يتكون من تسعة مداميك حجرية خالية من الزخرفة تتوجه حلية قالبية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل ، ثم يلى ذلك المستوى الثالث والذى يتكون من احدى وعشرين مدماك حجرى ، ويزدان هذا المستوى الأخير بست دخلات مستطيلة رائعة ترتكز على المدماك الأول الذى يلى الحلية القالبية مباشرة وتتوج هذا المستوى حلية حجرية ثانية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل على غرار الحلية الأولى ، وقد أوجد المعمار الحليتين كاطارين للدخلات من أسفل ومن اعلى .

والواقع أن الواجهة فى مجملها تمثل مرحلة متطورة للغاية ، حتى اننا نكاد نلمس بها روح واجهات عمائر القاهرة الدينية الجركسية . ويظهر هذا التطور واضحا جليا فى الدخلات التى تزدان بها فى المستوى الثالث ، حيث تميزت بتصميماتها المعمارية الدقيقة ، وزخارفها النباتية والهندسية البديعة ، ومقرنصاتها الزخرفية الرائعة التى تنوعت بين مقرنصات بلدية وحلبية . وقد اراد المعمار فوق ذلك اعطاء هذه الواجهة مظهر الروعة والفخامة فأقام قبتين جميلتين ومئذنة غاية فى الروعة ، كما أوجد تناسقا معماريا بديعا بين عمارة المئذنة وبين القبتين . وكذلك أوجد تناسقا زخرفيا رائعا بين تضليعات مبخرة المئذنة وبين تضليعات كل من القبتين فجاءت هذه الواجهة بحق من أجل واجهات عمائر القاهرة الدينية فى عصر دولة المماليك البحرية .

وقسم المعمار دخلات الواجهة الى قسمين ، بحيث يشرف كل من الضريحين على الشارع العمومى من خلال ثلاث دخلات ، تفصل بينهما واجهة الجدار الفاصل بين الضريحين ، وقد ميز المعمار الدخلة الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا من الدخلتين الجانبيتين . أما فيما يتعلق بدخلات واجهة ضريح الجاولى (لوحة ٣) التى تقع فى القسم الأيمن من الواجهة

فقد شغل المستوى الأسفل منها بشبابيك ذات مصبعات لانارة وتهوية الضريح من الداخل . ويتميز شباك الدخلة الوسطى بانه أكثر اتساعا من الشباكين الجانبيين بحيث يتناسب واتساع الدخلة نفسها ، يعلوه عتب يزدان بزخارف نباتية وهندسية قوامها اشكال خماسية هندسية تحصر بداخلها أوراق نباتية . ثم يعلو العتب نفيس يزدان بزخارف نباتية قوامها ورقة ثلاثية تتوسط التكوين الزخرفى ، يخرج منها من أسفل فرع نباتى يتجه يمينا ، واخر يتجه يسارا ، وتخرج منها أوراق احادية الفصوص ، ويعلو النفيس عقد عاتق من صنجات حجرية .

ويعلو كل من الشباكين الجانبيين عتب من صنجات حجرية يعلوه نفيس يزدان بزخارف نباتية على نفس النمط ، الا أن العناصر الزخرفية نفذت بحجم أقل لكى تتناسب مع المساحة المخصصة لها . ثم يعلو النفيس عقد عاتق اقل ارتفاعا عن مثيله فى الشباك الأوسط . يلى هذه الشبابيك شريط محفور أعد لنقش كتابى ، الا انه خال من الكتابات . ويمتد هذا الشريط بامتداد الواجهة والمدخل ، وقد حلى فى بدايته ونهايته بشكل زخرفى نباتى بديع على هيئة ورقة نباتية ثلاثية يخرج منها فرع نباتى يتجه الى أعلى واخر يتجه الى أسفل ، يشكلان حدود الشريط .

ويتوج هذه الدخلات مقرنصات تمثل مرحلة متطورة للغاية . وجاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من أربعة صفوف شكلت على هيئة ثلاثة تكوينات زخرفية هرمية ، يتميز التكوين الأوسط بان قمته تزدان فى داخلها بتضليعات . وقد تنوعت عقود المقرنصات بين مدببة ونصف دائرية . اما الدخلتان الجانبيتان فمقرنصاتهما من خمسة صفوف ذات عقود منكسرة فى شكل زخرفى بديع ، وهو الامر الذى يتضح فى ضوئه ان المعمار قد نوع فى تصميم المقرنصات فى هذه الدخلات مما أوجد تباينا زخرفيا بديعا فى دخلات ضريح الجاولى .

اما فيما يتعلق بدخلات ضريح سلار (لوحة ٤) فهى على نفس النمط ، فيما عدا تصميم مقرنصاتها ، حيث جاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من خمسة صفوف شكلت على هيئة أربعة تكوينات بديعة هرمية

عقودها منكسرة ، وهى بذلك تختلف ومقرنصات الدخلة الوسطى فى ضريح الجاولى،مما أوجد تباينا زخرفيا جميلا بين الدخلتين.ومقرنصات هذه الدخلة فى حالة جيدة عن تلك التى بضريح الجاولى . أما الدخلتان الجانبيتان فقد جاءت مقرنصاتهما من ثلاثة صفوف على هيئة عقد ثلاثى حلى الفص الأوسط منه فى داخله بتضليعات . وقــد تنوعت هــذه المقرنصات فى عقودها بين مدببة ونصف دائرية ، وهى بذلك تختلف وتصميم مقرنصات الدخلة الوسطى ، كمـا تختلف ومقرنصات كل من الدخلتين الجانبيتين فى ضريح الجاولى ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المعمار أوجد تباينا فى تصميم دخلات كل ضريح ، ثم أوجد تباينا آخر فى تصميم مقرنصات الضريحين .

وتعلو الدخلات حلية قالبية حجرية ثانية ، ثم تتــوج الواجهــة شرفات هرمية من ستة مدرجات ترتكز على مدماك حجرى يعلو الحلية ، وقد زخرف التدرج الأخير للشرافات على هيئة ورقة نباتية ثنائية .

اما فيما يتعلق بالشرافات التى وجدت بمدرسة وخانقاه الجاولى فقد تنوعت بين شرافات مدرجة (لوحة ١) ، وشرافات على هيئة زهرة الزنبق ذات الوريقات الثلاثة (لوحة ٥) وفيما يتعلق بالنوع الأول فقد وجدت بقايا من الشرافات المدرجة فى بداية العصر المملوكى البحرى فوق المدخل الجنوبى الغربى لجامع الظاهر بيبرس ، كما تظهـر فى ضريح فاطمـة خاتون ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ، ومجمـوعة السلطان قلاوون ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وضريح زين الدين يوسف ، ومدرسة الناصر محمد . اما النوع الثانى فانه يظر للمرة الأولى فى مصر فوق قبة الصوابى حوالى ٦٨٤هـ/١٢٨٥ - ٨٦م(١٢٨) .

والواقع أن عنصر الشرافات ذات الوريقات الثلاثية ظهر زخرفيا قبل أن يظهر معماريا ، فقد امتدت على افريز من مئذنة جامع الحاكم بامر الله الغربية نقش حجرى زخرفى بديع على هيئة شرافات ثلاثية الوريقات . وقد نسقت فى هذا الافريز سيقان واوراق نباتية فى أشكال هندسية بديعة متشابكة (لوحة ١٦) .

اما المدخل العمومى فيقع فى الطرف الأيسر من الواجهة (لوحة ٧) وهو من المداخل غير المباشرة (١٢٩) بسبب طبيعة المنشاة ، فقد اقتضى الموقع ان يفتح المدخل على دركاة تؤدى بدورها الى دهليز يفضى الى داخل المنشاة ، ويرتفع المدخل عن مستوى أرضية الطريق بحوالى ٧٠ر٢م ، يتوصل اليه من خلال سلم يحتوى على درج جانبى من جهة واحدة . ويؤدى الدرج الى بسطة مستطيلة تتقدم تجويف المدخل الذى يرتفع بارتفاع الواجهة تتوجه مقرنصات زخرفية من ثلاثة صفوف : الأول من أسفل مخلق تتوجه عقود مدببة ونصف دائرية ، يليه صف من مقرنصات ذات دلاليات . اما الصف الأخير فتناوب مقرنصاته بين غائرة ومسطحة فى تباين بديع . ويوجد على جانبى تجويف المدخل مكسلتان. يتوسط صدر تجويف المدخل فتحة باب مستطيلة اتساعها ٦١ر١ مترا ، ارتفاعها ٩٤ر٢ مترا بعمق ٣٥ سم . ويعلوها هذا العتب لوحة تأسيسية مستطيلة حليت فى طرفيها بزخرفة على هيئة ورقة ثلاثية على غرار الشريط العلوى الذى يتوج الواجهة أسفل المقرنصات ؛ وقد نقش عليها سطران بالخط النسخى (لوحة ٢) يتضمن السطر الأول نقش نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام » وفى السطر الثانى « الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وعلى ارتفاع مدماكين من النقش الكتابى أوجد المعمارى شباك من مصبعات لاضاءة وتهوية ايوان القبلة من الداخل باتساع ٤٣ر١ مترا وارتفاع ٨٦ر١ مترا ، ثم يلى ذلك عتب مستطيل يعلوه نقش يزدان بزخارف نباتية قوامها افرع نباتية واوراق احادية وثلاثية الفصوص. ثم يلى ذلك عقد عاتق من صنجات حجرية فى تكوين زخرفى رائع على هيئة اشكال ثلاثية متداخلة ، يعلوه الشريط الكتابى الذى يمتد بامتداد الواجهة أسفل مقرنصات الدخلات ، ثم يتوج المدخل المقرنصات التى تقدم ذكرها .

ثانيا : التخطيط من الداخل (شكل ١) :

تتبع المدرسة والخانقاه النظام الايوانى ، حيث تتكون من صحن وايوانين خصصا للمذهب الشافعى ، يشغل الصحن ساحة مستطيلة مكشوفة يبلغ طولها ٢٩ر٩ مترا وعرضها ٧٦ر٨ مترا يغطيها سقف خشبى

حديث ، يفتح عليه من الجهة الشمالية الشرقية ايوان القبلة من خلال فتحة اتساعها ٢٫٤٠ مترا بعمق ٩٫٦٧ مترا وترتفع أرضيته عن أرضية الصحن بمقدار ٣٨سم . وقد وجد ايوان القبلة فى هذه الجهة من الصحن نظرا لوجود المحراب بالجانب الأيمن من الايوان وليس بصدره ، حيث ان حنية المحراب بها انحراف شديد لمحاولة توجيهها جهة القبلة بسبب طبيعة الموقع . هذا بينما نجد أن المعمار جعـــل محراب كل من القبتين الضريحيتين فى سمت الجدران(١٣٠) فى الوضع الصحيح .

ويغطى هذا الايوان سقف خشبى حديث . وقد أوجد المعمار بهذا الايوان فى الجهة الشمالية الغربية المقابلة للمحراب دخلة يغطيها قبو مدبب زخرف اطاره الخارجى بجفت لاعب ذو ميمات . وجاءت الدخلة باتساع ٥٦ر°م بعمق ٢٨ر°م بها دخلة مصـــمتة يتوجها عقد مدبب ترتفع عن أرضية الايوان بمقدار ٤٢ سم بعمق ٥٠سم ، تقابلها دخلة أخرى أكثر عمقا ، حيث جاءت بعمق ٥٥ر٠م . وبصدر دخلة الايوان أوجد المعمار دخلة نافذة تقدم ذكرها عند ذكر المدخل ، الى اليسار منها دخلة أخرى مصمتة . (لوحة ٨) .

اما الايوان المقابل لايوان القبلة فهو أقل مساحة يقع فى الجهـــة الغربية من الصحن (لوحة ١) ، ويفتح على هذا الصحن من خلال فتحة يبلغ اتساعها ٢٫٧٨م بعمق ٣٫٢٦م . وهو يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٤٥سم يغطيه قبو مدبب . وقد أوجد المعمار على جانبى هـــذا الايوان حجرة تشرف على الصحن من خلال فتحة مستطيلة يتوجها عقد مدبب حـــدوى .

وتشرف الجهة الجنوبية الشرقية على الصحن من خـــلال أربعة مداخل ، منها مدخل فرعى للمنشأة جهة ايوان القبلة ، اما بقية المداخل فهى من فتحات مستطيلة تتوجها عقود مدببة حدوية .

أما الجهة الشمالية الغربية فتشرف على الصحن بدخلتين ،احداهما مجاورة لباب الدخول الى الصحن على هيئة شبه منحرف تتميز بعمقها واتساعها وارتفاعها ، حيث جاءت باتساع ١٫١٥م ، جانبها الأيمن بعمق

٤٨ر٢م ، اما الأيسر فبعمق ٠٢ر٢م . وترتفع ارضيتها عن الصحن بمقدار ٦٠سم ، سجل على يمينها تاريخ تجـــديد لجنة حفظ الآثار العـــربية ١٣١٦هـ.ويغطى هذه الدخلة قبو حجرى مدبب.اماالدخلة الثانية فهىعلى هيئة شبه منحرف ايضا الا أنها أقل عمقا واتساعا ، حيث يبلغ اتساعها ٤٠ر١م ، جانبها الأيمن بعمق ٥٧ر١م ، اما جانبها الأيسر فقد جاء بعمق ٢٢ر١م . تشرف على مساكن الصـوفية والدهليز الذى يتقـــدم القباب الضريـحية من خلال زخارف نباتية بديعة مفرغة فى الحجر (لوحة ١٠) قوامها أوراق احادية وثلاثية الفصوص وافرع نباتية تمثل مرحلة متطورة الغاية لزخرفة التوريق العربى (الارابسك) .

وقد وجدت الزخارف النباتية المفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز الذى يتوصل من خلاله الى القباب الضريحية بين الدعائم الحجرية الضخمة التى ترتكز عليها العقود المدببة . (لوحات ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

ثالثا : المئـــذنة(١٣١):

تمثل مئذنة مدرسة وخانقاه الجاولى من خـلال تكوينها المعمارى العامحلقة هامة من حلقات تطور المئذنة المصرية ، حيث احتـوت على طابق مربع المسقط يمثل القاعدة ، ثم طابق مثمن يعلوه طابق مستدير تتوجه قمة على هيئـة مبخرة . وهى أول مئذنة قائمة على حالها فى عمارة مآذن القاهرة تتعاقب طوابقها مربعة فمثمنة فدائرية . وهـــذا التكوين نتاج تطور محلى مرت به المئذنة المصرية منذ نشاتها(١٣٢) .

وترتفع القاعدة فوق مستوى الواجهة الى عـــلو ٣٨ر٦م ، وهى مربعة،تتميز باستطالتها،طول ضلعها ٥٠ر٤م ، بنيت من الحجر.يتوسط مدخلها واجهتها الجنوبية الغربية ، وهو مدخل يتوجه عقد ثلاثى بديع على جانبيه مكسلتان . وهو مدخل فريد يماثل مدخل المنشاة الذى جهة قلعة الكبش والذى جاءت طاقيته من مقرنصات من ثلاثة صفوف (لوحة ١٤) . ويظهر هذا المدخل المئذنة كانها منشاة معمارية قائمة بذاتها .

أما المبخرة فقد بنيت من الاجر ، تتكون من طاقية بديعة مقسمة الى ضلوع محمولة على أربعة صفوف من المقرنصات ، وتمثل هذه المبخرة مرحلة متطورة للغاية، وهى امتداد لما وجد فى مئذنة مشهد ابى الغضنفر اسد الفائزى ، ومئذنة المدرسة الصالحية ، ومئذنة زاوية الهنود ، ومئذنة جامع احمد بن طولون .

رابعا : القباب الضريحية :

يتوصل الى القباب من خلال مدخل بصدر البسطة التى تلى السلم مباشرة ، حيث تفتح على ممر تغطيه أقبية حجرية متقاطعة . ويشغل هذا الممر مساحة مستطيلة يبلغ طولها ١٤م وعرضها ٣م ، بالجهة الجنوبية الغربية منه اربعة عقود مدببة ترتكز على دعائم حجرية ضخمة ، وبالجهة الشرقية فتحة باب تؤدى لضريح سلار ، وفى نهاية الممر فتحة أخرى تؤدى الى ضريح الجاولى ، وبصدره عقد كبير يفضى الى قاعة مربعة طول ضلعها ٦٢ر٤م ذات شباكين صغيرين يطلان على مساكن الصوفية .

ويتوصل الى مساكن الصوفية من خلال هذا الممر ، وهى عبارة عن ساحة غير منتظمة ، بها محراب مهدم طاقيته على هيئة عقد نصف دائرى تعلوه زخارف هندسية جصية وكتابات نسخية قرآنية (آية ٧٧ من سورة الحج) . ويعلو المحراب رفرف بشرافات خشبية أسفله ازار من كتابات نسخية قرآنية (آية ١٨٥ من سورة آل عمران) ، وخلف جدار المحراب بقايا طابقين من خلاوى الصوفية اندثرت الآن(١٣٣) .

ضريح سلار (لوحة ٤) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الأولى بالجهة الشمالية الشرقية، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابات نسخية قرآنية (آية ٢٦ - ٢٧ من سورة الرحمن) ثم وظيفة المنشأة واسم المنشىء ووظيفته والقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م . والضريح يشغل مساحة مربعة طول ضلعها ٦٠ر٧م تتوسطه تركيبة خشبية ، وبصدد جداره الجنوبى الشرقى محراب بديع(١٣٤)

تكتنفه دخلتان. وبالجهة الشمالية الشرقية ثلاثة شبابيك يشرف من خلالها الضريح على الشارع العمومى . ويعلو جدران القبة شريط كتابى نسخى قرآنى (آيات ١٩١ - ١٩٣ من سورة آل عمران) . والواقع أن التخطيط المربع اتبع فى معظم اضرحة هذا العصر سواء كانت مستقلة أو كانت ملحقة بمنشاة من العمائر الدينية . وقد حقق المعمار - بتخطيط الضريح مكونا جزءا من اجزاء الواجهة الرئيسية - رغبة المنشىء فى التباهى بظهور ضريحه مطلا على الشارع . كذلك فان المعمار قد حقق الموضوع الملائم القراء الذين يقراون القرآن الكريم عادة بشبابيك هذه القباب المشرفة على الشارع ، حيث شاعت هذه العادة فى العصر المملوكى حتى ان القارىء اخذ تسميته من هذه الشبابيك فسمى قارىء شباك . كذلك فان وجود هذا الضريح فى هذا الموقع من المنشاة حقق رغبة الفقهاء فى أن لا يكون الضريح امام مستقبل القبلة(١٢٨) .وتتكون مناطق انتقال القبة من ثلاثة صفوف من المقرنصات معقودة بعقد منكسر تتكون كل من الحطة الأولى والثانية من ثلاث حنيا،أما الثالثة فمن أربع حنايا. وتعد مناطق الانتقال بذا التصميم امتدادا لما وجد فى قبة الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وفى قبة زين الدين يوسف ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة من أربع فتحات على هيئة مثلث ملئت بزخارف جصية وزجاج معشق . وتحتوى رقبة القبة على عشرين نافذة مفتوحة معقودة بعقد منكسر ، كما فى قبة زين الدين يوسف ، وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت من الخارج بكتابات جصية نسخية بديعة قرآنية (آيات ١٠١ - ١٣ من سورة الأنبياء) ، وقد اهتم المعمار بزخرفة ظاهر القبة باسلوب التضليع (لوحة ١٥) ومن القباب الاجرية التى ازدانت وفقا لهذا الاسلوب قبتى ايدكين البندقدارى ٦٨٣هـ/١٢٨٣م ، والصوابى حوالى ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وزين الدين يوسف ، وقراسنقر ، وعلى بدر الدين القرافى .

ضريح الجاولى (لوحة ٣) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الثانية بالجهة الشمالية الشرقية، يعلوها لوحة تاسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابة قرآنية (آية ٢٦ -٢٧ من سورة الرحمن) ، ثم وظيفة المنشاة واسم

المنشىء ووظيفته والقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ/١٣٠٣م(١٤٥). ويشغل الضريح مساحة مربعة طول ضلعها ٤٧ر٦م اقل من مساحة ضريح سلار ، وبصدر الجدار الجنوبى الشرقى محراب حجرى(١٣٦). وبالجهة الشمالية الشرقية الجنوبية الغربية دخلات على نفس نمط دخلات ضريح سلار . وباعلى أركان مربع الضريح شريط من الكتابة النسخية الحجرية القرآنية (آيت ٢٨٤ - ٢٨٦ من سورة البقرة) . يتوسط مربع القبـــة تركيبة خشبية . وباعلى أركان المربع منطقة انتقال من ثلاث حطات من المقرنصات المعقودة بعقد منكسر تتكون كل حطة منها من خمس حنايا . وقد وجدت مناطق الانتقال بنفس الأسلوب فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية ، وقبة الاشرف خليل ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ، وقبة حسام الدين طرنطاى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ، وقبة فوارة جامع ابن طولون ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ، وقبة المدرسة الناصرية ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وقد اوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة مماثلة كتلك التى بضريح سلار .

أما رقبة القبة فتحتوى على أربع وعشرين نافذة معقودة بعقـــد منكسر ، الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن نوافـــذ الرقاب لم تتبع نظاما واحدا من حيث عددها . وقد وجد هذا العدد من الفتحات فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية . وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت رقبتها من الخارج بكتابات جصية قرآنية (آية ١٣٥-١٣٦ من سورة آل عمران) ، وقد زخرفت القبة بأسلوب التضليع من الخارج (لوحة ١٦) .

القبة الثالثة الحجرية :

يتوصل اليها من خلال عقد بالنهاية الشمالية الغربية للممر ، وهى قبة صغيرة حجرية خالية من النقوش (لوحة ١٧) منطقة انتقالها من حطتين . وقد اشار الأستاذ حسن عبد الوهاب الى أنها تعد اقـــدم قبة حجرية باقية . وقد عرفت هذه القبة بقبة عبد الله الذاكر . ولعل المدفون فيها أيضا الأمير بشتاك ، المنقول اليها من الاسكندرية فى عام ٧٤٨هـ/١٣٤١م(١٣٧) .

وجاء تخطيط هذه القبة من مساحة عريضة ، منطقة انتقالها من

حطتين من المقرنصات تتكون كل واحدة منها من ثلاث حنايا ذات عقود مذكسرة .

خاتمـــة :

وبعد،فاننى ارجو أن تكون هذه الدراسة قد القت بعض الضوء على الاميرين علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار ، وعلى أعمالهما المعمارية . وقد تعرضت الدراسة لتاريخ سلار وصفاته منذ سلطنة الناصر محمد الثانية وحتى وفاته ٧١٠هـ/١٣١٠م ، كما شملت ايضا أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمارية وترقية خلال سلطنة الملك الناصر محمد الثانية وحتى وفاة سلار٧١٠هـ/١٣١٠م.كذلكشملت الدراسة أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمارية وترقيه خلال سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م .

وقد شهدت دولة سلاطين المماليك وبخاصة بلاد الشام نهضة عمرانية عظيمة ، توجتها منشآت الأمير الجاولى الدينية والمدنية والحربية . ذلك أن هذه المنشآت تميزت بالروعة والفخامة ، وهو الأمر الذى شهد به المعاصرون مثل ابن بطوطة فى تحفة النظار والمقريزى فى خططه ، والقاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل .

ومن بين أعمال الأمير الجاولى بغزة الجامع البديع الذى يؤرخ تاريخ عمارته بعام ٧١٤هـ/١٣١٤م . وكذلك كان من مآثر مدرسة الشافعية ، وبيمارستان ، وقصر النيابة ، وحمام انيق ، وخان السبيل ، وميدان . ومن مآثر الجاولى ببلد الخليل انه انشأ جامعا ، كما شيد جامعا فى لد ، وخانا فى قاقون ، وخانا بقرية الكثيب ، وقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وهى عمائر وصفها المقريزى بأنها « ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة » .

كذلك ناقشت فى هذا البحث الآراء التى ترجح نسبة المنشاة التى اقترنت بالأميرين الجليلين الجاولى وسلار بالكبش الى الأمير سلار وانتهيت الى ترجيح نسبة المنشأة الى الأمير الجاولى .

ورجحت فى هذه الدراسة أن يكون الأمير الجاولى أنشأ هذه المنشأة لتكون مدرسة الشافعية يدرس بها الفقه الشافعى كما كان يدرس بمدرسته بغزة بجانب حضور وظيفة التصوف .

ولعلنا قد وفقنا فى الدراسة التحليلية الخاصة بهذه المنشأة ، لاسيما فيما يتعلق بواجهتها المطلة على الشارع العمومى (شارع مراسينا) وما احتوته هذه الواجهة من عناصر معمارية وزخرفية . هـذا فضـلا عن التخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية والمئذنة .

الهـــوامش

(١) وردت هذه الألقاب والكنى والتى تتمثل فى « الأمـــير الكبير علم الدين أبو سعيد » فى المصادر التاريخية · انظر عن هذه الألقاب ·

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق ، جـ٢ ، ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى الأتابكى (جمال الدين أبو المحاسن) : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق د· محمد محمد أمين ، جـ٦ ، ص ٧٤ . ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ·

(٢) عرف الأمير علم الدين سنجر بالفقيه الشافعى · وقد أورد ابن حبيب عنه ما نصه « سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وافتى وصنف ، واجتمع بأهل العلم وأحسن اليهم » ، كما أورد المقريزى فى خططه أنه سمع الحديث وروى وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى وافتى فى آخر عمره على مذهـــب الشافعى · انظر : ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . تحقيق د· محمد محمد أمين ، جـ٣ (حوادث وتراجم ٧٤١ ـ ٧٧٠هـ/١٣٤٠ ـ ١٣٦٨م) ص ٧٦ . المقـــريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (المعروف بالخطط المقريزية) ، جـ٢ ، ص ٢٩٨ ·

(٣) الملكى : بفتح اللام من ألقاب الملك وألقاب أتباعه المنسوبين اليه من الأمراء والوزراء ومن فى معناهم ، وقد ورد هذا اللقب على لوحة تأسيسية تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد أيضا على لوحة تأسيسية كانت بجامعه الذى أنشاه بغزة · انظر : القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، جـ٦ ، ص ٣٠ ·

(٤) الناصرى : لم يرد هذا اللقب فى المصادر التاريخية ، الا أنه وجد على اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد هـــذا اللقب أيضا على اللوحة التأسيسية التى كانت بجامعه الذى انشاه بغزة ·

د· سعاد ماهر : مســـاجد مصر ، جـ٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ·

٥) لم يرد هذا اللقب فى المصادر التاريخية ، الا أنه ورد فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريح الجاولى ، وقد خلت اللوحة التأسيسية لجامعه بغزة من هذا

اللقب ، حيث جاء بها ما نصه « ... العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبدالله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة ...» .

سليم عرفات : المرجع السابق ، ٢٢٤ .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٦) آمد : بكسر الميم بلد قديم حصين مشيد بالحجارة السود على نشز دجلة .

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ج١ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٧) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٩٨ ، ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق، ج٢ ، ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٦ ، ص ٧٤ .

(٨) الكرك : بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى كلمة أعجمية ، اسم لقلعة حصينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين ايلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهى على سن جبل عال تحيط به أودية الأمن جهة الربض .

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٥١٤ .

الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٤٨٣ .

(٩) الحوائج خاناه : معناها بيت الحوائج ، ومنها يصرف اللحم الراتب للمطابخ السلطانى والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين ، وغيرهم من أرباب الرواتب .

لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٢ .

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٩٨ .

(١١) وردت هذه الالقاب فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريحه بما نصه « سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصر المنصورى ، وهى نفس القاب الأمير الجاولى التى تقدم ذكرها .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(١٢) أمير شكار : هو لقب الأمير الذى يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد .

القلقشندى : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٤٦١ .

(١٣) ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى: المنهل ، ج٦ ، ص ٦ .

(١٤) مناظر الكبش : ذكرها المقريزى فاورد ما نصه « هذه المناظر اثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون على الجسر الاعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون انشاها الملك الصالح نجم الدين فى أعوام بضع وأربعين وستمائة » .

(١٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٨ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

استاذ دار : عرفت هذه الوظيفة بصيغ مختلفة منها استادار ، واستاذ الدار. ستدار ، واستاذ ذار ، واستاذ الادر ، واستذار .

مزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢١ . د. حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ١ ، ص ٣٩ ـ ٥٨ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(١٦) نيابة السلطنة : يعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الاسلامية ، وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك .

لمزيد من التفاصيل انظر . القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص١٧ـ١٨ .

(١٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢١٣ . ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، ص ٣٦٩ ـ ٢٧٠ ، الشوكانى (محمد بن على) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ص ٢٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ١١٦ .

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٩٨ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ ، ابن ايبك الدوادارى (ابى بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، جـ٩ ، ص ١٠١ القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .

(٢١) العينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ـ حوادث وتراجم ٦٩٩ ـ ٧٠٧هـ/١٢٩٩ ـ ١٣٠٧م)، تحقيق د. محمد محمد أمين ، جـ٤ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٢٣) طبلخاناه : لفظة فارسية بمعنى بيت الطبل ، وهى أحد الدور الخاصة

بالسلطان تحفظ فيه الطبول والابواق وما يتعلق بها من الادوات ، د٠ حسن الباشا : الفنون الاسلامية ، جـ١ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٦ ٠

(٢٤) العينى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ٠

(٢٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٦ ٠

(٢٦) حمراء بيسان : بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة مدينة من جند الاردن ، وهى صغيرة بلا سور ٠

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ١٦٢ ، القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ٠

(٢٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٠ ٠

(٢٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٤ـ٦٠

(٢٩) الشوبك : بلدة صغيرة من جبل الشراه ، لها قلعة مشيدة من الحجر الابيض على تل مرتفع مطل على الغور من شرقيه ٠

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ٠

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١١ ، ١٦ ـ ١٩ ٠

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ١٩ ٠

(٣٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠ ٠

(٣٣) السلارى : أورد المقريزى ان سلار استجد القباء الذى يعرف بالسلارى وكان قبل ذلك يعرف ببغلوطاق ٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٩ ، ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، ص ٤٣ ـ ٤٥ ٠

(٣٤) من عادة كل أمير ، كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هناب أو دواه أو بقجة أو فرنيسة ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين بألوان مختلفة ، كل أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك ٠

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٦١ ـ ٦٢ ٠

(٣٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، المنهل ، جـ٦ ،ص٧ـ٩٠

(٣٦) الرزق : مفردها رزقة وهى المخصصات التى كان يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية او تقاسيط ديوانية الى بعض الناس على سبيل الاحسان والانعام ٠ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٥٤ هامش ٦ ، د٠ محمد محمد أمين : الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

(٢٧) ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧١ . ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٩ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨.

شد الدواوين : موضوعها ان يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدثا في استخلاص الاموال وما في معنى ذلك وعادتها امرة عشرة . القلقشندى : المصدر السابق،جـ٤ ، ص ٢٢ ، د. حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، جـ٢ ، ص ٦١١ ـ ٦١٣ . القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٢٩) الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٤٠) نابلس : مدينة مشهورة بارض فلسطين بينها وبين المقدس عشرة فراسخ . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، الحميرى : المصدر السابق. ص٥٧١ ـ ٥٧٢ .

(٤١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٤٢) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ١٢ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٩ .

(٤٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

D. Margoliouth S.,: Cario; Jerusalem,
Damascus, London, 1907, P. 86.,

Meinecke (Michael) · Die Mamlukische Architektur in
Agypten und Syrien (648-1250 Bis 923-1517),
tell II, Verlag J.J. Augustin GMBH.
Glück stadt, 1992, p. 117, 122, 128.

(٤٤) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٥٠) القاضي مجير الدين (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت ٩٢٧هـ : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، ص ٥٨ .

حسين روحي : المختصر في جغرافية فلسطين ، ص ١٠٥ ، القدس ، الطبعة الاولى ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م ٠

(٥١) مجير الدين الحنبلي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٨ ٠

(٥٢) يقع هذا الجامع في ناحية من حي النجـــارين (حارة الزيتون) وسبب تسميتهبهذا الاسم غير معروف ، كما لا تتوافر معلومات عن منشئه ٠

محمود على خليل عطا الله : نيابة غزة في العهد المملوكي ، ص ٢٢٨ ٠

(٥٣) سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ، البنايات الاثرية الاسلامية في غـــزة وقطاعها ص ١٠٤ (لوحة ١١٢) ، محمود خليـــل : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ _ ٢٢٩ ٠

(٥٤) مجير الدين الحنبلي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٨ ٠

ومن الأوقاف التي وقفها الأمير الجاولي على جامعه بغزة قرية سمسم ٠

سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ _ ٢٦٨ ٠

(٥٥) من الأوقاف التي وقفها الجاولي على هذا البيمارستان عن الملك الناصر محمد ملاقص ضمن أراضي بربر ، صميل عند عامورة ، قرية هربيا ، بطاني الشرقي ، قرية البها شرق غزة ، مزرعة تل العجول ٠

المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ _ ٢٦٨ ٠

(٥٦) محمود على خليل : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ _ ٢٤٣ ٠

(٥٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ _ ٧٦ ٠

Meinecke (Michael) : Die Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٥٨) لد : بالضم والتشديد وهو جمع الد ، قرية بيت المقدس من نواحي فلسطين بالشام تنزل الرفاق الواصلة من الشام الى مصر والقافلة من مصر الى الشام وفيه كنيسة محكمة البناء واسعة الفناء ٠

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٧ _ ١٨ ٠

الحميري : المصدر السابق ، ص ٥١٠ ٠

(٥٩) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين كانت رباطا للمسلمين ٠

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٧٩ _ ٨١ ، ابن أيبك الدواداري: المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٢٩٠ ٠

(٦٠) قاقون : مدينة لطيفة غير مسورة بها جامع وحمام . وقلعة لطيفة وشربها

ماء الابار . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٢٩ . القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٠ .

Meinecke (M.) : Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٦١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٦٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٤ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٦٤) الروك : كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتشهيدها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها . ويقولون راك البلاد يروكها أى فك زمامها .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٣٦ ، ٤٢ هامش ١ .

(٦٥) المقريزى : الخطط ،جـ٢ ، ص ٢٩٨ . ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٦٦) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ . المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٩٠ .

(٦٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ . ص ٢٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ . ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٦٩) حماه بالفتح مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضر كبير فيه أسواق كثيرة وجامع مشرف على نهرها المعروف بالعاصى .

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٧٠) نظر البيمارستان : يقول القلقشندى عند ذكره نظر البيمارستان « والمراد البيمارستان المنصـــورى الذى أنشأه المنصـــور قـــلاون بين القصرين .. وهى من اجل الوظائف واعلاها . وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لاكبر الأمراء بالديار المصرية » .

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٨ .

أنظر أيضا عن البيمارستان المنصورى .

د. محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة فى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط. يناير ١٩٨٠ ، ص ٨١ وما بعدها .

(٧١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٧٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٥١ ، د. على محمود سليمان المليجى : عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص ١٢٩ ـ ٢٠٢ .

(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ٤٢١ .

Creswell (K.A.C.) : The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamlúks, Oxford, 1959, p. 245.

(٧٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، ص ١٢٥ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . الطبعة الثانية . ١٩٩٤م ، د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ . ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٧٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ق٣ ص ٦٧٤ .

(٧٦) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ .

(٧٨) ابن حجر : المصدر السابق ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ،جـ٢ ،ص٢٦٧.

(٧٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١١٠ .

(٨٠) ابن اياس (محمد بن أحمد الحنفى) ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ .

(٨٢) ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) ت ١٨٠٩هـ : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٦ ، ص ١٤٣ .

(٨٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٨٤) الكتبى (محمد بن شاكر بن احمد) ت ٨٦٤ هـ : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٣ .

(٨٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠ .

(٨٦) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . جـ٢ . ق١ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٨٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٩٨ .

(٨٨) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨ .

(٨٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٢١٧ .

(٩٠) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص ٦ ـ ٧ ·

(٩١) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ·

(٩٢) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٩ ·

(٩٣) الشوكانى : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ·

(٩٤) انظر عن الدارين :

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٥ ، ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص٧٥ـ٧٦·

(٩٥) الرحبة باسكان الحاء وفتحها الموضع الواسع وجمعها رحاب والرحاب كثيرة لا تتغير الا بأن يبنى فيها فتذهب ويبقى اسمها أو يبنى فيها ويذهب اسمها ويجهل وربما انهدم بنيان وصار موضعه رحبة أو دار أو مسجد ·

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٧ ·

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ ·

(٩٧) ورد ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٢١هـ ان حريقا وقع بالقاهرة ومصر يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى ، وكان مما احترق فيه الربع الذى بالشوايين من أوقاف البيمارستان المنصورى ، ثم فى حارة الديلم قريبا من دار كريم الدين الكبير ، انظر مزيدا من التفاصيل فى :

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٦٢ ـ ٦٦ ·

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٩ هامش ٢ ·

(٩٩) المصدر نفسه ، جـ ٨ ، ص ١٧١ ·

(١٠٠) السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، د· عبدالفتاح محمد الحلو ، جـ١٠ ، ص ٤١ ·

(١٠١) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٩٠ ·

(١٠٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٨ ـ ١٩ ·

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ·

(١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ·

(١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ·

(١٠٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١١٠ ·

(١٠٦) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٣٦ ·

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ ·

(١٠٨) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ٦ . ص ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م ٠

(١٠٩) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢١ ٠

(١١٠) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ٠

(١١١) على باشا مبارك : الخطط ، جـ٦ ، ص ١٤٢ ٠

وردت أيضا فى المراجع الاثرية باسم خانقاه ٠ انظر د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٠ ، د٠ محمد حمزة اسماعيل الحداد العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى ، ص ٢٩٧ (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م٠

شفيقة قرنى سيد : دراسة أثرية عمرانية لشارع الصليبة بالقاهرة حتى العصر الجركسى مخطوط رسالة ماجستير . كلية الآثار ـ جامعة القاهرة . ١٤١٣هـ/١٩٩٣م٠ ص ١٠٠ ـ ١٠٥ ٠

(١١٢) على باشا مبارك : المرجع السابق ، جـ٤ . ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ،١٩٨٠م٠

جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل . ترجمـــة د٠ ايمن فؤاد سيد ، ص ٢٩٠ ٠

Devonshire (R.L.) : L' Egypte Muslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926, p. 89, Pl. XXI.

(١١٣) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ٠

(١١٤) غزة : بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتحه ، فى الاقليم الثالث طولها من جهة المغرب أربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ، وهى مدينة فى اقصى الشام من ناحية مصر ٠

المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٤، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، الحميرى : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ ٠

(١١٥) السبكى : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٤١ ٠

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٤١ ٠

(١١٧) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٧٤ ، الخطط ، جـ٢ . ص ٦٥ . ٣٩٨ ٠

(١١٨) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(١١٩) ابن تغرى بردى النجوم ، جـ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(١٢٠) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ . ٥٠٤ ٠

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص ١٢٨ ٠

(١٢٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ .

(١٢٣) ذكرها المقريزى فقال « هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى المجاور المنبر .. بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل .. المعروف بابن البقرى .. وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ».

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩١ .

(١٢٤) ذكرها المقريزى فاورد « هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة انشأها الأمير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسى ثم الظاهرى .. وجعل بها درس فقه الحنفية » .

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٠٠ .

(١٢٥) د. عادل شريف : النصوص التأسيسية على العمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآداب . جامعة أسيوط ، ١٩٨٦م . ص ٢٨٨ .

(١٢٦) أورد المقريزى ان الأمير صرغتمش جعل هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية . المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٠٤ . د. حسن سيد جـودة القصاص : المدرسة الصرغتمشية ، دراسة اثرية معمارية ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٩٣٩٢ ـ ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م ، ص ١٢ .

(١٢٧) انشأ هذه المدرسة الأمير علاء الدين طيبرس وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية . المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٨٣ .

لمزيد من التفاصيل انظر . د. على سليمان الميجى : المرجع السابق . ص ١٧٨ ـ ١٨٥ .

(١٢٨) د. شاهنده فهمى : جوامع ومساجد (مخطوط رسالة دكتوراه) ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ .

(١٢٩) د. محمد سيف النصر أبو الفتوح : مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية (من سنة ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ٢٣٨٢م) ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٤٤ ـ ٤٧ .

(١٣٠) د. حسنى محمد نويصر ، عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين ٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

Abuo Seif (D.) : Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press. P, 103.

(١٣١) تناولت في رسالتي الدكتوراه هذه المئذنة بالدراسة الوصفية ثم بالدراسة التحليلية · انظر أيضا د· عبد الله كامل موسى عبده : تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي (دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامي) ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص ١٧٥ - ١٨٢ ، ٥٤٠ - ٦٢٦ ·

(١٣٢) Creswell (K.A.C.) : The Evolution of the Mineret, Burlington, Magazine (Mars-Mai, Juin, 1926).

(١٣٣) د· سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٤٨ ·

(١٣٤) انظر عن هذا المحراب وزخارفه :

د· حسين مصطفى حسين : المحارب الرخامية في قاهرة المماليك البحرية (دراسة اثرية فنية) ، مخطوط رسالة ماجستير/كلية الاثار - جـــامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .ص ١٥٤ - ١٥٧ ·

(١٣٥) د· محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه . كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر/١٩٧٩م ، ص ٣١١ ·

د· محمد حمزة اسماعيل الحداد : القباب في العمارة المصرية الاسلامية ، ص ٧٣ - ٧٥ ·

(١٣٦) د· حسين مصطفى حسين : المحاريب الرخامية (مخطـــــوط رسالة ماجستير) ، ص ١٥٤ ·

(١٣٧) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ·

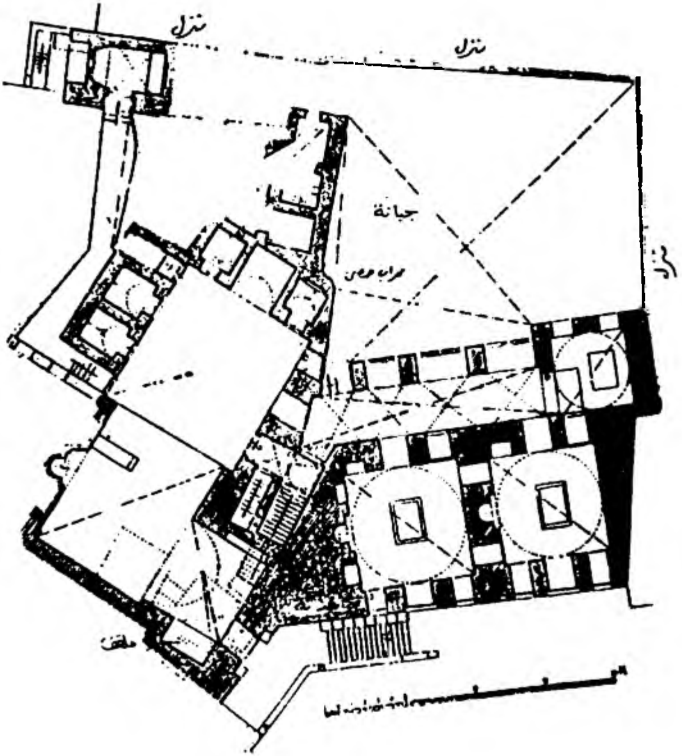

شكل (١) : المسقط الأفقى لمدرسة وخانقاه الجاولى • عن Creswell

لوحة (١) : مدرسة وخانقاه نجم الجاولي بالكبش

لوحة (٢) : النص التأسيسي أعلى عتب المدخل العمومي

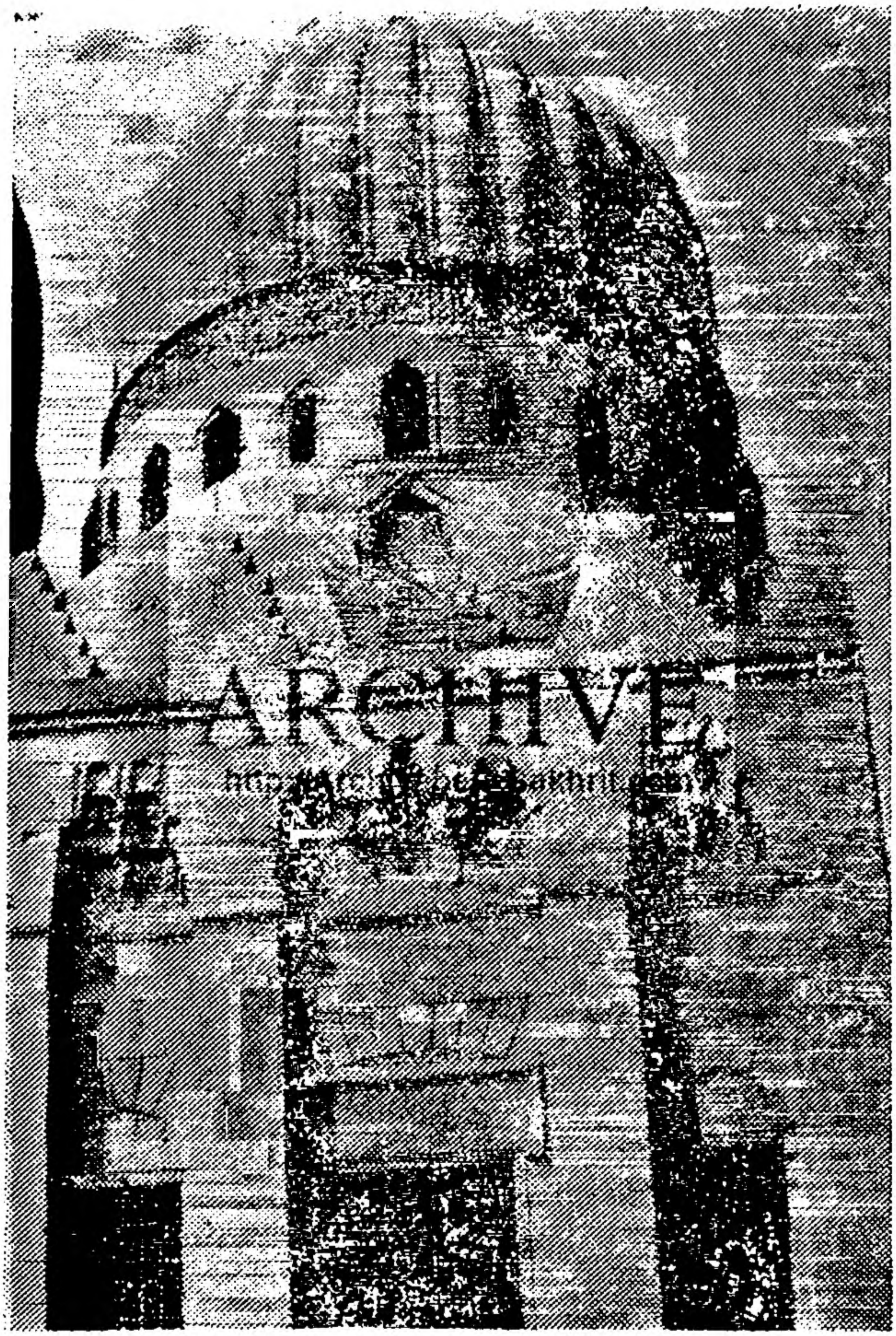

ARCHIVE

لوحة (٣) : دخلات واجهة ضريح الجاولى

ARCHIVE

لوحة (٤) : دخلات واجهة ضريح ســــلار

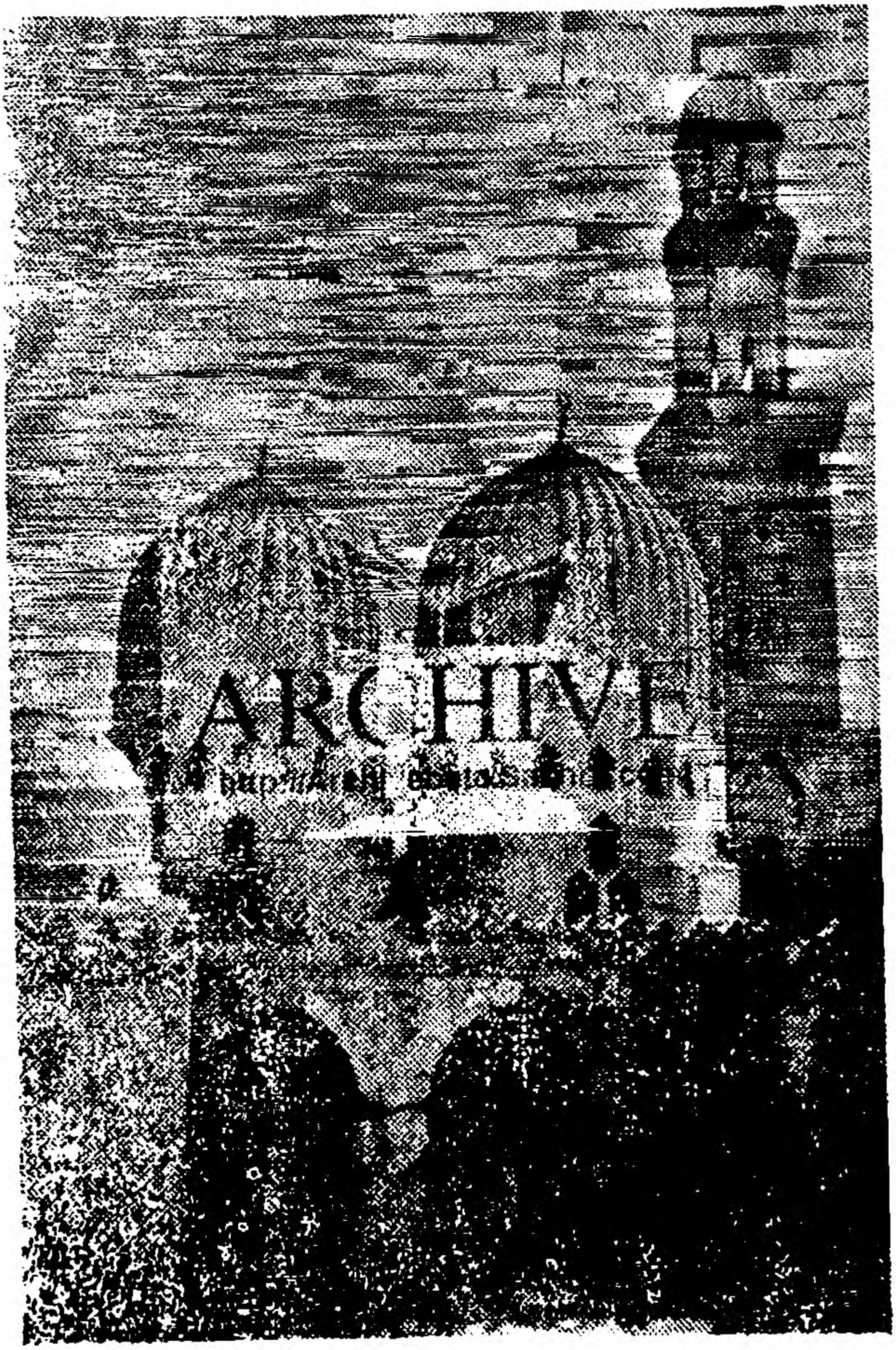

لوحة (٥) : الشرافات ذات الوريقات الثلاثية

لوحة (٦) : افريز من مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الغربية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة (٧) : المدخل العمومى لمدرسة وخانقاه الجاولى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة (٨) : دخلة داخل ايوان القبلة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة (٩) : الايوان المقابل لايوان القبلة

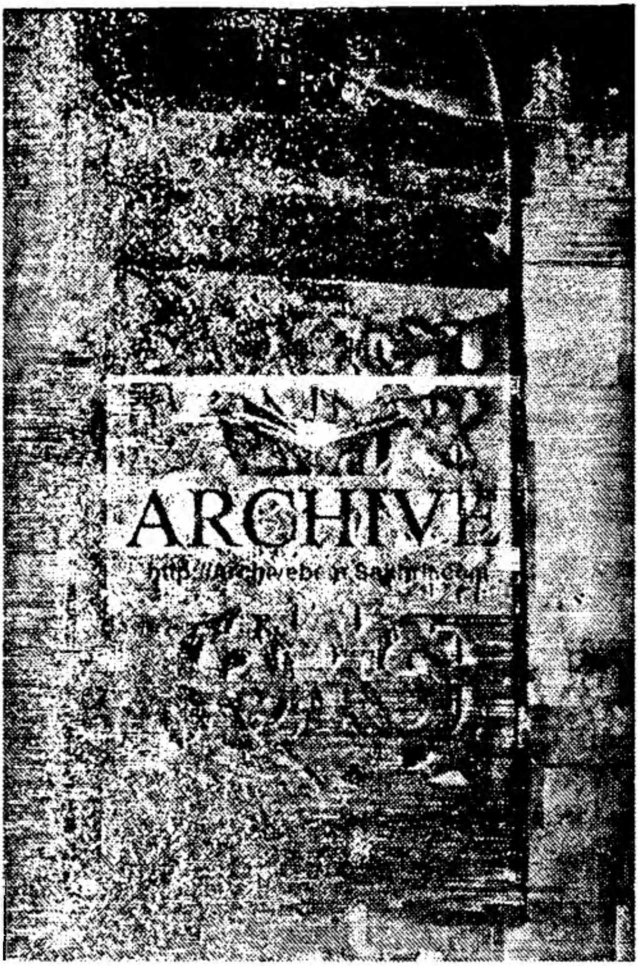
ARCHIVE

لوحة (١٠) دخلة بالجهة الشمالية الغربية للصحن تزدان
بزخارف مفرغة فى الحجر

لوحة (١١) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز

لوحة (١٢) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز

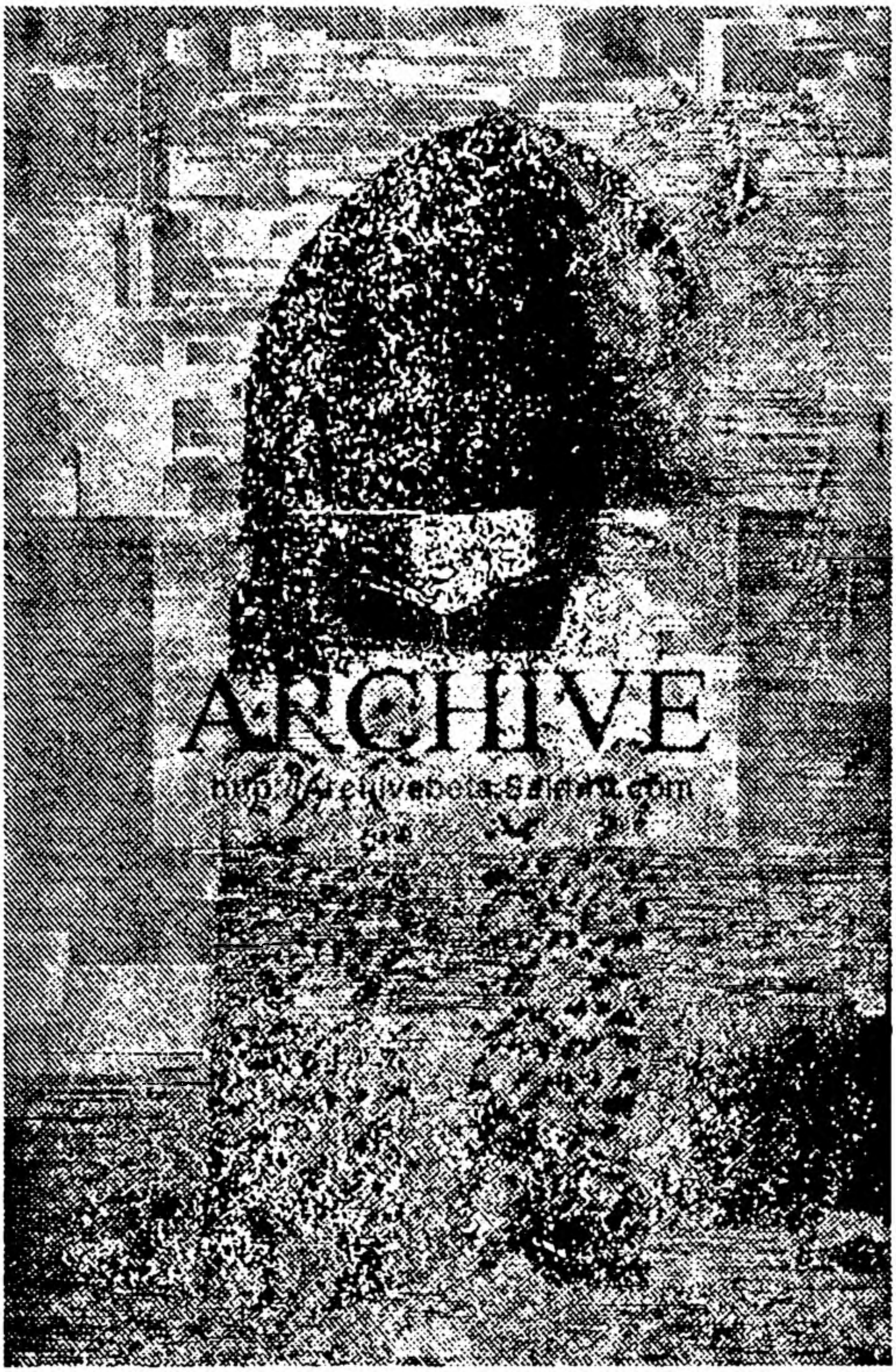

لوحة (١٣) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهاير

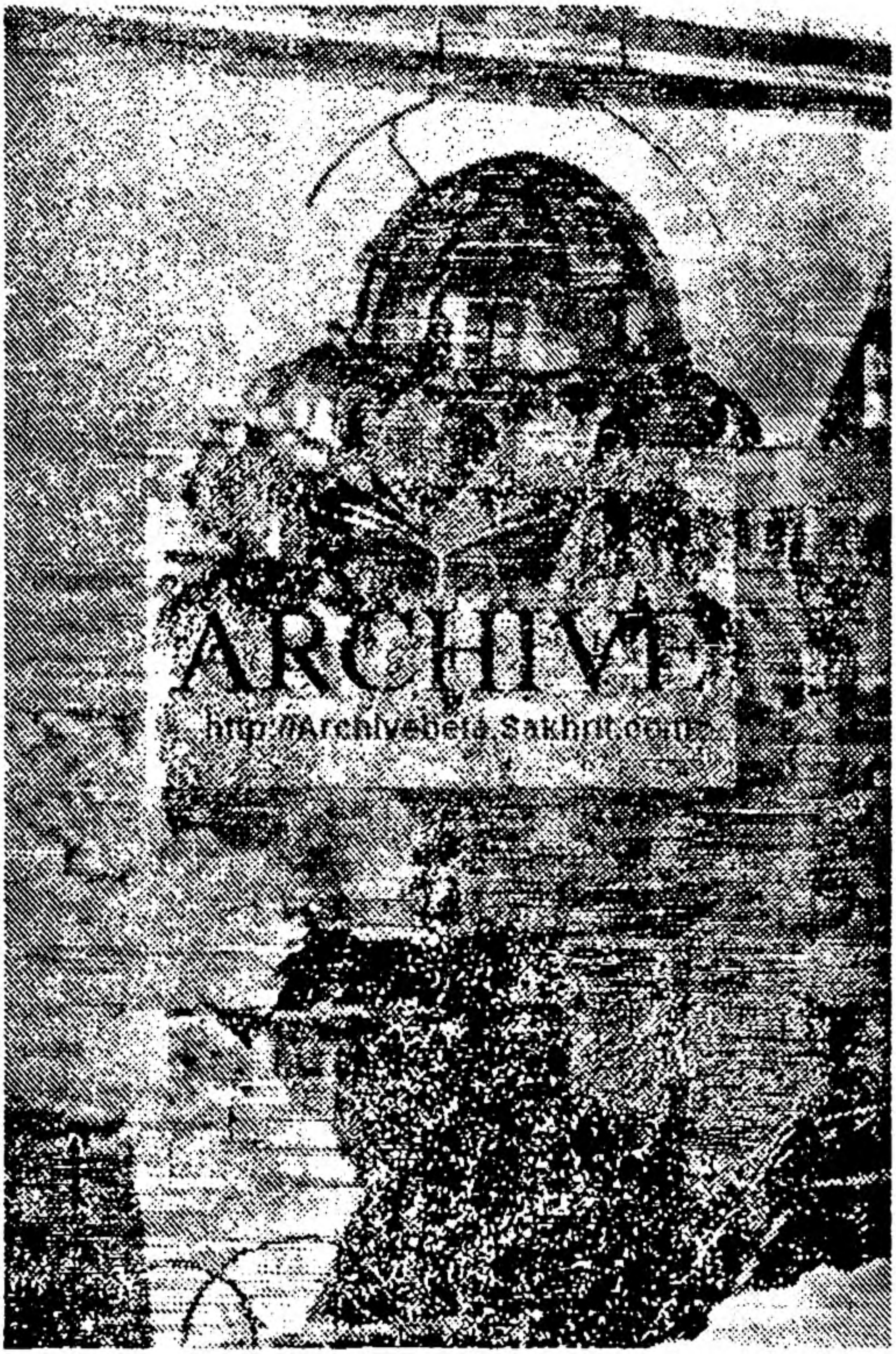
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة (١٤) : مدخل مدرسة وخانقاه الجاولى جهة قلعة الكبش

لوحة (١٥) : تفصيل من قبة سلار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة (١٦) : تفصيل من قبة الجاولى

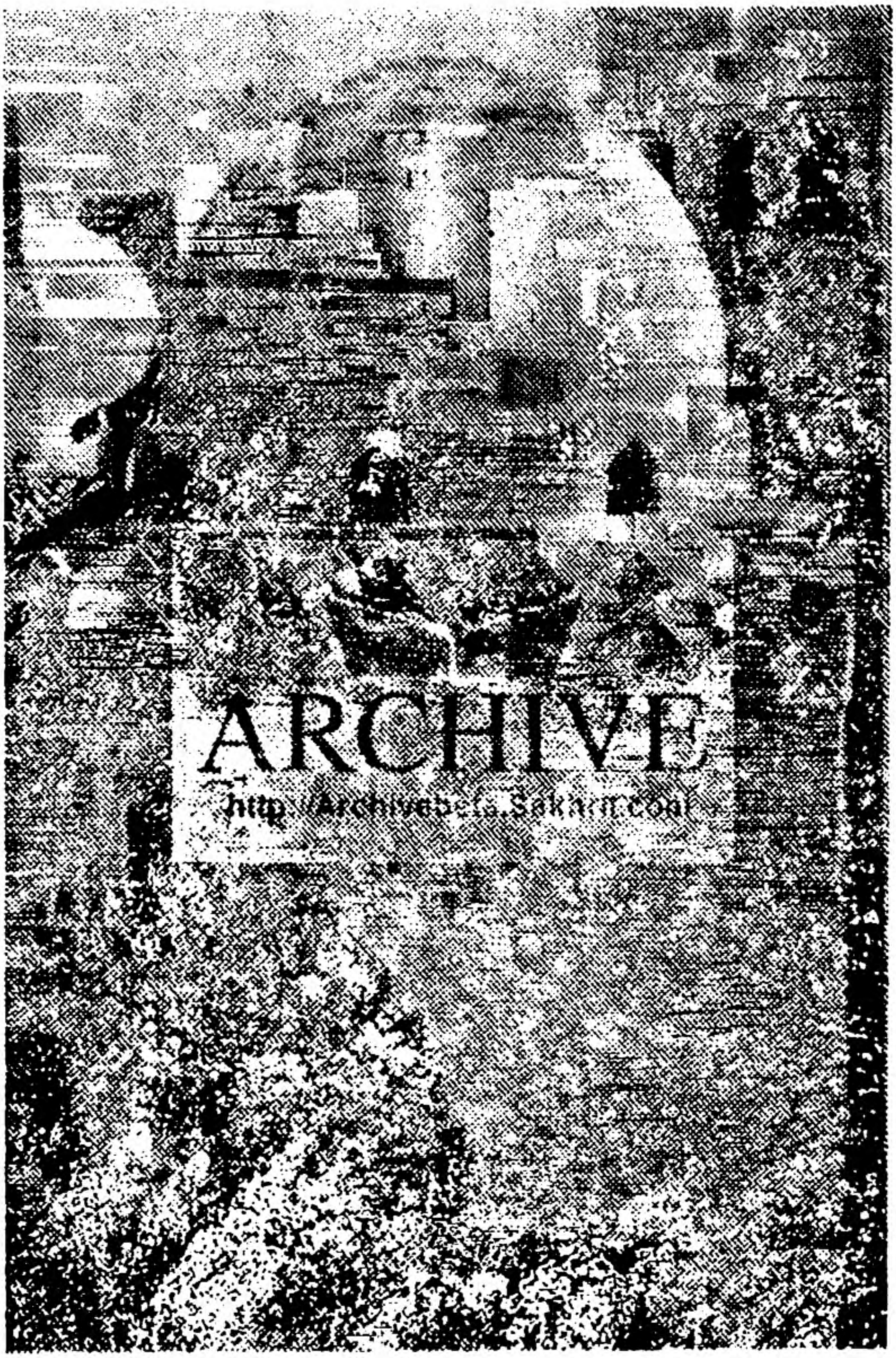
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة (١٧) : القبة الثالثة الحجرية

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية المطبوعة :

— ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م:
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، خمسة اجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .

— ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م :
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

— ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ٦ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٢١ - ١٩٧٢م .
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، خمسة اجزاء ، القاهرة ، ١٩٨٥ - ١٩٩٠م .

— ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م
تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، ٣ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

— ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ،تحقيق محمد سيد جادالحق ، ٤ أجزاء ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

— ابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م :
فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، النهضة المصرية ، ١٩٥١م .

— ابن العماد (أبو الفتح عبد الحى) ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م :
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، جـ٦ ، بيروت - لبنان .

— ابن ايبك الدوادار (ابو بكر بن عبد الله) :
كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس رويمر ، جـ٩ ، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

— الحميرى (محمد عبد المنعم) :
الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت، ١٩٨٤م .

— السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م :
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمد محمد الطناحى ، عبد الفتاح محمد محمد الحلو ، جـ١٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٣هـ/ ١٩٩٢م .

— الشوكانى (محمد بن على) ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م :
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ.

— العينى (بدر الدين محمود) ت٨٥٥هـ/١٤٥١م :
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د. محمد محمد أمين، جـ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

— القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت٨٢١هـ/١٤١٨م :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ،١٤ جزء ،القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨م.

— مجير الدين الحنبلى (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م :
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، القاهرة .

— المقـدسى :
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

— المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت٨٤٥هـ/١٤٤١م :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الاثار(المعروف بالخطط المقريزية)، جزآن الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د٠ محمد مصطفى زيادة ، د٠ سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٧٣م ٠

- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م: معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ٦ أجزاء ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ٠

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

- د٠ أحمد فكرى :

مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، دار المعارف بمصر ٠

- جومار : وصف مدينة القاهرة ، ترجمة :

د٠ ايمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٠

- د٠ حسن الباشا :

الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ٠

- د٠ حسن سيد جودة القصاص :

المدرسة الصرغتمشية ، دراسة أثرية معمارية ، مخطوط رسالة ماجسير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، ١٣٩٢ - ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

- حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الاثرية ، الهيئة المصرية العامة الكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م٠

- د٠ حسنى محمد نويصر :

عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية (تاريخ المدارس فى فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين (٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ٠

— حسين روحى :
المختصر فى جغرافية فلسطين ، القدس ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م .

— د. حسين مصطفى حسين :
المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية ، دراسة أثرية فنية ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

— د. سعاد ماهر محمد :
مساجد مصر وأولياؤها الصالحين ، خمسة أجزاء ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وزارة الأوقاف بمصر .

— سليم عرفات المبيض :
غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .
البنايات الأثرية الاسلامية فى غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م .

— شاهنده فهمى كريم :
جوامع ومساجد امراء السلطان الناصر محمد بن قلاون ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

— شفيقة قرنى سيد :
دراسة اثرية عمرانية لشارع الصليبة بالقاهرة حتى العصر الجركسى ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الاثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

— د. عادل شريف :
النصوص التأسيسية على العمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ـ جامعة اسيوط ، ١٩٨٦م .

— د. عبد الله كامل موسى عبده :
تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية

العصر المملوكى ، دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

— على باشا مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

— د. على محمود سليمان المليجى :
عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

— د. فـــريد شـــافعى :
العمارة العربية فى مصر الاسلامية (عصر الولاة) ، المجـــلد الأول ، الهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٩٩٤م .

— مايــــر :
الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة الكتاب .

— د. محمد حمزة اسماعيل الحداد :
العلاقة بين النص التاسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى المدرسة فى العصر المملوكى (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين(٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٢م .
القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، مكتبـــة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

— د. محمد سيف النصر أبو الفتوح :
منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، يناير ١٩٨٠م .
مداخل العمائر المملوكية بالقـــاهرة الدينية والمدنية ، (من مدة ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠/١٣٨٢م) مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار.

ثالثا : المراجع الأجنبية :

— Abou Seif (D.) :

- Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press.

— Creswell (K.A.C.) :

- The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamluks, Oxford, 1959.
- The Evolution of the Minaret, Burlington, Magazine (Mars, Mai, Juin, 1926).

— Devonchire (R.L.) :

- L' Egypte Mauslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926.

— D. Margolieuth. S., :

- Cairo, Jeursalem, Damascus, London, 1907.

— Meinecke (Michael) :

- Die Mamlukische Architektur in Agypten und Syrin (648-1250 Bis 923 - 1517), tell 11, Verlag J.J. Augustin G.m BH. Gluck stadt, 1992.

— محمد الششتاوى سند :
متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

— د. محمد عبد الستار عثمان :
نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر ١٩٧٩م .

— د. محمد محمد أمين :
الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م.

— محمود على خليل عطا الله :
نيابة غزة فى العهد المملوكى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

من خلال تعهدات الرابنور لوكيوس كاسيوس الذى أنيطت به مهمة اصطحاب يوجورثا إلى روما ، توجه إلى هناك لكى يدلى بشهادته حول علاقات ورشاوى تلقاها كبار القادة والنبلاء وذلك أمام الجمعية القبلية فى روما . وفى روما لقى تشجيعًا من أعوانه الرومان واستمال إليه المزيد منهم وأبرزهم أحد ترابنة العامة ويدعى جايوس بابيوس بتقديم رشوة ضخمة إليه(١٧) . وفى المقابل قام هذا الأخير بدور هام فى إنقاذ يوجورثا من براثن العامة المهتاجين فى الجمعية القبلية ومن ضغوط التريبون الآخر الثائر جايوس ميميوس الذى أعد قائمة اتهام مفصلة لأعوان يوجورثا فى روما وألح فى طلب شهادته . عندئذ تدخل التريبون الآخر جايوس بابيوس وطلب من يوجورثا ألا ينبس بكلمة رغم هياج العامة ، وانتهى الأمر بأن انفضت الجمعية القبلية وسط غضب شديد ومكتوم من جموع العامة(١٨) . وبعد أن اطمأن على مصيره بعد هذا الموقف شرع يوجورثا فى استغلال نفوذه وأمواله وهو فى روما التخلص من أحد اللاجئين من العائلة الملكية النوميدية فى روما وهو ماسيفا بن جولوسا بن ماسينيسا أحد ورثة عرش نوميديا من بعده ، والذى فر من نوميديا بعد سقوط كيرتا ومقتل أدهربال . وقد نفذ يوجورثا هذه الخطة بالفعل حين كلف بها ساعده الأيمن وموضع ثقته بوميلكار الذى كان معه فى روما والذى استأجر بعض المحترفين الرومان الذين نفذوا هذه الجريمة ، بل واستطاع أن يُهرِّب بوميلكار سرا إلى نوميديا رغم الاستياء والاستهجان الشديد للجريمة من الرومان . ورغم ذلك كله لم يملك الرومان إيذاء يوجورثا لما كان يتمتع به من حماية وحصانة وإنما طالبه السناتو بمغادرة إيطاليا ، وبعد أن خرج يوجورثا من بوابات روما آمنا بعد كل ما فعله قال عبارته الشهيرة: " مدينة (روما) للبيع ومقدر لها الدمار السريع لو وجد المشترى "(١٩) .

" Urbem venalem et mature perituram, si emptorem invenerit "

عند هذا الحد قررت روما العودة إلى ميدان القتال ضد يوجورثا مرة أخرى وعينت هذه المرة القنصل سبوريوس ألبينوس لخوض المعركة عام ١١٠ ق. م. وبعد أن وصل هذا القنصل إلى أفريقيا وأعد العدة للمعركة ضد يوجورثا راوغه